فصول في تزكية النفس

كتبها

أحمد سالم

إن الهادي البشير هو معلمنا وهادينا ومؤدبنا، حيث أدبه ربه فأحسن تأديبه حتى خاطبه مثنيًا عليه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

لذا حبَّب إليه القلوب، وقرَّب إليه النفوس فمالت إليه الأفئدة، ولما كان من أهم المهمات التي بُعث بها نبي هذه الأُمة هي تزكية النفس وتربيتها وتهذيبها كما قال عز وجل في كتابه الكريم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قال ابن عباس: «يَعْنِي بِالتزكية، طَاعَةَ اللهِ وَالْإِخْلَاصَ».

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]. قال الحسن البصري: «مَعْنَاهُ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ فَأَصْلَحَهَا وَحَمَلَهَا عَلَى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها: أَهْلَكَهَا وَأَضَلَّهَا وَحَمَلَهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ».

فتزكية النفس اسم جامع لتطهيرها من المعصية ونماء خيرها بالطاعة، مع التأكيد على طاعات النفس غير الظاهرة وذنوبها على وجه الخصوص.

لأجل ذلك يأتي الحديث عن تزكية النفوس؛ لأن المقصد

الأساسي من رحلة العبودية هو تطهير النفس والجوارح من الذنوب، وتنمية خير النفس بالعمل والطاعة.

وبعد..

فهذه فصول مختصرة كتبتها في أوقات متفرقة، أردتُ أن أجعلها بين يديك في هذا الكتاب الصغير، تُديم النظر فيها، فتجدد إيمانك، وتثير مكامن التزكية في نفسك وقلبك وروحك.

فصول في تزكية النفس

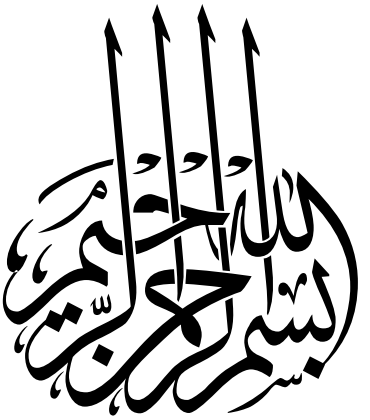
بسم الله الرحمن الرحيم

فصول في تزكية النفس

كتبها

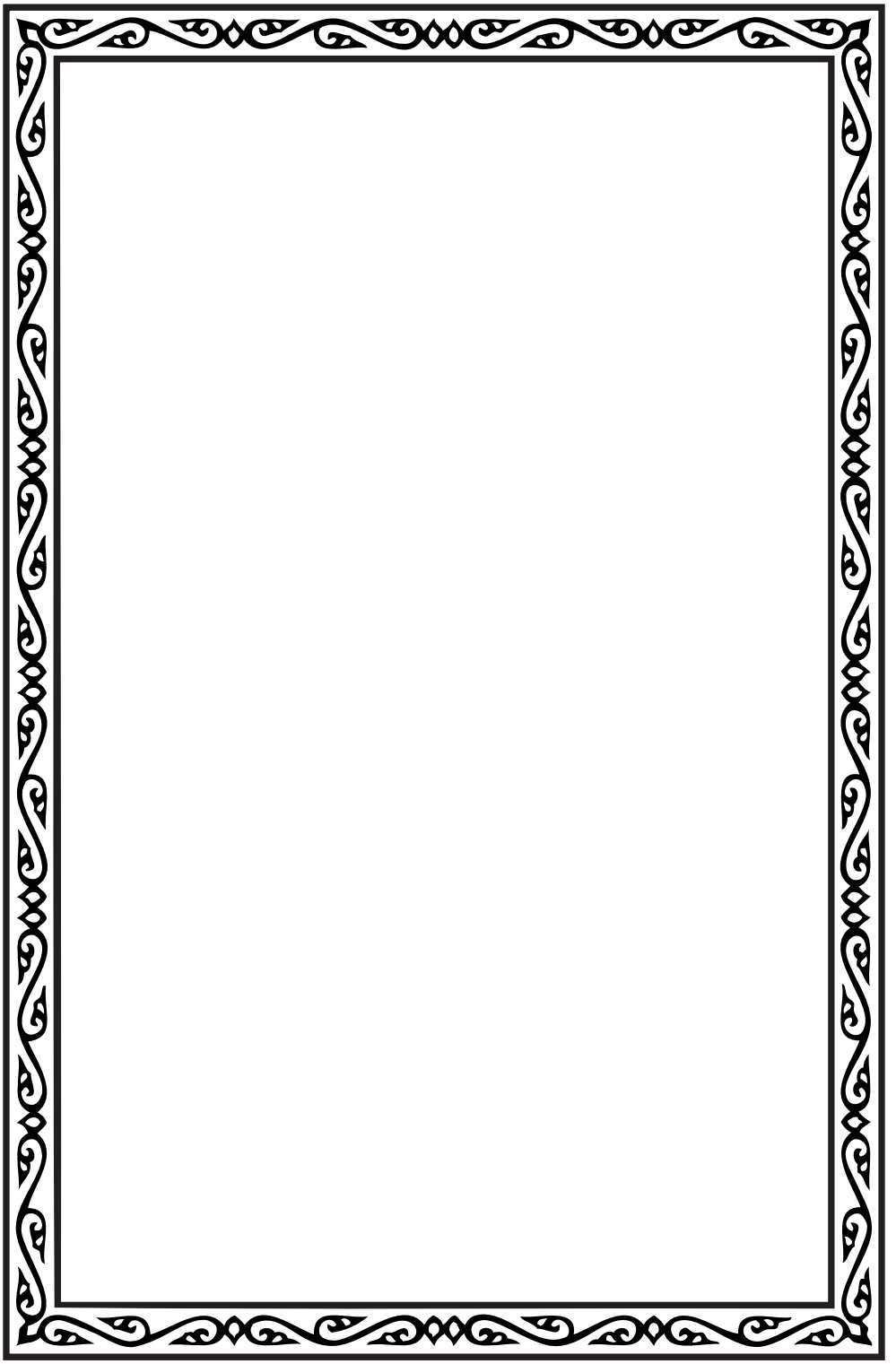

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
أولًا: ممهدات تزكية النفس والروح	٩
مفهوم تزكية النفس	١١
أهمية تزكية النفس	١٨
دعوة الأنبياء إلىٰ تزكية النفوس	٢٥
تزكية النفوس ركن من أركان البعثة النبوية	٢٨
الإحسان إلىٰ النفس	٣٢
طرق تزكية النفس	٤٧
أهمية التخلية ومعالجة الآفات النفسية والخلقية	٥٩
محاسبة النفس	٦٢
ثمرات محاسبة النفس	٧٠
أهمية التوازن والاعتدال في قيادة النفس	٧٥
العبودية جوهر التزكية	٧٩
محبة الله عماد الأمر كله	٩٣
ثانيًا: الروحانية والتدين والمعنىٰ	١٠١
الروحانية والتدين والمعنىٰ	١٠٣
مهارات التعبد والممارسة الروحانية	١٢٧
علل التدين	١٥٦
ثالثًا: فصول في تزكية النفس	١٨٩
المصادر الأساسية	٢٧٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمدُهُ ونستعينُه ونستغفرُه ونعوذ به تعالىٰ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادِيَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد . .

فإن الهادي البشير هو معلمنا وهادينا ومؤدبنا، حيث أدبه ربه فأحسن تأديبه حتىٰ خاطبه مثنيًا عليه، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

لذا حبَّب إليه القلوب، وقرَّب إليه النفوس فمالت إليه الأفئدة، ولما كان من أهم المهمات التي بُعث بها نبي هذه الأُمة هي تزكية النفس وتربيتها وتهذيبها كما قال ﷻ في كتابه الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ

عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. قال ابن عباس: «يَعْنِي بِالتزكية، طَاعَةَ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصَ».

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

قال الحسن البصري: «مَعْنَاهُ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ فَأَصْلَحَهَا وَحَمَلَهَا عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها: أَهْلَكَهَا وَأَضَلَّهَا وَحَمَلَهَا عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ».

فتزكية النفس اسم جامع لتطهيرها من المعصية ونماء خيرها بالطاعة، مع التأكيد علىٰ طاعات النفس غير الظاهرة وذنوبها علىٰ وجه الخصوص.

لأجل ذلك يأتي الحديث عن تزكية النفوس؛ لأن المقصد الأساسي من رحلة العبودية هو تطهير النفس والجوارح من الذنوب، وتنمية خير النفس بالعمل والطاعة.

وبعد..

فهذه فصول مختصرة كتبتها في أوقات متفرقة، وضممتُ إليها بعض الممهدات في التزكية وفقهها، وأردتُ أن أجعلها بين يديك في هذا الكتاب الصغير، تُديم النظر فيها، فتجدد إيمانك، وتثير مكامن التزكية في نفسك وقلبك وروحك، وتكون صاحبة لك في سفرك وزادًا لك في رحلتك.

وكتب

أحمد سالم

أولًا

ممهدات تزكية النفس والروح

مفهوم تزكية النفس

تزكية النفس هي: عملية تغذية ومداواة للذات الإنسانية، وتحديدًا للجانب النفساني الروحاني القلبي من الذات الإنسانية؛ لأن هذا الجانب هو مصنع السلوك وباعثه والقادر علىٰ إدارته.

١ - تعريف التزكية:

لفظ التزكية وإن شاعت إضافته للنفس فيقال: «تزكية النفس»، إلا أن معناه تزكية الإنسان كله بقلبه ولسانه وجوارحه.

التزكية في اللغة: من زكا يزكو زكاءً. أي نما وطَهُر، فالتزكية هي النماء والطهارة والبركة، والتزكية: تزكية المال، وسميت بذلك رجاء البركة أو تزكية النفس أي تطهيرها من الشح، أو لهما جميعًا.

والتزكية من الأسماء المشتركة بين المُخرج والفعل، فتطلق علىٰ العين، وهي المال الذي دفع للتزكية وعلىٰ المعنىٰ وهو التزكية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، فالتزكية هنا تحمل المعنيين معًا: تزكية الأموال، وتزكية النفوس.

والتدسية ضد التزكية، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]، فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويحقرها.

قال الزجاج: معنىٰ ﴿دَسَّىٰهَا﴾: **جعلها ذليلة حقيرة خسيسة.**

وقال ابن قتيبة: أي: «أخفاها بالفجور والمعصية»[(١)].

وأصل التزكية الزيادة في الخير، ولن ينمو الخير إلا بترك الشر كما أن الزرع لا ينمو حتىٰ يزال عنه الدغل.

يقول الإمام ابن تيمية: «التزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر، كما يقال عدَّلته: إذا جعلته عدلًا في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢] أي تجبروا بزكاتها»[(٢)].

قلت: فكأن الذنوب والمعاصي للنفس بمنزلة الحشيش الضار للأرض يُضعف خيرها ويضر نبتها.

- تزكية النفس مطلب ومقصد من مقاصد الشارع، فإن الدين كله يدور حول تزكية النفس لتعبد ربها بحق وصدق، وتبتعد عن مساخطه ومناهيه بإرادة وعزم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها في البدن، وبعضها في بعض، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل، والنفس البرة الزكية قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت، فوقت الموت تخرج من البدن كما تخرج الشعرة من العجين»[(٣)].

- والتوحيد والإيمان أعظم ما تتزكىٰ به النفوس، والشرك أعظم ما يدسيها.

---

(١) «تزكية النفس» لشيخ الإسلام ابن تيمية، (ص: ٤٣-٤٢) بتصرف.
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١٠/ ٩٧-٩٨).
(٣) «تزكية النفس» لشيخ الإسلام ابن تيمية، (ص: ٤٤).

- والمبادرة إلىٰ تزكية النفس فرض لازم علىٰ كل مسلم لينال الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي القرآن الكريم قوله تعالىٰ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي زكّىٰ نفسه، وذلك بتنميتها، والارتقاء بها نحو معرفة الله والإيمان به، ومراقبته وحبه والعمل علىٰ تقواه، وزيادتها بالخيرات والبركات، وتطهيرها من الذنوب والشرور والآثام، وتهذيبها من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة الفاسدة، وتربيتها علىٰ الفضائل والأخلاق السامية، وتصفيتها من رواسب الكفر والنفاق والرياء، والحسد وغير ذلك من الأمراض، وتنقيتها من الأوهام والوساوس والخرافات.

ولو استقرأنا كلمتي النفس والتزكية بجميع اشتقاقاتهما في كتاب الله لوجدنا أن كلمة النفس وردت في ثلاثمائة وثمان وتسعين آية. وكلمة التزكية في تسع وخمسين آية.

ونذكر علىٰ سبيل المثال:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وقال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣].

وقال ﷻ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار المزكىٰ يجمع هذا وهذا.

٢ - تعريف النفس:

النفس لغة: تطلق علىٰ معانٍ، أبرزها المعاني الثلاثة التالية:

١- **النفس**: بمعنىٰ الروح، يقال: خرجت نفس فلان، أي روحه.

٢- **النفس**: بمعنىٰ ذات الشيء وحقيقته، تقول: قتل فلان نفسه وأهلك نفسه، أي: أوقع الإهلاك بذاته كلها، فالنفس هنا تطلق علىٰ الإنسان جميعه، ونفس الشيء: **ذاته**.

٣- وتأتي أيضًا معنىٰ ما يكون به التمييز.

والنفس: هي التي تفارق الجسد بالموت. ويراد بنفس الشيء: ذاته وعينه. وكذلك قد يراد بلفظ النفس: الدم الذي يكون في الحيوان، كقول الفقهاء: ما له نفس سائلة، وما ليس له نفس سائلة. ومنه يقال: نفست المرأة أي حاضت، ومنه يقال: النفساء. ويراد بالنفس أيضًا صفاتها المذمومة، فيقال: له نفس. ويقال: اترك نفسك.

والذي يعنينا- معنيان:

المعنىٰ الأول: (النفس الكبرىٰ): وهي النفس التي نعني بها الذات الإنسانية كاملة، المؤلفة من جسد وروح، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

يقال: جاء هو نفسه أو بنفسه، أي ذاته. والنفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة، هي نفس الإنسان الأول [آدم] عليه السلام، ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بثَّ منهما عن طريق التناسل كل السلالات البشرية المتكاثرة إلىٰ أن تقوم الساعة، دلَّ علىٰ هذه الحقيقة قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ

مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١].

- وفي القرآن الكريم يقول الله ﷻ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشَّمْس: ٧].

يقول القرطبي في «تفسيره»: «في النفس قولان أحدهما آدم، والثاني كل نفس منفوسة»[(١)].

- وأكثر آيات القرآن الكريم التي تذكر النفس تعني هذه الذات الإنسانية منها قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، وقوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العَنْكَبُوت: ٥٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإِسْرَاء: ٣٣].

المعنىٰ الثاني: (النفس الصغرىٰ) وهي: «شيء في داخل كيان الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني»[(٢)].

ويقول الإمام الغزالي عن هذا المعنىٰ: «يراد به المعنىٰ الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، فهي الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بُدَّ من مجاهدة النفس وكسرها»[(٣)].

---

(١) «تفسير القرطبي»، (٢٠/ ٧٥).

(٢) «الأخلاق الإسلامية وأسسها»، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، (١/ ٢٩).

(٣) «إحياء علوم الدين»، للغزالي، (٣/ ٤).

- ويشير إلىٰ هذا المعنىٰ العديد من آيات الله ﷻ منه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سُورَةُ قٓ: ١٦].

وقوله سبحانه حكاية عن قصة يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يُوسُفَ: ٥٣].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥]، وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار النبي ﷺ فيما رواه النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[(١)].

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: «أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: جئتَ تسألُ عن البرِّ والإثمِ؟ قال: نعم، فقال: استفتِ قلبكَ: البرُّ[(٢)] ما اطمأنتْ إليهِ النفسُ، واطمأنَ إليهِ القلبُ، والإثمُ[(٣)] ما حاكَ في النفسِ وترددَ في الصدرِ، وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوكَ[(٤)].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٣).
(٢) **البر**: جميع فضائل الأعمال والأخلاق.
(٣) **الإثم**: جميع رذائل الأعمال والأخلاق.
(٤) [حسن لغيره] «مسند أحمد» برقم (١٧٩٩٩)، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب»، للألباني، (١٧٣٤).

ومن هنا يمكن تحديد تعريف النفس من خلال المعنيين الأخيرين بما يلي:

• **النفس:** هي شيء داخلي في كيان الإنسان لا تُدرك ما هيته، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني، وقابل للتوجه إلىٰ الخير أو الشر.

والنفس بهذا المعنىٰ تشمل الروح والقلب وكل ما في الإنسان من قوىٰ الإدراك التي يميز بها بين الخير والشر، وسوف يتضح هذا المعنىٰ أكثر.

- **والسؤال المطروح في هذا الموضوع:** أي المعنيين المقصود من تزكية النفس؟

والجواب: يمكن إطلاق تزكية النفس علىٰ كليهما، علىٰ النفس البشرية بصورة عامة، أو النفس التي في داخل الإنسان بصورة خاصة، فكلاهما يحتاج إلىٰ تزكية، أي إلىٰ تنمية وارتقاء وزيادة وتطهير، وتهذيب وتربية وإصلاح وتصفية وتنقية وتخلية وتحلية.

أهمية تزكية النفس

خلق الله الإنسان، ويسر له سبل الإيمان، وجعله مختارًا وكلفه بحمل الأمانة، وسخر له ما في السماوات والأرض، وجعله خليفته في أرضه، وأرسل له الأنبياء والرسل ليدلوه علىٰ طريق سعادته في الدنيا والآخرة، وجعله مسؤولًا ومحاسبًا عما يصدر عنه منذ سن البلوغ -لأنه في هذه السن يستطيع التمييز بين الخير والشر- وبين له نتيجة اختياره فقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

- وقد خلق الله تعالىٰ النفوس البشرية، وسواها علىٰ أكمل خلق وأجمله، وكرمها علىٰ سائر المخلوقات، وبين لها طريق الخير وطريق الشر. قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وترك لها حرية الاختيار لأحد الطريقين قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

- وأظهر سبحانه لها أن الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، لمن يختار طريق الإيمان الحقيقي الذي لا يكون إلا بتزكية النفس، كما بين أن الذي لا يزكي نفسه سوف يتبع طريق الشر الذي سيؤدي به إلىٰ الخيبة والخسران، والشقاء في الدنيا والآخرة قال تعالىٰ مبينًا هذه المعاني: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وطلب الفلاح والنجاح والسعادة، والابتعاد عن الخيبة والخسران والشقاء، مقصد كل إنسان عاقل يحب الخير لنفسه ويكره لها الشر، وهذا لا يكون إلا بالتزكية. ومما يدل علىٰ أهميتها ما جاء في الحديث الصحيح علىٰ لسان نبينا محمد ﷺ: «**ثلاث من فعلهنَّ فقد ذاق طعم الإيمان: مَنْ عبدَ الله عز وجل وحده وأنه لا إله إلا هو، وأعطي تزكية مالهِ طيبةً بها نفسها رافدةً عليه في كل عام . . . ، وزكيَّ نفسه**».

فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال ﷺ: «**أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان**»[(١)].

وهي بهذا المعنىٰ أعلىٰ مراتب الدين وهو الإحسان. ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحيح عن رسول الله ﷺ عندما جاء جبريل عليه السلام وسأله عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم قال: «ما الإحسان؟» قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٢)].

وصحَّ عن حصين بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا حصين كم تعبد اليوم إلهًا؟**»، قال: سبعةً، ستاًّ في الأرض، وواحدًا في السماء، قال: «**فأيُّهُم تُعِد لرغبتك ورهبتك؟**» قال: الذي في السماء قال: «**يا حصين أما إنَّك لو أسلمت عَلَّمتك كلمتين تنفعانك**»، قالَ: فلمَّا أسلم حصين؛ قال: يا رسول الله عَلِّمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: «**قل: اللَّهم ألهمني**

---

(١) [**صحيح**]: «معجم الطبراني الصغير»، (ص: ١١٥)، و«السنن الكبرىٰ»، للبيهقي، (٤/ ٩٥)، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني، رقم (١٠٤٦)، و«صحيح الجامع» برقم (٣٠٤١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨).

رشدي وأعذني من شرَّ نفسي»[(١)]. وقال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «اتَّفق السالكون إلي الله تعالىٰ أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلي الرب، ولا يوصل إليه إلَّا بعد تركها، ومخالفتها، والظفر بها»[(٢)].

- إذن فطريق التزكية طريق النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والله ﷻ يقول: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وتظهر أهمية التزكية في أمور كثيرة جدًا نذكر منها:

أولًا: تحقق التزكية المعرفة الحقيقية لله، والإيمان الكامل به، والحب الخالص له، وهذا يوصل إلىٰ غاية الإنسان في هذه الحياة التي خلق لأجلها قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثانيًا: تحقق التزكيةُ العبوديةَ الخالصةَ لله، والطاعة التامة له، وهذا يوصل إلىٰ تحقيق ما أمر به عباده. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ثالثًا: تجعل التزكيةُ المسلم مسلمًا حقًا كما يحب الله تعالىٰ له، ويرضاه خالصًا من الشوائب، بعيدًا عن النفاق، متخلقًا بأخلاق القرآن الكريم والنبي العظيم ﷺ، سالكًا طريق الاستقامة واليقين، مبتعدًا عن طريق الشيطان الرجيم، منتهجًا نهج الصحابة والتابعين، والعلماء الصالحين، والمؤمنين الفائزين.

---

(١) [ضعيف] «سنن الترمذي» برقم (٣٤٨٣)، و«عمل البوم والليلة»، للنسائي، برقم (٩٩٣/ ٩٩٤)، و«مستدرك الحاكم»، (١٥١٠). انظر: «ضعيف سنن الترمذي»، للألباني، برقم (٣٧٣٠).

(٢) انظر: «إغاثة اللَّهفان» (١/ ٧٥). يتصرف.

رابعًا: التزكية هي إحدىٰ المهام الأربع التي أوكلها الله ﷻ لنبيه المصطفىٰ ﷺ ليؤديها إلىٰ الناس ويدعوهم إليها: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فأداها النبي ﷺ خير أداء، ثم أمر الدعاة من العلماء من بعده أن يحملوها صادقين ويؤدوها طائعين.

خامسًا: توصل التزكيةُ الإنسان إلىٰ مقامات عالية كحب الله له ورضاه عنه، قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

سادسًا: تحقق التزكيةُ للإنسان السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

سابعًا: تربي التزكية في الإنسان مراقبة الله وخشيته، والخوف منه، والعمل بأوامره، والبعد عن نواهيه، فيصبح هذا الإنسان وكأنه ملك يمشي علىٰ الأرض.

ثامنًا: تدفع التزكية المسلم إلىٰ الاستقامة مع الله ومع عباده وتربي فيه الأخلاق الفاضلة، والسلوك القيم، والمعاملة الحسنة، والآداب السامية.

تاسعًا: تجعل التزكية المسلم مسلمًا حقًا، متكامل الإيمان، متكامل الأخلاق، متكامل الصفات، نموذجًا حيًا متحركًا وفقَ تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة كما كان يوصف النبي ﷺ: «كان خُلُقُه القُرآنَ».

فالتزكية تملك القدرة العجيبة في التبديل والتغيير من واقع إلىٰ آخر يغايره، إلىٰ واقع مثالي كامل رباني نبوي إسلامي.

عاشرًا: تربي التزكية في المسلم الإرادة القوية التي تجعله يسرع في

تطبيق جميع أوامر الله، والابتعاد عن نواهيه منشرح الصدر، واثق الخطىٰ، مؤمنًا صادقًا، تقيًا نقيًا.

أما المسلم الذي لا يزكي نفسه فإن إرادته ضعيفة فلربما تلا القرآن، وعلم أحكامه، وفهم حكمته، ولكنه لا يطبق شيئًا من ذلك كله.

أو لربما كان عمله وسلوكه مغايرين لما تلا وعلم وفهم، فالتزكية إذن هي المجال العملي، الذي نرىٰ من خلالها المسلم الحق المطبق لكل أحكام الإسلام علىٰ أكمل وجه، وفي جميع المواقف والمناسبات، وخير مثال وأوضحه علىٰ كل ما ذكرناه عن أهمية التزكية، مثال حقيقي واقعي طبقت فيه التزكية خير تطبيق، فكانت النتائج مشرفة، وعلىٰ أكمل وجه.

- هذا المثال الحقيقي الواقعي وجد في زمن النبي ﷺ، فقد كان النبي ﷺ -وهو المُزكّىٰ من الله ﷻ- مزكيًا للصحابة الكرام، فكان الصحابة خير مثال عن التزكية، فكانت التزكية تجربة واقعية، وكانت عملية تغيير وتبديل، وعملية تربية وتقويم، وعملية نمو وارتقاء وعملية زيادة ونماء، وعملية تطهير وتهذيب وعملية تصفية وتنقية.

فنقلهم النبي ﷺ بالتزكية:

من الكفر إلىٰ الإيمان	ومن الضلالة إلىٰ الهدىٰ
ومن الظلمات إلىٰ النور	ومن الجهل إلىٰ العلم
ومن الضعف إلىٰ القوة	ومن الفقر إلىٰ الغنىٰ
ومن الظلم إلىٰ العدل	ومن الغضب إلىٰ الحلم
ومن البغض إلىٰ المحبة	ومن الفرقة إلىٰ الوحدة
ومن الشقاء إلىٰ السعادة	ومن قساوة القلوب إلىٰ لينها
ومن الأنانية إلىٰ التعاون	ومن حب الذات إلىٰ الإيثار

ومن التكبر إلىٰ التواضع	ومن الأخلاق الفاسدة إلىٰ الأخلاق السامية
ومن لا شيء إلىٰ كل شيء	حتىٰ ملكوا الدنيا بما فيها

وحتىٰ ملكوا الملوك والقلوب.

فأصبحوا كما وصفهم الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إذن الصحابة الكرام هم المثال الحي علىٰ نتائج هذه التزكية، ولو درسنا شخصية واحدة من هذه الأمة كنموذج عملي، لنتعرف علىٰ مدىٰ نتائج تأثير تزكية النبي ﷺ في نفوس أصحابه، ومدىٰ تلك النقلة بين ما كانوا وما أصبحوا، ومدىٰ ذلك التغيير والتبديل في شخصيتهم، ومدىٰ تلك التربية والتنقية والتصفية، ومدىٰ التطهير والنمو والزيادة، لتبين لنا حقيقة التزكية وأهميتها وضرورتها ومدىٰ فعاليتها. وكل صحابي من صحابته ﷺ يمكن أن يكون صاحب هذه الشخصية، لأنهم جميعًا تأثروا بتزكية النبي ﷺ فتغيروا وتبدلوا وأصبحوا حكماء علماء، ونماذج حية من الإسلام المتحرك، والمثال الحي عن القرآن الكريم والسنة المطهرة.

- ولعل أقرب مثال إلىٰ أذهاننا جميعًا الشخصية الفذة، شخصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، فقد عاش خمسًا وستين سنة تقريبًا. نصفها في ظلام الخمول، كان فيها نكرة مجهولًا، لا اسم له ولا مجد، يرعىٰ أغنام خالاته علىٰ قبضة من تمر أو زبيب. ونصفها استحال معدنه القابل بالتزكية الإلهية ثم النبوية؛ إلىٰ نور العظمة، كان فيها عَلَمًا من الأعلام، وأصبح من أعظم رجال البشرية جمعاء.

وكانت نقطة التحول في اللحظة التي قال فيها:

أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. هنالك ولد عمر حقًا، وبدأت حياته في التاريخ عندما دخل مدرسة التزكية الإيمانية، التي يشرف عليها المُزكىٰ من الله والمُزكي لعباد الله سيدنا محمد ﷺ، عمر هذا الذي كان في الجاهلية سريع الغضب، شديد الكفر، ظلومًا جهولًا، مع شعب من عدن خير استقبلت مطر الخير والإيمان فأنبتت زرعًا مخضرًا زاهيًا.

فإذا به بعد الإسلام وبعد أن دخل مدرسة التزكية، يبكي ويعاتب نفسه لأقل هفوة تظهر منه، وإذا به يغدو رقيقًا سمحًا يحاسب نفسه علىٰ كل صغيرة وكبيرة.

أيُّ تغير هذا؟! إنه الإسلام، وإنها تزكية الإسلام، إنها مدرسة التزكية التي تصقل الطباع، وتبدل السلوك، وتنمي الإحساس، وتقوي الإيمان، وترفع الشأن وتعز الإنسان، وتشرف الروح.

دعوة الأنبياء إلى تزكية النفوس

ولما كانت هذه الحقيقة سنة كونية شرعية؛ فإن جميع المرسلين دعوا أقوامهم إلىٰ تحقيقها والسير علىٰ هداها.

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام، أول رسول إلىٰ الناس، يخاطب قومه قائلًا- كما أخبر الله ﷻ عنه-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٥-١١٠].

وهذا هود ينذر قومه بالأحقاف؛ قائلًا -كما أخبر الله عنه-: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٣-١٣٥].

وكذلك صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٤١-١٥٢].

ولوط عليه الصلاة والسلام كذلك: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٦٠-١٧٥].

وشعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ . . .﴾ الآيات [الشُّعَرَاء: ١٧٦-١٩٠].

وموسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٠-١٧١].

وقول موسىٰ عليه السلام لفرعون؛ كما أخبر تعالىٰ عنه: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النَّازِعَات: ١٨-١٩].

وعيسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزُّخْرُف: ٦٣].

وقال تعالىٰ مخبرًا أيضًا عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عِمْرَان: ٥٠].

وهذا ما سار عليه جميع المرسلين؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المُؤْمِنُون: ٥١-٥٢].

وفي الجملة فالتقوىٰ هي وصية الله لجميع خلقه، وبعث بها جميع رسله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ١٣١].

فإن قال قائل: هذه الآيات تحضُّ علىٰ التقوىٰ؛ فما بال تزكية النفوس قد حشرت في معناها؟

قلنا: ألم تعلم يا عبدالله أن تقوىٰ الله هي تزكية النفوس شبرًا بشبر وذراعًا بذراع؟!

إن تقوىٰ الله نبع يمد النفوس بمادة تطهيرها.

وإن شئت أن تسمع آيات الله التي تنتظم هذه المعاني:

فقوله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمْس: ٧-١٠]؛ فهذه الآيات نص علىٰ أن العبد يزكّي نفسه بتقوىٰ الله ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجْم: ٣٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ١٧-١٨]؛ يبيِّنان لك أن تزكية النفوس هي تقوىٰ الله.

وانظر إلىٰ قول رسول الله ﷺ بعقلك: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها**»[1].

(١) مسلم (١٧/ ٤١- نووي) من حديث زيد بن أرقم.

تزكية النفوس ركن من أركان البعثة النبوية

إن تزكية النفس البشرية، وتنقيتها من قبائحها، وتصفيتها من أدرانها، والسمو بها إلىٰ مكارم الأخلاق وصالحها: إحدىٰ المهمات التي من بعث الله من أجلها محمدًا ﷺ علىٰ فترة من الرسل، وقد نطق بذلك الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

قال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تبارك اسمه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

ومن ثم؛ فلقد كانت هذه المهمة النبوية ركنًا في دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام، كما أخبر الله عنه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

هذه أيها المسلمون ملة إبراهيم عليه السلام ووصيَّته لبناء أمة مسلمة، ومن أصدق من الله قيلًا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ۖ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٤].

وأما السنة المطهرة؛ ففيها الكثيرة الطيب؛ كقوله ﷺ: «**إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم** (وفي رواية: صالح) **الأخلاق**»[(١)].

لقد بين رسول الله ﷺ أن إحدىٰ مهماته هي إرساء قواعد مكارم الأخلاق وإتمام صالحها وبيان معاليها . . .

أفلا يدلُّ هذا كله علىٰ أن تزكية النفوس لها دور هام في إنشاء مجتمع الخلافة الراشدة علىٰ منهاج النبوة، وأثر بارز في استئناف الحياة الإسلامية؟!

---

(١) صحيح بشواهده:
أخرجه: البخاري في «الأدب المفرد» (ص٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٨١)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٦٥)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق ومعاليها» (ص٢) من طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناده حسن.
وصححه «الحاكم» علىٰ شروط مسلم، ووافقه الذهبي، لكن محمد بن عجلان صدوق فحديثه حسن ولم يخرج له مسلم إلا متابعة (!).
وله شاهد أخرجه مالك (٢/ ٩٠٤) بلاغًا، ومن طريقه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٣).
وله شاهد من حديث زيد بن أسلم مرسل، وآخر من حديث جابر بن عبد الله وفيه ضعف.
وبالجملة فالحديث صحيح بشواهده، والله أعلم.

فإن قيل: هذا الحديث في ميدان الأخلاق، فما بال تزكية النفوس؟!

قلت: أليست تزكية النفوس تكون بمكارم الأخلاق، والاستقامة علىٰ صالحها، والتمسك بمعاليها، والدعوة إلىٰ حسنها؟!

وإن شئت مزيد بيان؛ فاعلم أن رسول الله ﷺ كان قدوة حسنة، تتحرك بين الناس بمكارم الأخلاق، يرونه قائمًا علىٰ إتمامها خير القيام، حتىٰ استحق أن يزكيه الله في كتابه ويشهد له وكفىٰ بالله شهيدًا، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد تنوعت عبارات أهل التفسير في تأويل هذه الآية، غير أن أعدل هذه الأقوال وأصحها ما ذكرته أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما عندما سُئلت عن خلق زوجها رسول الله ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»[(١)].

---

(١) أخرجه: مسلم (٦/ ٢٥- نووي)، وأبو داود (٢/ ٤٠)، والنسائي (٣/ ١٩٩)، والدارمي (١/ ٣٤٥)، وأحمد (٦/ ٥٤، ٩١، ١١١، ١٦٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٠٨)، والحاكم (٢/ ٤٩٩، ٦١٣)، وابن جرير الطبراني في «تفسيره» (٢٩/ ١٣)، وابن حبان (٤٦٧) من طرق متعددة عن سعد بن هشام عن عائشة وذكره.

قلت: وله طرق أخرىٰ عنها، منها:

الأول: عن جبير بن نفير عنها.

أخرجه: أحمد (٦/ ١٨٨)، وابن جرير (٢٩/ ١٣).

قلت: وإسناده حسن.

الثانية: عن الحسن قال سألت عائشة وذكره.

أخرجه: أحمد (٦/ ٢١٦).

قلت: وإسناده صحيح وقد صرح الحسن بالسماع.

الثالثة: عن رجل من بني سوأة عنها.

أخرجه: ابن ماجه (٢٣٣٣).

قلت: إسناده ضعيف فيه رجل مبهم.

الرابع: عن قتادة قال سألت عائشة وذكره. =

ومعنىٰ هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له، وخلقًا تطبعه، فمهما أمره الله في القرآن؛ فعله، ومهما نهاه عنه؛ تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلق العظيم والسلوك القويم، فلم يُذْكَر خلق جميل، ونعت محمود؛ إلا ولرسول الله ﷺ الحظ الأوفر؛ لأنه لم تكن له همة سوىٰ الله تعالىٰ، فاجتمعت فيه مكارم الأخلاق التي أرسل لإتمامها.

وبهذا يتبيَّن أن الخلق العظيم الذي وصف به رسول الله ﷺ هو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به ونهىٰ عنه مطلقًا، حتىٰ صارت المبادرة إلىٰ امتثال ما يحبه الله ويرضاه واجتناب ما يبغضه ويكرهه بطيب نفس وانشراح صدر، وهذه حقيقة التقوىٰ، فقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا وأتقاهم لله وأعلمهم به.

= أخرجه: ابن جرير (٢٩/ ١٢-١٣).
قلت: إسناده منقطع، لأن قتادة لم يسمع من عائشة، كما في «جامع التحصيل» للعلائي.
الخامسة: عن يزيد بن بابنوس عنها.
أخرجه: النسائي في «الكبرىٰ» (١٢/ ٣٣٦- تحفة الأشراف)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٠٩)، والحاكم (٢/ ٣٩٢).
قلت: وإسناده فيه ضعف.

الإحسان إلى النفس[١]

قد يميل الإنسان منذ طفولته إلىٰ حبِّ الذات، وإيثارها علىٰ غيرها في جميع أمور الحياة، بما يشيع في المجتمع بين الناس بالإنسان «الأناني».

وهذه المشكلة المجتمعية تجدها في المجتمعات الإسلامية كذلك؛ حيث إنها تصور النفس بشيء من القتامة.

وإذا أردت أن تعرف مصدر هذا التصور -أي تصور المجتمع عن النفس- ستجد أن له مصادر متعددة، وأهمها الأفكار الدينية التي يحملها ذلك المجتمع.

هذه الأفكار الدينية قد لا تكون بالضرورة سليمة أو مستندة إلىٰ أدلة صحيحة وفهم دقيق، لكنها مع ذلك موجودة ولها تأثيرها في تشكيل تصور المجتمع عن النفس.

فإذا تأملت هذه التصورات الشعبية للمجتمع الإسلامي حول النفس، ستجد أنها تنقسم إلىٰ عدة حالات:

بالنظر إلىٰ نصوص الوحي وما ورد في القرون الفاضلة الأولىٰ، نجد أن ما جاء في كتاب الله وسنة نبيِّنا محمد ﷺ وما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم؛ يُظهرُ أن تصور النفس لم يكن بهذه الصورة القاتمة التي رسخها المجتمع الإسلامي في هذا الزمن. بل علىٰ العكس، نجد في هذه النصوص إشارات

(١) كتب النص الأصلي أخي الدكتور البراء عبد الله بصفر، وقد زدتُ عليها وتممته.

واضحة تدل علىٰ حب للنفس وفهم لطبيعتها، التي قد تميل إلىٰ الخير أو الشر، مما يعكس رؤية متوازنة ودقيقة للنفس الإنسانية.

وكلما عدنا بالزمن إلىٰ الوراء، نجد أن عبارات الذم والعداوة للنفس تقل تدريجيًا، مقابل زيادة صور الإحسان والتصالح والحب وحسن المعاملة للنفس.

وإليك توضيحًا لما قررته في ينابيع ارتوت بماء الوحي الإلهي:

النبع الأول: حول فطرية حب النفس ومركزيتها

هناك مسلمات في الدين لم ينشغل أحد بتحريرها، مثل: وجود الإنسان، ووجود الكون، ووجود الخالق، ومن بينها أيضًا «حب الذات».

فمحبة النفس مُقَدَّمَةٌ يُقاس عليها غيرُها كقوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)

وهي أيضًا غاية ومقصد، ولتتضح هذه الفكرة انظر كيف يخبرك الله -تعالىٰ- بأن كل ما تقوم به من عمل جيد إنما تفعله من أجل نفسك!

وهناك نصوص من الكتاب والسنة تدل دلالة واضحة علىٰ ذلك:

- ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤].
- ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ وردت في ثلاثة مواضع: (سورة يونس والإسراء والنمل).
- ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠].
- ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣).

- ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [طه: ١٨].
- ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦] وردت في موضعين: (في سورة فصلت والجاثية).

وجعل لذة النفس ومتعتها جائزتها الفلاح: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

بل وصف نسيان النفس بأنه عقوبة: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

وفي الأصل، هو لم يطالبك بغير نفسك أن تشتغل بها؛ حفاظًا وإحياءً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: «**جاء حمزة بن عبد المطلب إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلني علىٰ شيء أعيش به؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزةُ، نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال: [بل] نفس أحييها. قال: «عليك بنفسك»**»[(١)].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي صرح فيه بهذا الأمر تصريحًا واضحًا، فعن عبد الله بن هشام قال: «**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ**»[(٢)]

---

(١) «مسند أحمد» برقم (٦٦٣٩). قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٣٢).

فانظر أولًا إلىٰ قول عمر ﷺ، ثم انظر إلىٰ صراحته، ثم إلىٰ التغيير الذي مرَّ به عمر، وعلمه أن هذا الحب لا بد أن يمر من محبة النفس. وهل يحب غيرَه مَن لا يحب نفسَه؟

النبع الثاني: في التعامل مع النفس

١- في أصل التعامل:

وردت مجموعة من قواعد في القرآن والسنة للتعامل مع النفس، إليك بيانها:

جاهِدْ لنفسك: قال تعالىٰ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦].

اللام هنا في ﴿لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لها دلالة مهمة، فعلاقتك مع نفسك لا تبدأ بمحاربتها بل بعكس ذلك تماما. تبدأ بما وصف الله تعالىٰ في كتابه ﴿يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾؛ أي تجاهد من أجلها ولتحقيق الأفضل لها حتىٰ تدخلها الجنة.

احمِ نفسك: التقوىٰ هي حالة الحماية للنفس مما تكرهه، ولا بد من حمايتها ابتداءً من النار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] ولا بد من حمايتها انتهاءً من المشاعر السلبية «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ**»[(١)] مرورًا بالحماية من المرض والأذىٰ كله «**فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ**»[(٢)]

نمِّ ذاتك: قد تبدو هذه العبارة منسوخة من كتب التنمية البشرية، ولكنها في الحقيقة ترتبط مع كلمة (زكَّىٰ) في المعنىٰ المعجمي في اللغة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٢٥).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٧٠٧).

العربية، وهو ما أمرنا الله -تعالىٰ- به تجاه أنفسنا فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] والتطهير يُعد جزءًا من عملية التزكية، لكنه في الأزمنة المتأخرة أصبح يُختزل في جانب التزكية فحسب، بينما أُهمِلَت بقية المعاني المرتبطة به.

خَصِّصْ لنفسِك وقتًا: ذكر عَوْن بن أَبي جحيفة، عن أَبيه -في حديث سلمان لأبي موسىٰ الأشعري- قال: «**آخَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَىٰ أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّىٰ تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الْآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ**»[(١)]

فانظر إلىٰ النبي ﷺ كيف أقرَّه قولًا بقوله: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»، وأما عملًا فإننا نذكر ما قاله علي بن أبي طالب حين سأله الحسين فقال: «**سَأَلْتُ أَبِي عَنْ دُخُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ جَزَّأَ نَفْسَهُ -دُخُولِهِ- ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءٌ لِلَّهِ، وجزءٌ لِأَهْلِهِ، وجزءٌ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جُزْءٌ جَزَّءَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَىٰ الْعَامَّةِ بِالْخَاصَّةِ فَلَا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا**»[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٩٦٨).

(٢) [ضعيف] «المعجم الكبير للطبراني» برقم (٤١٤). في إسناده رجل مبهم لا يعرف. وقال الهيثمي: فيه من لم يسم. «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧٨)، وهو هنا للاستئناس.

لا تُرهِقْ نفسِك: نعم! لا ترهق نفسك في أي شيء، سواء في التكاليف، أو المسؤوليات، أو ضغوط الحياة، أو خططك المستقبلية، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فإنه كذلك أمرنا أنه ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

أَكْرِمْ نفسَك: قال ﷺ: «**إِذَا أَعْطَىٰ اللَّهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ**»(١) وفي المقابل قال ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ بِمَا لَا يُطِيقُ**»(٢). وقال تعالىٰ ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقال ﷺ: «**إِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ صِبْيَةٍ لَهُ صِغَارٍ لِيُغْنِيَهُمْ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ لِيُغْنِيَهُمَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ لِيُغْنِيَهَا وَيُكَافِئَ النَّاسَ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىٰ سُمْعَةً وَرِيَاءً فَهُوَ لِلشَّيْطَانِ**»(٣).

حاسبوا أنفسَكم: ليس من خطأ في عبارة الفاروق عمر، ولكن الخطأ في تطبيقها، فنحن حين نحاسب أنفسنا نتعامىٰ عن حسناتنا وننظر إلىٰ سيئاتها فحسب، وهذا من الظلم الذي نهىٰ الله عنه فقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

هذه هي صبغة الله تعالىٰ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

أحسِنْ مدحَ نفسِك: نعم! يمكنك أن تمدح نفسك أو تتقبل المدح دون أن تعرضها لخطر العجب والكبر، وهناك آيات في القرآن وأحاديث نبوية

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٢).

(٢) [**صحيح**]: «مصنف عبد الرزاق» برقم (٢١٧٩٧). انظر: «صحيح الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (٧٧٩٧).

(٣) «سنن سعيد بن منصور» برقم (٢٦١٨).

عديدة تدل علىٰ تقدير الإنسان لما في نفسه من مواهب وقدرات، قال يوسف عليه السلام: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يُوسُفَ: ٣٧] وقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُفَ: ٥٥]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النَّمْل: ١٦] بل سأل الخليل إبراهيم ربه حسن ذكره بعد موته حين قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤] وأمر الله نبيه ﷺ بالتحدث بنعمة الله عليه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحَىٰ: ١١].

ولقد مدح النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم وذلك مثل قوله ﷺ «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهُ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»[(١)].

وكذا مديح النبي ﷺ للأشج عبد القيس أمام قومه عندما قال له: «**إِنَّ فِيكَ خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[(٢)].

وكذا أبو ذر عن أبي ذر. قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**»[(٣)].

---

(١) [**صحيح**]: «سنن الترمذي» برقم (٣٧٩٠)، و«سنن ابن ماجه» برقم (١٥٤). انظر: «صحيح الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (٨٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٢).

٢- في حال الضعف والزلل:

عندما تخطئ حافظ علىٰ حب النفس: لو أصغىٰ أحدنا إلىٰ حديث نفسه الداخلي بعدما اقتراف أي ذنب لسمع ما لا يرضي الله، بينما يعلمنا الله تعالىٰ مناجاة أخرىٰ، وذلك بذكر المسلمات والإيجابيات أولًا، ثم الاعتراف بحق الله عليك وتعترف بخطئك، ثم ترفع حاجتك وتطلب منه تعالىٰ أن يزيح عنك آثار خطئك: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[(١)]

هذا الدعاء هو سيد الاستغفار، نتعلم منه حسن التعامل مع النفس عند الخطأ، وهذا لا يغني عن الندم، ولكنه ندم المحب لنفسه لا الكاره لها.

ثم اقرأ خواتيم سورة البقرة، تجد كأنها دعاء التعاطف مع النفس، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أنت تستحق أفضل من هذا: يؤكد هذا المعنىٰ ما علمه الله لأبينا آدم حين أقدم علىٰ أول خطيئة، حين علمه أنه ظلم نفسه، ونفسه لا تستحق هذا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٦).

وهذا المعنىٰ مكرر في القرآن والسنة كثيرًا، قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] وفي الحديث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ: «**عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(١).

هوِّن علىٰ نفسك فيما تحدث به نفسها: كثيرًا ما نلوم أنفسنا ونجلد ذاتنا بسبب الأفكار التي مرت بنا أو بسبب حديثها الداخلي، وهنا لا بد من التلطف مع النفس عند حضور هذه الأفكار، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»(٢)

وهذا لا يعني إهمال حديث النفس، بل يحضك علىٰ أن تفرغ ذهنك لحسن التعامل معها دون تحامل عليها.

لا تتجاوز: احذر أن تصف نفسك بأوصاف سيئة. عن عائشة رضي الله عنها: عن النبي ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي**»(٣).

قال الخطابي: «قوله لقست نفسي وخبثت معناهما واحد، وإنما كره من ذلك لفظ الخبث وبشاعة الاسم منه وعلمهم الأدب في المنطق وأرشدهم إلىٰ استعمال الحسن وهجران القبيح منه»(٤)..

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٨٣٤).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٦٩).
(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٦٩).
(٤) «معالم السنن» (٤/ ١٣١).

ومهما ضاقت عليك نفسك فلا تتمنىٰ الموت، عن أبي هريرة قال: قال رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّىٰ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيْرًا**»(١).

واحذر أن تتمنىٰ أن يقع أي سوء عليك، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «**سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في غزوة بطن بواط، وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني، وكان الناضح يعقبه منَّا الخمسة والستة والسبعة، فدارت عقبة رجل من الأنصار علىٰ ناضح له، فأناخه فركبه، ثم بعثه فَتَلَدَّنَ عليه بعض التَّلَدُّنِ، فقال له: شَأْ، لعنك الله. فقال رسول الله ﷺ: «مَن هذا اللاعن بعيره؟» قال: أنا، يا رسول الله! قال: «انزل عنه، فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا علىٰ أنفسكم، ولا تدعوا علىٰ أولادكم، ولا تدعوا علىٰ أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة يُسْأَلُ فيها عطاءٌ، فيستجيب لكم**»(٢).

النبع الثالث: في صلاحية الصورة الذاتية

☆ إذا نظرت في المرآة، هل تستحسن صورتك؟ عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي**»(٣).

☆ هل أنت كريم رفيع القدر تعطي للنفس كرامتها؟ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٢).

(٣) [إسناده حسن] «مسند أحمد» برقم (٣٨٢٣). انظر: «صحيح الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (١٣٠٧).

☆ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]: دائمًا ما أفكر أن من حكمة الله في خلق الشيطان أن الأفكار السيئة التي تعتري الإنسان ليست كلها من نفسه، بل إن كثيرًا منها من وساوس الشيطان؛ وهذا يساهم في تحقيق التوازن في لوم الضمير، حيث لا يتحمل الإنسان عبئًا مطلقًا، وتتجه المعركة نحو العدو الأكبر.

☆ «**لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَىٰ غِنَى النَّفْسِ**»[(١)]: أعد ضبط معاييرك ولا تختزل نفسك في شكلك أو مكانتك الاجتماعية أو أي أمر محدود.

☆ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]: النفس أُلْهِمَت الفجور والتقوىٰ، النفس ذاتها، الفجور والتقوىٰ كلاهما.

☆ «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي**»[(٢)]: نعم، هذا التصور السليم للنفس بشرها وخيرها، فلا تستعذ من نفسك وإنما من تستعذ من شرها، ولتنظر إلىٰ تتمة الحديث: «**وأن أقترف علىٰ نفسي سوءًا**». إنه يخشىٰ علىٰ نفسه، أن يقترف عليها سوءًا، ودورك أن تحميها من السوء.

مراجعات لتصوراتي القديمة

هناك خلل في تصوراتنا القديمة تتمثل في:

١- سوء الكلام عن النفس وسوء الكلام مع الذات.

٢- التصور العدائي للنفس.

---

(١) [متفق عليه]: «صحيح البخاري» برقم (٦٤٤٦)، و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥١).

(٢) [**صحيح**]: «سنن أبي داود» برقم (٥٠٨٤)، و«سنن الترمذي» برقم (٣٣٩٢). انظر: «صحيح الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (٤٤٠٢).

٣- موقع الخطاب عن النفس.

سأعرض هنا تصوراتي القديمة وسأتبعها بالتصحيح:

التعاطف مع الذات يؤدي إلىٰ اتباع الهوىٰ: تقبَّل النفس وتفهمها أنفع لنهيها عن الهوىٰ من أن تعاديها أو تقسوا عليها أو تهملها.

لا بد من محاسبة النفس وإدانتها: نعم «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»[(١)]؛ أي حمَّلَها المسؤولية ولكن هذا لا يعني المحاسبة بالنظر من جانب واحد فقط، وهو النظر إلىٰ مساوئها دون حسناتها!

حب المدح مذمة: كيف وما أحدٌ المدح أحب إليه من الله؟ أما الإكثار من المدح أو التعطش الدائم له أو المدح بغير حق = مذمة.

الندم توبة: هو كذلك، ولكن يكون بندم المحب لنفسه لا الكاره لها.

فالمحب لذاته يندم؛ لأنه أنقصها حقها وأنزلها عن مكانها، بينما الكاره لنفسه يجلدها لأسباب هو لا يعرفها كتشوه الصورة الذهنية أو التعرض لإساءة قديمة.

تقدير الذات يؤدي إلىٰ الكبر: لا يمكن لحب النفس أن يؤدي إلىٰ ذلك.

الكبر مرض يصيب تقدير الذات، وهو في الحقيقة دليل علىٰ انتقاص النفس والتعويض بقناع مزيف؛ لذلك حين تساءل الصحابي عن هذا الإشكال؛ أجابه النبي ﷺ بأن الكبر ليس مرحلة كمية بل حالة نوعية فقال: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»[(٢)].

---

(١) [ضعيف] «سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٩)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٦٠). انظر: «ضعيف الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (٤٣٠٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩١).

أعوذ بالله من كلمة «أنا»: تضخيم التخوف من «الأنا» يؤدي إلىٰ تحقير النفس، كما أن تضخيم «الأنا» قد يؤدي إلىٰ العجب والتعالي، فإبليس مارس الأنا المشوهة بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وخير البرية ﷺ قال دون حرج: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»، وذلك حين قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَفِرَّ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»[(١)].

قال الله ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]: التزكية هنا هي إطلاق أحكام نهائية بما يسميه العلماء الشهادة علىٰ النفس بالطهارة والمن بالأعمال وليس مطلق المدح. فعن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهىٰ عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم**، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»[(٢)]

فالتزكية هنا هي إطلاق الإنسان حكمًا مطلقًا علىٰ نفسه أو غيره مما لا يعلمه إلا الله، وليس الحكم بأصل الخير الموجود وحب النفس علىٰ علاتها.

أليس إنكار الذات فضيلة: هذا المصطلح منتشر في الأدب المسيحي وليس له استعمال شرعي.

---

(١) [**متفق عليه**]: «صحيح البخاري» برقم (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» برقم (١٧٧٦).
(٢) «صحيح مسلم»، برقم (٢١٤٢).

جهاد النفس: الأصل الجهاد للنفس، وعمومًا إِنْ أُطلِقَ فهو معالجتها ومكابدتها لا محاربتها ومعاداتها.

وهذا المفهوم من قوله ﷺ: «**وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ**»[(١)].

ولا خلاف في وجوب ذلك وإنما الاعتراض علىٰ أن ذلك لا يتم إلا بمعاداة النفس، ولا تعارض بين محبة النفس وبغض الخطأ والذنب الذي تقترفه، فكما أعاد النبي ﷺ فهم العلاقة بيننا وبين إخواننا عند الخطأ كما قال: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ**»[(٢)].

من هنا يمكننا أن ننظر إلىٰ أنفسنا التي نحبها وننصرها ظالمة ومظلومة، أما نصرها مظلومة فبأخذ حقها والدفاع عنها والتعاطف معها، وأما نصرها ظالمة فبمنعها عن الاستمرار في الظلم وتذكيرها بعواقبه والإشفاق عليها من التدني دون جلد وشتم تمامًا كما منع النبي ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان علىٰ أخيكم»[(٣)] فلا تكن عونًا للشيطان علىٰ نفسك.

أدبيات حطم صنمك . . . (ذاتك): علىٰ الجانب الشخصي، فقد أدت بي كثير من هذه الأدبيات إلىٰ تحطيم ذاتي لا تحطيم صنمي، وتربية النفس علىٰ التواضع لا تكون بإهانتها وإذلالها، وإنما بإشعارها بنعمة الله، وأول

(١) «مسند الشهاب» برقم (١٨٣).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٤).
(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٨١).

الطريق لاستشعار نعمة الله هو الفرح بها والفرح بما وهبك الله وتقدير الذات.

دعوات النفس:

ختاما، هذه باقة من الدعوات مما يستوجب التكرار والإلحاح، وهي تُصلِح التصور عن النفس حتىٰ قبل الإجابة فكيف لو أتم الله النعمة وأجاب؟

«اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»

«اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي»

«اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»

«اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»

طرق تزكية النفس

١- التعرف علىٰ الله بجماله وجلاله:

إن من مقامات دين الإسلام العظيمة ومنازله العلية الرفيعة معرفةَ الرب العظيم والخالق الجليل بمعرفة أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا وما تعرَّف به إلىٰ عباده في كتابه وسنة رسوله ﷺ، بل إنّ هذا أساسٌ من أسس الدين العظيمة، وأصل من أصول الإيمان المتينة، وقِوام الاعتقاد وأصلُه وأساسُه.

وما أعظمَه من مقام وما أجلَّها من منزلة وما أعلاها من رتبة حين يعرف المخلوق خالقه وربه وسيده وموجده ومولاه، فيتعرف علىٰ عظمته وجلاله وجماله وكبريائه، ويتعرف علىٰ أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا.

ولا ريب أنَّ هذه المعرفة أشرف العلوم الشرعية، وأزكىٰ المقاصد العلية وأعظم الغايات السَّنية؛ لتعلُّقه بأشرف معلوم وهو الله تعالىٰ، فمعرفته سبحانه والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل علوم الدين كلها، وإرادة وجهه أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناءُ عليه بأسمائه وصفاته ومدحُهُ وتمجيدُه أشرفُ الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملَّة إبراهيم، وهو الدين الذي اجتمع عليه جميع النبيِّين، وعليه اتفقت كلمتهم وتواطأت مقالتهم وتوارد نصحهم وبيانهم، بل إنه أحد المحاور العظيمة التي عليها ترتكز دعوتهم من أولهم إلىٰ خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي هذا يقول العلَّامة ابن القيِّم: «إنَّ دعوة الرسل تدور علىٰ ثلاثة أمور: تعريف الربِّ المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله، الأصل الثاني: معرفة الطريقة الموصلة إليه، وهي ذكره وشكره وعبادته التي تجمع كمال حبّه وكمال الذلّ له، الأصل الثالث: تعريفهم ما لهم بعد الوصول إليه في دار كرامته من النعيم الذي أفضله وأجله رضاه عنهم وتجلّيه لهم ورؤيتهم وجهه الأعلىٰ وسلامه عليهم وتكليمه إياهم»[(١)].

ويقول أيضًا: «ومن أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال وهي معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاته وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته ولو فرضت الخلق كلهم علىٰ أجملهم صورة وكلهم علىٰ تلك الصورة ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلىٰ جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلىٰ قرص الشمس ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحانه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال ويكفي في جماله أنه له العزة جميعًا والقوة جميعًا والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي في دعاء الطائف أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة»[(٢)].

٢- تحقيق التوحيد:

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بعظمة ملكه وسلطانه، والعلم بعظمة نِعَمه وإحسانه، والعلم بدينه وشرعه، والعلم بوعده

---

(١) «الصواعق المرسلة»، **لابن القيم**، (٤/ ١٤٨٩).

(٢) «الفوائد»، لابن **القيم**، (١/ ١٨١).

ووعيده ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. ومن عرف ذلك آمن بالله وحده، وكفر بما سواه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

ولنبينا محمد ﷺ من ذلك النصيب الأوفىٰ «فعرَّف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدىٰ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله، حتىٰ تجلَّت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يَدَع لأمَّته حاجة في هذا التعريف لا إلىٰ من قبله ولا إلىٰ من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]»[(١)].

وكتاب الله جل وعلا فيه آياتٌ متكاثرة ونصوصٌ متضافرة فيها الدعوة إلىٰ معرفة الله ومعرفة أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، وبيان ما يترتب علىٰ هذه المعرفة من الآثار الحميدة والنهايات الرشيدة والمآلات الطيبة يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ويقول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، ويقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ

(١) «جلاء الأفهام»، لابن القيم، (ص: ٢٨٥-٢٨٦).

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

بل جاء في القرآن الكريم آياتٌ صريحة ونصوصٌ واضحة فيها الدعوة إلىٰ تعلّم الأسماء والصفات ومعرفتها ومعرفة الله تبارك وتعالىٰ بها، وفي القرآن الكريم قرابة الثلاثين آية فيها الدعوة إلىٰ العلم بأسماء الله وصفاته كقوله جل وعلا: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، وبهذا ندرك شَرَف هذا العلم وفضلَه وأنَّه من الأسس العظام التي قامت عليها دعوات المرسلين، وأنَّه السبيل الوحيد لعزِّ العبد ورفعته وصلاحه في الدنيا والآخرة، وعليه فإنَّ «من في قلبه أدنىٰ حياة أو محبة لربه وإرادة لوجهه وشوق إلىٰ لقائه فطلبه لهذا الباب وحرصه علىٰ معرفته وازدياده من التبصر فيه وسؤاله واستكشافه عنه هو أكبر مقاصده وأعظم مطالبه وأجل غاياته، وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنَّة إلىٰ شيء من الأشياء أشوق منها إلىٰ معرفة هذا الأمر، ولا فرحها بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق فيه»[(١)]، وهذه المعرفة هي التي عليها مدار السعادة وبلوغ الكمال والترقي في درج الرفعة، ونيل نعيم الدنيا والآخرة، والظفر بأجلِّ المطالب وأنجح الرغائب وأشرف المواهب، والناس في هذا بين مستكثر ومقل ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) «الصواعق المرسلة»، لابن القيم، (١/ ١٦١).

فهي غاية مطالب البرية، وهي أفضل العلوم وأعلاها، وأشرفها وأسماها، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وجرىٰ إليها المتسابقون، وإلىٰ نحوها تمتد الأعناق، وإليها تتجه القلوب الصحيحة بالأشواق، وبها يتحقق للعبد طيب الحياة «فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلَّا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده والإنابة إليه والطّمأنينة بذكره والأُنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كلَّه، ولو تعوَّض عنها بما تعوض من الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة، فمِنْ كلِّ شيءٍ يفوت عوضٌ، وإذا فاته الله لم يُعوِّض عنه شيءٌ البتَّة»[1].

الثاني: التفكر في الآيات والمخلوقات التي خلقها الله في هذا الكون العظيم، فمن نظر إلىٰ عظمة الإحكام والإبداع، وعظمة الخلق والتصوير، وعظمة التدبير والتصريف، أيقن أن الله واحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له، فآمن بالله ووحَّده وعبده وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

الثالث: التفكر والتدبر لآيات الله الشرعية وما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والأمر بكل خير، والنهي عن كل شر، وتدبر أحوال اليوم الآخر، وما فيه من البعث والحساب، والجنة والنار، ومن تدبر ذلك أيقن أنها تنزيل من حكيم حميد، خبير بمصالح الخلق، فآمن بالله

(١) «الجواب الكافي»، لابن **القيم**، (ص: **١٣٢-١٣٣**).

وحده، ولم يلتفت لأحدٍ سواه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الرابع: التفكر في بقاء هذا الكون العظيم علىٰ سنن ثابتة لا تتبدل أبدًا، من ليلٍ ونهارٍ، وحر وبرد، وحياة وموت، وأمن وخوف، وذكورٍ وإناثٍ، مما يدل قطعًا علىٰ أن الذي يدبر هذا الكون العظيم وما فيه ربٌّ واحدٌ لا شريك له: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

٣- الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر له آثار عظيمة في تزكية النفس واستقامة أحوالها، ومن أبرز هذه الآثار:

- حجز الإنسان عن المعاصي وتقوية الوازع الديني في قلبه وضبط هوىٰ النفس بمقتضىٰ الشرع، فالإيمان يغرس في الإنسان رقابة داخلية علىٰ أعماله وهو يعلم أن الله مطلع عليه ولا تخفىٰ عليه خافية، وبذلك يستشعر الخشية من الله، ويبقىٰ شديد الحذر من عذابه مسارعًا إلىٰ التوبة كلما وقع في معصية، معتقدًا أنه مسؤول عن أقواله وأفعاله، ومحاسب علىٰ ما أظهر وأبطن، وأن كل صغيرة أو كبيرة تحصىٰ عليه وتسجل عليه في صحائف أعماله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٦-١٨].

المسارعة إلىٰ الطاعة والعمل الصالح:

كلما زاد تطلع المؤمن إلىٰ اليوم الآخر وشوقه لما أعد الله لعباده المتقين في الجنة، كان أكثر مسارعة إلىٰ العمل الصالح ومضاعفة الجهد في المسابقة إلىٰ الخيرات، وقد قال تعالىٰ مبشرًا عباده المسارعين إلىٰ الطاعة بالجزاء العظيم في الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**بادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجالُ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظِرُ، أَوِ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ**»[(١)].

وعن زيد بن أرقم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ مَالٌ عِنْدِي فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا. قَالَ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**». قَالَ: فَقُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَىٰ أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ؛ فَقَالَ له رسول الله ﷺ «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**». قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لاَ أَسْبِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا»[(٢)].

---

(١) [ضعيف] «سنن الترمذي» برقم (٢٣٠٦). انظر: «ضعيف الترمذي»، للألباني، برقم (٤٠٠).

(٢) [**صحيح**]: «سنن أبي داود» برقم (١٦٧٨)، و«سنن الترمذي» برقم (٣٦٧٥). انظر: «صحيح سنن أبي داود»، للألباني، برقم (١٤٧٣).

وقال خالد بن معدان رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا فُتح لأحدكم باب خير، فَلْيُسرع إليه، فإنه لا يدري متىٰ يُغْلق عنه»(١).

وقال سعيد بن عامر رَحِمَهُ اللَّهُ عن سلام بن أبي مطيع -أو غيره- قال: «ما كان يونس بأكثرهم صلاة ولا صومًا، ولكن -لا والله- ما حضر حق للهِ إلا وهو مُتهيئ له»(٢).

وقال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو رأيتُ الجنة عِيانًا أو النار عِيانًا، ما كان عندي مستزاد»(٣).

بذل النفس والمال في سبيل الله:

لقد أدت عقيدة الإيمان باليوم الآخر إلىٰ تحول نفسي عميق عند المسلمين الصادقين، فآثروا تحمل المشاق وأحبوا الاستشهاد في سبيل الله، واندفعوا للبذل والعطاء، واستعلت نفوسهم علىٰ كل قوىٰ الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، واثقين بأن الله اشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم التي هي أعز ما عند الإنسان، فبذلوها لينالوا جنة عرضها السموات والأرض، ويظفروا بالربح قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١١١].

---

(١) «سير أعلام النبلاء»، (٤/ ٥٤٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء»، (٦/ ٢٩١).
(٣) «سير أعلام النبلاء»، (٤/ ٩).

- الصبر علىٰ المصائب:

كما أن إيمان المؤمن بالقضاء والقدر يدفعه إلىٰ الصبر علىٰ المصائب ومقابلتها بالتسليم والرضا فكذلك إيمانه باليوم الآخر يزيد من صبره ويخفف من حزنه، لأنه يرجو الأجر العظيم يوم القيامة، ويعلم أن هذه الدنيا دار ممر وأن المصائب ابتلاء من الله يرفع بها مقام عباده إذا صبروا ويكفر عنهم بها من خطاياهم. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

الحذر من إيذاء الآخرين:

المؤمن بالله واليوم الآخر يخشىٰ من الإساءة إلىٰ إخوانه المسلمين، أو التسبب في إيذائهم، ويتجنب كل ما فيه اعتداء عليهم، في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، لأنه يعلم أن الله تعالىٰ لا تخفىٰ عليه خافية، وأنه إن نجا من العقاب الدنيوي وتغلب علىٰ غيره بقوته ودهائه، فلن ينجو من العقاب في الآخرة، حيث يتكاثر حوله الخصوم حتىٰ يصبح مفلسًا ويهلك مع الهالكين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وتزكية، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَىٰ هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَىٰ ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ**»[1].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

عمل اليوم والليلة:

١- الصلاة؛ والتزكية؛ وأداء الخمس؛ والصوم؛ والحج: عن ابن عباس قال: «قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بَيْنَنَا، وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ، وَإِنَّا لَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحُرُمِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ، وَأَرْبَعٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ التزكية»[(١)].

٢- الجهاد؛ وبر الوالدين: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» وَلَوِ اسْتَزَدْتُ لَزَادَنِي»[(٢)].

٣- إفشاء السلام: عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[(٣)].

٤- اتباع الجنازة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ، إِيمَانًا واحْتِسَابًا، وكانَ معهُ حتَّىٰ يُصَلَّىٰ عَلَيْهَا ويَفْرُغَ مِن**

---

(١) [صحيح]: «المعجم الكبير للطبراني» برقم (١٢٩٥٢). انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني، برقم (٣٩٥٧).

(٢) [صحيح]: «مسند أحمد» برقم (٣٩٧٣). انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني، برقم (١٤٨٩).

(٣) [صحيح]: «سنن ابن ماجه» برقم (٦٨). انظر: «التعليقات الحسان»، للألباني، برقم (٢٣٦).

دَفْنِهَا، فإنَّه يَرْجِعُ مِنَ الأجْرِ بقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، ومَن صَلَّىٰ عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أنْ تُدْفَنَ، فإنَّه يَرْجِعُ بقِيرَاطٍ»(١).

٥- **حسن الخلق**: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أكملَ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وإنَّ حُسْنَ الخلُقِ ليبلغُ درجةَ الصومِ والصلاةِ»**(٢).

٦- **حسن الجوار**: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ. قيلَ: ومَن يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوايِقَهُ»(٣).

٧- **الذهاب للصلاة في المساجد**: قال ابن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ**»: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨](٤).

٨- **التواد والتراحم**: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»**(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧).
(٢) «صحيح الجامع» برقم (١٥٧٨).
(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٠١٦).
(٤) «مسند أحمد» برقم ١١٧٢٥).
(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٦).

٩- حب الله ورسوله: فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقىٰ في النارِ»(١).

١٠- أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك: فعن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّىٰ يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٦)، و«صحيح مسلم) برقم (٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣)، و«صحيح مسلم» برقم (٤٥) باختلاف يسير.

أهمية التخلية ومعالجة الآفات النفسية والخلقية

بما تم ذكره يتبين لنا الآثار الإيجابية والعلاج. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب وقوةً في البدن، وسعة في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما عمل رجلٌ عملًا إلا ألبسه الله تعالىٰ رداءه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر»[1].

ولعله قدر للإنسان أن يعاني نفسيًا أو عقليًا في وقت ما من عمره من بعض الخوف والقلق، وأحيانًا يفقد الإنسان عقله تمامًا وما من أحد إلا أصابه القلق والتوتر في وقت ما بسبب أو بدون سبب «كالتفكير في بعض الأمور» وهذا ما بينته إحصائيات منظمة الصحة العالمية، وتؤكد أن ٤٠% من المرضىٰ المترددين علىٰ تخصصات الطب المختلفة لا يعانون من أي مرض عضوي، بل هم في حاجة إلىٰ رعاية نفسية.

فالقلق والتوتر أصبح سمة أساسية للحياة الحديثة وكلما ازدادت المدنية ازدادت متطلبات الحياة تعقيدًا، وازدادت أسباب القلق والتوتر، حيث إننا نعيش في عصر طغت فيه المادة علىٰ كل شيء وأصبحت المنافسة رهيبة تصل أحيانًا إلىٰ الصراع الدموي وتغيرت قيم كثيرة تتنافىٰ أو تتعارض مع طبيعة الإنسان الأصلية، وأصبح الإنسان في هذا العصر يلهث دائمًا؛

(١) «الوابل الصيب»، (١/ ٣٠).

لتحقيق تطلعاته التي لا تنتهي فيزداد قلقه وتوتره، ومن الغريب أن إنسان القرن العشرين صار أكثر شقاء وبؤسًا من إنسان القرون السابقة برغم انتصاراته ومكاسبه بفضل العلوم والاختراعات التي ذللت العقبات وزادت من الإمكانيات واختصرت الوقت والجهد، وبرغم هذا فإن الأمراض النفسية في المجتمعات والأفراد لم تترك عضوًا من أعضاء جسم الإنسان إلا هاجمته وأصابته بالمرض، فضغط الدم، وقرحة المعدة، وتصلب الشرايين، وآلام المفاصل، واضطراب المعدة والأمعاء من إسهال وإمساك، وسقوط الشعر، وفقدان القدرة الجنسية عند الرجل، والبرود الجنسي عند المرأة. وهناك العشرات من الأمراض العضوية والتي سببها الحياة المتوترة التي تضغط علىٰ الجهاز العصبي وبدوره يزيد من الهرمونات والعصارات والأنزيمات؛ ولذا يمكن القول دون مغالاة إن السعيد حقًا هو الذي يتمتع بالصحة النفسية التي تحقق له طمأنينة النفس، فلا مال أو منصب أو جاه أو جمال يمكن أن يحقق السعادة.

كما قال الإمام الشافعي في قصيدة طويلة منها:

وَلَستُ أَرىٰ السَعادَةَ جَمعَ مالٍ وَلَكِنَّ التَقيَّ هُوَ السَعيدُ

وأحد أهم عوامل الصحة النفسية الجانب الروحي والعمل علىٰ تنميته وصحته وعافيته ولا يتم هذا في أكمل صوره صحة إلا بالإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي أنزله العليم الخبير بمكونات وأسرار الإنسان النفسية، والإسلام لم يهتم بتحديد وتوفير الحاجات المادية المناسبة لصحة الإنسان العضوية، بل اهتم بوضع الأسس الكفيلة بتحقيق النفس المطمئنة الآمنة الراضية التي لا تعاني من التوتر أو الخوف أو القلق. وقد تطرقت في هذا المبحث إلىٰ بعض منها في فصل صفات النفس وعلاجها (بالاعتدال) وفضل تربية النفس

«بالذكر والصلاة والصوم والصدقة» وفق المبادئ والأهداف الإسلامية حسب الكتاب والسنة، وبذلك يتحقق للمسلم الأمن والطمأنينة الروحية وهما من أركان الصحة النفسية.

محاسبة النفس

الإحسان إلىٰ النفس ورعايتها ومحبة الخير لها وأن تسر المؤمن حسنته وتسوءه سيئته هذا كله هو مدار التعامل مع النفس لا تقبيحها وتحقيرها والنظر إلىٰ سوء فعالها فحسب.

ومن منازل رعاية النفس العظيمة الأثر مراقبة النفس وتتبع سلوكها ومدىٰ التزامها بقيمها، ومجاهدتها علىٰ الصبر علىٰ الطاعة والاستغفار من الذنب، وكل ذلك يندرج تحت اسم: محاسبة النفس.

إن محاسبة النفس وهي واحدة من الأساليب العلمية في تزكية النفس؛ والتي منها كذلك: العلم النافع، والعمل الصالح، وصحبة الصالحين، والزواج، والتفكر في المخلوقات، وتذكر الموت وأهوال القيامة، والمطالعة في نصوص الترغيب والترهيب.

والمراد بمحاسبة النفس: النظر والتأمل فيما عمل المسلم من أعمال، وما قدَّم من خيرٍ او شرَّ، مع النظر في النية والقصد، وحساب الربح والخسائر، **وكل ذلك بحنو ولطف كأنما تربي طفلًا وتقوم عوده.**

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «هذه الآية تدل علىٰ وجوب محاسبة النفس»[(١)].

(١) «إغاثة اللهفان»، (١/ ٨٤).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبًوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[(١)].

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: «لا يكون الرجل تقيًّا حتىٰ يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه، وحتىٰ يعلم من أين ملْبَسه ومطعَمه ومشرَبه»[(٢)].

وقال الحسن رحمه الله: «إنّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همَّته»[(٣)].

وقال يونس بن عبيد رحمه الله: «إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدة»[(٤)].

وقال مطرف رحمه الله: «لولا ما أعلم من نفسي، لَقَلَيْت الناس»[(٥)].

وقال أيوب السختياني رحمه الله: «إذا ذُكِر الصالحون، كنت عنهم بمعزل»[(٦)].

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «**فَالْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ.**

---

(١) [ضعيف] «سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٩). انظر: «ضعيف سنن الترمذي»، للألباني، برقم (٤٣٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، (٥/ ٧٤).

(٣) «حلية الأولياء»، (٢/ ١٤٦).

(٤) «إغاثة اللهفان»، (١/ ٨٤).

(٥) «إغاثة اللهفان»، (١/ ٨٤).

(٦) «إغاثة اللهفان»، (١/ ٨٤).

وجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَىٰ تَعَلُّمِ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَىٰ فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَىٰ الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَىٰ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَىٰ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ وَأَذَىٰ الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ.

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّىٰ رَبَّانِيًّا حَتَّىٰ يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ، فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَىٰ عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ»[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادِكُم وعرضِكُم علىٰ ربِّكُم»[(٢)]. **وفي الحديث**: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله»[(٣)].

---

(١) «زاد المعاد»، (٣/ ٩).

(٢) «تفسير ابن كثير»، (٨/ ٣٤٨٦).

(٣) [ضعيف] «سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٩)، و«مسند أحمد» برقم (١٧١٦٤) مختصرًا. انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، للألباني، برقم (٥٣١٩).

وأيضًا روىٰ الإمام عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسَكم قبل أن تُوزنوا، فإنَّه أخفُّ عليكم في الحسابِ غدًا أن تُحاسِبوا أنفسَكم اليومَ وتزيَّنوا للعَرضِ الأكبرِ، كذا الأكبرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾»[1].

أنواع محاسبة النفس:

قال ابن قيم الجوزية: «ومحاسبة النفس نوعان: **نوع** قبل العمل، **ونوع** بعده.

النوع الأول: «وهذا يكون قبل العمل» وهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتىٰ يتبين له رجحانه علىٰ تركه.

قال الحسن: «رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضىٰ، وإن كان لغيره تأخر»[2] وشرح هذا بعضهم، فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهَمَّ به العبدُ

وقف أولًا، ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أم غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يُقْدِم عليه، وإن كان مقدورًا

وقف وقفة أُخرىٰ ونظر: هل فعلُه خير من ترْكه، أو تركه خير من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يُقْدِم عليه، وإن كان الأول

وقف وقفة ثالثة، ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يُقدِم عليه وإن أفضىٰ به إلىٰ مطلوبه؟ لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل

---

(١) (الزهد) لأحمد، برقم (٦٣٣).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي، (٥/٤٥٨).

لغير الله، فبقدر ما يَخِف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله، حتىٰ يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول

وقف وقفة أخرىٰ، ونظر: هل هو مُعانٌ عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلىٰ ذلك؛ أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتىٰ صار له شوكة وأنصار، وإن وجده مُعانًا عليه فليُقْدِم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصلةٍ من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح. **فهذه أربع مقامات**، يحتاج إلىٰ محاسبة نفسه عليها قبل الفعل؛ فلا كلُّ ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له، ولا كلُّ ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كلُّ ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كلُّ ما يفعله لله يكون مُعانًا عليه، فإذا حاسب نفسه علىٰ ذلك تبين له ما يُقدم عليه، وما يحُجِم عنه.

قال العلماء: إنه إذا تركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولًا ونظر: هل هذا العمل مقدور عليه أو غير مقدور عليه؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن كان الأول وقف وقفة (ثانية)، ونظر أيضًا، وسأل: هل فعله خير له من تركه، أم تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تَرَكَه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة أيضًا (ثالثة) ويسأل نفسه: هل الباعث عليه إرادة وجه الله ﷻ وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم وإن كان الأول وقف وقفة (رابعة) ونظر أيضًا وسأل . . .؟ هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان محتاجًا إلىٰ ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان يساعدونه وينصرونه أمسك

عنه «مثال ذلك إمساك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتىٰ صار له أعوان وشوكة وأنصار» وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلىٰ محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

النوع الثاني: «ويكون بعد العمل»:

وهذا النوع ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام كالتالي:

أ- محاسبة النفس علىٰ طاعة قصرت فيها ولم تؤدَّها علىٰ الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة عليها، ستة أمور هي:

١- الإخلاص في العمل.

٢- النصيحة لله فيه.

٣- متابعة الرسول ﷺ.

٤- شهود مشهد الإحسان.

٥- شهود منة الله عليه.

٦- شهود تقصيره فيه.

ب- أن يحاسب نفسه علىٰ كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

ج- أن يحاسب نفسه علىٰ كل عمل مباح: لِمَ فعله؟ هل أراد به وجه الله فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا، فيكون خاسرًا.

قال تعالىٰ: **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ** [الأحزاب: ٨] ففي هذه الآية يُسْأَل الصادقون عن صدقهم ويحاسبون علىٰ ذلك، إذًا فما الظن بالكاذبين؟

الأسباب المعينة علىٰ محاسبة النفس:

الأول: العلم بدقة محاسبة الله للعبد، فكل ما عمله العبد سيراه يوم القيامة، وسيحاسبه ربه علىٰ كل ذرة من خير أو شر، ثم يجازيه عليها: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

الثاني: العلم بأن الله سيوقف الناس بين الجنة والنار، ليقتص لبعضهم من بعض المظالم التي كانت بينهم في الدنيا. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: «الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ وَتزكية، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

الثالث: العلم بمصير من عصىٰ الله ورسوله يوم القيامة، فمن عرف ذلك أقبل علىٰ الطاعات، وابتعد عن المعاصي: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

الرابع: صُحبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم، ويُطلعونه علىٰ عيوب نفسه، وترك صحبة الأشرار: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

الخامس: حضور مجالس العلم والوعظ والذكر، لأنها تزيد الإيمان، وتُثمر الترقي في الطاعات، ومحاسبة النفس علىٰ المعاصي، وتُثمر حسن الظن بالله ﷻ، وإساءة الظن بالنفس: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

السادس: زيارة القبور، والتأمل في أحوال الموتىٰ الذين لا يستطيعون محاسبة أنفسهم، وتدارُك ما فاتهم. قال النبي ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ»(١).

(١) [**صحيح**]: «سنن الترمذي» برقم (٢٣٠٧)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٥٨). انظر: «إرواء الغليل»، للألباني، برقم (٦٨٢).

ثمرات محاسبة النفس

الأولىٰ: محاسبة النفس تُطلع العبد علىٰ عيون نفسه، ونقائصها وزلاتها.

قال ابن قيم الجوزية: «وفي محاسبة النفس عدة مصالح: منها الاطلاع علىٰ عيوبها، ومن لم يطلع علىٰ عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع علىٰ عيبها مَقَتها في ذات الله. وقد روىٰ الإمام أحمد عن أبي الدرداء، قال: «لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتىٰ يَمقُت الناسَ في جنب الله، ثم يرجع إلىٰ نفسه؛ فيكون لها أشدَّ مقتًا»[(١)].

ومن اطلع علىٰ عيوب نفسه تدارك نفسه، وأزال تلك العيوب، وتاب إلىٰ ربه، واستغفر ذنبه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

الثانية: بمحاسبة العبد نفسه يتعرف علىٰ حقوق الله تعالىٰ عليه، وعظيم فضله وإحسانه إليه، فيقارن عظمة نِعم الله عليه، وتفريطه في جنب الله ﷻ فيكون ذلك رادعًا له عن فعل السيئات والمعاصي، والمسارعة إلىٰ الخيرات والفضائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

قال ابن قيم الجوزية: «ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك

(١) «مصنف عبد الرزاق»، (١١/ ٢٥٥)، و(مصنف ابن أبي شيبة»، (٧/ ١١٠).

حق الله عليه. ومن لم يعرف حق الله عليه فإن عبادته لا تكاد تُجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا»[١].

وقال ابن الجوزي: «وَكَذَا النَّفْسُ تَظْهَرُ عِنْدَ الْمِحَنِ وَالْفَاقَةِ وَالْمُخَالَفَةِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا فِي نَفْسِهِ كَيْفَ يَعْرِفُ رَبَّهُ»[٢].

الثالثة: بالمحاسبة الدائمة يحيا قلب العبد، وينمو فيه الشعور بالمسؤولية، ويزن الأعمال، والتصرفات بميزان الشرع، والبعد عن كل ما يخالف الشرع: قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

قال ابن قيم الجوزية: «الْمُحَاسَبَةُ: تَمْيِيزِ العبد مَا لَهُ مِمَّا عَلَيْهِ، لِيَسْتَصْحِبَ مَا لَهُ وَيُؤَدِّيَ مَا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا عَرَفَ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ أَخَذَ فِي أَدَاءِ مَا عَلَيْهِ»[٣].

الرابعة: أن المحاسبة تُثمر كثرة التوبة والاستغفار، فمن حاسب نفسه رأىٰ تقصيره في جنب الله، فبادر بالتوبة من ذنوبه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣].

قَالَ الحسن البصري: «مَا تم دين عَبْد قط حتىٰ يتم عقله»[٤] **وقال ابن حبان**: «أفضل ذوي العقول منزلة أدومهم لنفسه محاسبة وأقلهم عنها فترة»[٥].

---

(١) «إغاثة اللهفان»، (١/ ١٥١).
(٢) «ذم الهوىٰ»، لابن الجوزي، (ص: ٥٠).
(٣) «مدارج السالكين»، (١/ ١٥١) بتصرف.
(٤) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»، (١/ ١٩).
(٥) المرجع السابق، (١/ ١٩).

الخامسة: أن المحاسبة سبب لتخفيف الحساب يوم القيامة:

فعن الحسنِ قال: «إن المؤمن قوَّام علىٰ نفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ، وإنمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَة علىٰ قوم حاسبوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ»[(١)].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

اقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة، لذا وجب علينا الاطلاع علىٰ عيوبنا، ولا ينجينا من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسنا وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه في الدنيا خف حسابه يوم القيامة وحَسُنَ منقلبه، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته[(٢)].

إن العقل يحتاج إلىٰ مشاركة النفس، وأن يوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلىٰ طريق الفلاح. ثم إنه لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها، وألا يغفل عن جوارحه، فالعين يحفظها عن النظر إلىٰ ما لا يحل النظر إليه، وهكذا مع باقي الأعضاء، وأن يكون متجهًا إلىٰ الحلال متجنبًا الحرام، وكذلك يعاتبها ويعاقبها عن أي كسل أو خمول ليستوفي منها ما فرط، وأن يجاهد نفسه في العمل للزيادة لا النقصان، وبذلك تعرف حق الله تعالىٰ عليك، وهذا يجعلك ماقتًا لنفسك، مزريًا عليها، ويخلصك من العجب ورؤية العمل، ويفتح لك باب الخضوع والذل والانكسار بين يديه. وأن النجاة لا تحصل لك إلا بعفو الله

(١) «ذم الهوىٰ»، (ص: ٤١).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين»، (١/ ٣٧٠).

ومغفرته ورحمته، فإن حقه أن يُطاع ولا يعصىٰ، وأن يُذكَر فلا ينسىٰ، وأن يُشكرَ فلا يكفر ﷻ وتقدَّست أسماؤه وصفاته.

سادسًا: أن المحاسبة سبب للحصول علىٰ التقوىٰ

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: «لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّىٰ يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ»(١).

وقال الْحَسَنَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ»(٢)

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَالِمٍ الْبِصْرِيُّ: «مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ نَفْسِهِ أَوْصَلَهُ اللَّهُ إِلَىٰ مَقَامِ أُنْسِهِ»(٣)

قال ابن قيم الجوزية: «ففي مُخَالَفَة الْهَوَىٰ تَنَسُّمُ رَوْحِ الْأُنْسِ بِاللَّهِ، وَالرَّوْحُ لِلرُّوحِ كَالرُّوحِ لِلْبَدَنِ. فَهُوَ رُوحُهَا وَرَاحَتُهَا. وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهُ هَذَا الرَّوْحُ لَمَّا أَعْرَضَ عَنْ هَوَاهُ. فَحِينَئِذٍ تَنَسَّمَ رَوْحَ الْأُنْسِ بِاللَّهِ. وَوَجَدَ رَائِحَتَهُ. إِذِ النَّفْسُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ التَّعَلُّقِ. فَلَمَّا انْقَطَعَ تَعَلُّقُهَا مِنْ هَوَاهَا وَجَدَتْ رَوْحَ الْأُنْسِ بِاللَّهِ»(٤).

سابعًا: أن المحاسبة سبب للتخلص من أسر الشهوات

قال أَبو مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيَّ: «مَنِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ صَارَ أَسِيرًا فِي حُكْمِ الشَّهَوَاتِ مَحْصُورًا فِي سِجْنِ الْهَوَىٰ وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ الْفَوَائِدَ فَلا يَسْتَلِذُّ كَلامَهُ وَلَا يتسحليه وَإِنْ كَثُرَ تِرْدَادُهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ»(٥).

---

(١) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا، (ص: ٢٥) رقم (٧)
(٢) المصدر السابق، (ص: ٢٥) رقم (٦)
(٣) «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي، (ص: ٥٠).
(٤) «مدارج السالكين»، (٢/ ٣٢).
(٥) «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي، (ص: ٥٠).

ثامنًا: محاسبة النفس دليل حياة القلوب

قال عبد الله بن مسعود: أتدرون ما ميت الأحياء؟

قالوا: لا،

قال: هو الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

وقالوا له: يا أبا عبد الرحمن! هلك مَن لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر،

فقال: هلك مَن لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر»[(١)].

تاسعًا: محاسبة النفس دليل علىٰ قوة الإنسان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ليس الشَّديدُ مَن غلَب إنَّما الشَّديدُ مَن غلَب نفسَه»[(٢)].

عاشرًا: أن محاسبة الإنسان لنفسه دليل علىٰ إكرامه لها.

قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ لِلدُّنْيَا عِنْدَهُ قَدْرٌ»[(٣)].

الحادي عشر: أن في محاسبة النفس إشغال عن عيوب الناس وراحة لها.

عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لَا يُنَافِسُ فِي عِزِّهَا وَلَا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا، لِلنَّاسِ حَالٌ وَلَهُ حَالٌ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ وَنَفْسُهُ مِنْهُ فِي شُغُلٍ»[(٤)].

---

(١) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم، (١/ ١٣٥).

(٢) «صحيح ابن حبان» برقم (٧١٧).

(٣) «محاسبة النفس»، لابن أبي الدنيا، (ص: ١٠٣).

(٤) المصدر السابق، (ص: ١٠٧).

أهمية التوازن والاعتدال في قيادة النفس

الناس في قيادة النفس علي قسمين:

قسم أرخي للنفس قيادتها، وتركها تسير علىٰ هواها وما تشتهيه؛ فأرودته المهالك والخسران في الدنيا والآخرة.

قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «الناس علىٰ قسمين: قسم ظفرت به نفسه، فملكته وأهلكته، وصار طَوْعًا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم، فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادةً لأوامرهم.

قال بعض العارفين: انتهي سفر الطالبين إلي الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٣٧-٤١]»[(١)].

ومنهم من بالغ في قهرها حتىٰ ظلمها، كمن يعاقب نفسه علي المعاصي بإهلاك نفسه او جزءًا منها؛ فقد حدث أن رجلًا من بني إسرائيل حوَّل رِجْله لينزل إلي امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن تصنع؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات! رِجْلٌ خرجت إلىٰ معصية الله لا ترجع معي، فتركها حتىٰ تقطَّعت بالمطر والرياح، وآخر نظر إلي امرأة، فلطم عينه حتىٰ بُقرت؛ فهذا كلُّه خطأ وجهل.

---

(١) «إغاثة اللَّهفان»، (١/ ٧٥).

وفي ذلك يقول ابن الجوزي: «رُبّ شدٍّ أوجب استرخاءً، ورُبَّ مضيَّق علىٰ نفسه فرَّت منه، فصعب عليه تلافيها؛ وانَّما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل يحملها علىٰ مكروهها في تناول ما ترجو من العافية، ويُذَوَّب في المرارة قليلًا من الحلاوة؛ فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ولا يهمل مقودها، بل ليرخي لها في وقتٍ، والطول بيده، فما دامت علي الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردَّها باللطف، فإذا وَنتْ[1] وأَبتْ فبالعنف»[2].

وهنا لا بأس من الإشارة إلىٰ المعاقبة المحمودة والمذمومة:

فالعقوبة المذمومة هي: معاقبة النفس بما يؤدي إلىٰ ضررٍ بالجسم أو إيذاءٍ له؛ مثل: الامتناع عن الطعام، وتعذيب عضو من الجسد كما ذكرنا.

وأمَّا العقوبة المحمودة: فهي إلزام النفس بشيء يشقُّ عليها فعله، ويترتب علىٰ ذلك الفعل اجرٌ.

كأن يكون عملًا صالحًا؛ مثل: الصدقة، أو الصيام، أو قيام ساعاتٍ من الليل، أو الذكر، ونحو ذلك.

ودليل ذلك ما ثبت عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه خرج ذات يوم إلىٰ بستان له وانشغل به؛ ففاتته صلاة الجماعة عصرًا، فتصدق بذلك البستان كله.

والمنهج القويم هو: الاعتدال والتوسط.

---

(١) وَنَتْ: أي ضعُفت.

(٢) «صيد الخاطر»، لابن الجوزي، (ص: ٧٠).

قال سلمان الفارسي لأبي الدرداء ﷺ: «إنَّ لربك عليك حقًّا، وإنَّ لأهلك عليك حقًّا، وإنَّ لنفسك عليك حقًّا، فأعْط كلَّ ذي حقَّ حقَّه»؛ فقال ﷺ: «**صدق سلمان**»[(١)].

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود ﷺ **قال**: «كان رسول الله ﷺ يتخوَّلُنا بالموعظة مخافة السآمه علينا»[(٢)]. أي: أنه يراعي الأوقات في تذكيرهم وموعظتهم، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا يملوا، والضابط في ذلك الحاجة مع مراعاة وجود النشاط.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الدِّين يُسْرٌ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلَّا غلبه، فسدِّدوا، وقَاربُوا، وأبْشروا، واستعينوا بالغدْوة والرَّوْحة وشيء من الدلجة**[(٣)]**، والقصْدَ القصْدَ تبلغوا**»[(٤)]. أي: استعينوا علىٰ طاعة الله ﷻ بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير غي هذه الأوقات، ويستريح في غيرها حتىٰ يصل إلىٰ مقصوده بغير تعب.

وحديث الثلاثة الذين جاؤوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ.

روىٰ البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبيِّ **صلىٰ الله عليه وسلم**، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ؟! قدْ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٢٤٣).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٥)، و«صحيح مسلم) برقم (٢٨٢١).
(٣) **الغدوة**: سير أول النهار، والرَّوحة: آخر النهار، والدلجة: آخر الليل.
(٤) «صحيح البخاري» برقم (١١٥، ١٨٢)، و«صحيح مسلم) برقم (٢٨١٦).

غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إليهِم، فَقالَ: «**أنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**»[(١)].

فعلىٰ العبد الاقتصاد في العبادة:

قال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وعن أنس رضي الله عنه **قال**: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ؛ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ؟**» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»[(٢)].

وقال ابن رجب رحمه الله: «فأما العبادات فما كان منها خارجًا عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردود علىٰ عامله، وعامله يدخل تحت قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]. فمن تقرَّب إلىٰ الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلىٰ الله، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مُكَاءً وتصدية، وهذا كمن تقرّب إلىٰ الله تعالىٰ بسماع الملاهي أو بالرقص . . .»[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦١١٦)، و«صحيح مسلم) برقم (١٤٠١) مختصرًا.
(٢) «صحيح البخاري» برقم (١/ ١٠٩٩).
(٣) «جامع العلوم والحكم»، (ص: ٦٠).

العبودية جوهر التزكية[١]

إنما تزكو النفس بالأعمال الصالحة وإدامة الاتصال بشعب الإيمان، مخلصًا في الطاعة مستغفرًا تائبًا من الذنب، صابرًا في الضراء شاكرًا في السراء.

مستعملًا نعم الله في طاعة الله، عبد شكور، له ساعة يستجم فيها لكنه مع ذلك قد عمر حياته بالطاعة والإيمان، فيصيب العبد سهمًا من كل طاعة، لا يخلو يومه من بضعة أعمال من شعب **الإيمان مثل**:

الخوف من الله، الرجاء، التوكل، الصبر، الرضا بالقضاء، محبة الله، محبة النبي ﷺ، المحبة في الله والبغض في الله، تعظيم الله وأوامره، حفظ حدود الله، سلامة الصدر، الطهارة، حسن الخلق، الرحمة، التواضع، الرفق، الحياء، العفاف، حسن العهد، بر الوالدين، صلة الأرحام، الإحسان بين الزوجين، العناية بالأبناء، إطعام الطعام، إكرام الضيف، الزيارة في الله، توقير الكبير، العناية بالمستضعفين، ذكر الله، طلب العلم، تعليم الناس، الدعاء، الاستغفار، الصلاة علىٰ النبي، الإصلاح بين الناس، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الهجرة والفرار من الفتن، أداء الأمانة، حفظ اللسان، إفشاء السلام، عيادة المريض،

(١) هو والذي يليه، مزج بين متفرقات من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلامه من أحسن وأسلم ما كُتب في هذا الباب.

الصلاة علىٰ الميت واتباع الجنازة، الإقراض، الوفاء بالقرض، الذبح، حفظ الأيمان، كتابة الوصية، إماطة الأذىٰ عن الطريق . . . إلخ.

هذا هو طريق تزكية النفس وتطهيرها وإصلاح فسادها وعيبها، والعلو بها نحو درجات الأولياء المقربين لرب العالمين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن تَبِعَ منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا، فقال ﷺ: ما اجتمعْنَ في امرئ إلا دخل الجنَّة**».

هذا هو الطريق الاحب المستنير لتطهير النفس وتزكيتها، إغناء القلب واللسان والجوارح بعبادة الإله العظيم القاهر.

- **تعريف العبادة:**

العبادة لغة: معناها الذل، يقال: طريق معبد إذا كان مذللا، ولكن العبادة المأمور بما تتضمن معنىٰ الذل، ومعنىٰ الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له.

- **شمولها:-**

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة . . والزكاة . . والصيام . . والحج وصدق الحديث . . وأداء الأمانة . . وبر الوالدين . . وصلة الأرحام . . والوفاء بالعهد . . والأمر بالمعروف . . والنهي عن المنكر . . والجهاد للكافرين والمنافقين . . والإحسان إلىٰ الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل . .

وإعداد القوة .. وإحياء العلم .. وإقامة الذكر .. وأمثال ذلك من العبادات وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه .. وإخلاص الذين له، والصبر، والحكمة، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه .. وأمثال ذلك في العبادة لله.

- **غايتها:-**

والعبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية عنده والتي خلق الخلق لها كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وبها أرسل جميع الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] وذم المتكبرين عن عبادته بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] ووصف ملائكته بذلك ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧] وقد نعت نبيه محمد بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ **وقال في الدعوة:** ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٢].

• **العبادة المتعلقة بالألوهية:**

العبادة من العبد، لمولاه أن يفرده بالعبادة، فلا يعبد إلا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين، ويعادي أعداءه وهو متعلق بإلاهيته، ولهذا كان عنوان التوحيد (لا إله إلا الله) بخلاف من يقر بربوبيته، ولا يعبده أو يعبد معه إلها آخر.

فالإله الذي يؤلهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخسوف والرجاء ونحو ذلك.

وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها وكما وصف المصطفين وبها بعث رسله.

• **العبادة الكونية:**

العبادة الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، ومثل هذه العبودية، لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجل مؤمنا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يُوسُفَ: ٢٥]. فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٥].

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها، يشهد هذه الحقيقة وهي (الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبار والفاجر، وإبليس معترف بهذه الحقيقة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحِجْرِ: ٣٦] وأهل النار يعترفون كذلك ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ١٠٦].

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية، التي هي عبادته المتعلقة بإلاهيته، وطاعة أمره، وأمر رسوله، كان من جنس إبليس وأهل النار.

ومن توهم أن المخلوق يخرج عن هذه العبودية فهو من أجهل الخلق وأضلهم.

- **العبادة الخالصة الصائبة:**

وهي التي تكون لله حسب أمره ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] فالعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، فما كان من البدع في الدين التي ليست مشروعة، فسبحان الله لا يحبها ولا رسوله، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ **وقوله:** ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ **فهو إخلاص الدين لله وحده وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لأحد فيها شيئا.**

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إذا كان العمل خالصا . . ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان

صوابا. ولم يكن خالصا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصا صوابا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة.

• **فائدة:**

فإن قيل: فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلا في اسم العبادة فلماذا عطف عليها غيرها؟ كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقول نوح: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨] وكذلك قول غيره من الرسل؟؟

قيل: هذا له نظائر كما في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ **وكذلك قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] والبغي من المنكر.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] من أعظم التمسك بالكتاب. وأمثال ذلك في القرآن كثيرة.

• **كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله:**

إن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازدادت درجته، ولذلك أخبر سبحانه أنه أرسل جميع الرسل بذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالىٰ مخاطبة الإنسانية جميعها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلىٰ عبادة الله، كقول نوح ومن بعده عليهم السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ **هو في المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتىٰ**

يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري».

وقد بين الله تعالىٰ أن عباده هم الذين ينجون من السيئات فقال الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١] وقال في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وبالعبادة نعت كل من اصطفىٰ من خلقه كقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [سورة ص: ٤٥-٤٧].

• عبادة الأطماع والأهواء:

ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدرهم . . تعس عبد الدينار . . تعس عبد القطيفة. تعس عبد الخميصة . . تعس وانتكس . . وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط».

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم . . وعبد الدينار . . وعبد القطيفة . . وعبد الخميصة. والنقش إخراج الشوكة من الرجل، و(المنقاش) ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه . . وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بأنه (إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط) . . كما

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التَّوبَة: ٥٨].

فرضائهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ولهذا يقال:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

ومما قيل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرًا

ويقال: (الطمع غل في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل).

ويروىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «الطمع فقر، واليأس غنىٰ، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنىٰ عنه» وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع به، ولا يبقىٰ قلبه فقير إليه، ولا إلىٰ من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور، ورجاه تعلق قلبه به فصار فقيرا إلىٰ حصوله، وإلىٰ من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه وغير ذلك، فالعبد لابد له من رزق، وهو محتاج إلىٰ ذلك فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقير إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق إليه.

﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العَنكبُوت: ١٧].

• **فالخلاصة أن العبادة تبنىٰ علىٰ ثلاثة أركان:**

(١) **كمال الحب** للمعبود سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

(٢) **كمال الرجاء**، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧].

(٣) **كمال الخضوع والخوف** من الله سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

المسألة الخامسة: شروط قبول العبادة وبيان أقسامها.

والعبادة لا تقبل إلا بشرطين:

(١) **الإخلاص لله تعالىٰ**، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

(٢) **المتابعة للرسول** ﷺ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا الموافق لهدي الرسول ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

ومن الآيات الجامعة لهذين الشرطين قوله تعالىٰ في آخر سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعبادة بحسب ما تقوم به من الأعضاء علىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عبادات القلب، كالتصديق الجازم بأخبار الوحي، وكالمحبة والخوف والرجاء والإنابة والخشية والرهبة والتوكل ونحو ذلك.

القسم الثاني: عبادات اللسان، كالحمد والتهليل والتسبيح والاستغفار وتلاوة القرآن والدعاء ونحو ذلك.

القسم الثالث: عبادات الجوارح، كالصلاة والصيام والزكاة والحج والصدقة والجهاد، ونحو ذلك.

• وما تقدم في معنىٰ العبادة يدل علىٰ أن لها خصائص لا بد أن تتوفر فيها، ويعد الإخلال بهذه الخصائص إخلالًا في العبادة نفسها، وإخلالًا بمضمونها، فمن هذه الخصائص:

١- أنها حق لله، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. أي نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، أي يخلصوا له العبادة.

٢- أن مصدرها الكتاب والسنة.

٣- أن مبناها علىٰ الإخلاص، وتوحيد القصد.

٤- لابد في العبادة من الذل والخضوع لله مع تمام المحبة: قال تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال أيضًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقال أيضًا: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، وقال أيضًا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٥- أنها توقيفية، أي لا يمكن فيها الإحداث من غير دليل . .

• الكلام علىٰ منزلة العبودية:

من أخص خصائص العبودية الافتقار المطلق إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبد كمالُه في حاجته إلىٰ ربِّه وعبوديتِه وفقرِه وفاقتِه، فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل، وصدور ما يحوجه إلىٰ التوبة والاستغفار، مما يزيده عبوديةً وفقرًا وتواضعًا»(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «حقيقة الفقر: أن لا تكون لنفسك ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثمَّ ملك واستغناء مناف للفقر».

وقال رحمه الله: «الفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلىٰ الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلىٰ الله تعالىٰ من كل وجه»(٢).

فالافتقار إلىٰ الله تعالىٰ أن يجرد العبد نفسه من كل حظوظها وأهوائها، ويقبل بكليته إلىٰ ربه عز وجل متذللًا بين يديه، مستسلمًا لأمره ونهيه، معلقًا قلبه بمحبته وطاعته، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

• كيف يحقق العبد هذه المنزلة:

أولًا: إدراك عظمة الخالق وجبروته: فكلما كان العبد أعلم بالله تعالىٰ وصفاته وأسمائه، كان أعظم افتقارًا إليه، وتذللًا بين يديه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) طريق الوصول ص٨٦.

(٢) مدار السالكين لابن القيم ٢/ ٤١١. بتصرف يسير.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع».

ثانيًا: إدراك ضعف المخلوق وعجزه:

يقول تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطَّارِق: ٥-١٠].

قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... من عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلىٰ مولاها الحق، في كل لحظة ونفس، وشدة وحاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه، في كل لحظة ونفس ...»[(١)].

• من علامات الافتقار[(٢)]:

العلامة الأولىٰ: غاية الذل لله تعالىٰ مع غاية الحب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلما ازداد القلب حبًا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبوديةً ازداد له حبًا وحريةً عما سواه، والقلب فقير بالذات إلىٰ الله من جهتين: من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يكون مطمئنًا إلا بعبادة ربه والإنابة إليه ...»[(٣)].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٦٤.

(٢) الافتقار لب العبودية، بتصرف.

(٣) رسالة العبودية لشيخ الإسلام ص٩٧. ط المكتب الإسلامي.

العلامة الثانية: التعلق بالله وبمحبوباته:

ولذلك تجد صاحب هذه المنزلة في كل شأنه متعلقًا بالله، في بيته يعمل بما يرضي الله، في تجارته، وفي وظيفته، وفي كلامه، وفي جلوسه.

العلامة الثالثة: مداومة الذكر والاستغفار:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعۡد: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٩١].

العلامة الرابعة: الوجل من عدم قبول العمل:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المُؤۡمِنُون: ٦٠]، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون، قال: «**لا يا ابنة الصديق؛ ولكنهم الذين يصومون ويصلون يتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**» رواه الترمذي[1].

العلامة الخامسة: تعظيم الأمر والنهي:

ذلك أن تعظيم الأمر والنهي من تعظيم الآمر والناهي، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحَجّ: ٣٠]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ

(١) الترمذي، ح٣١٧٥.

أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

محبة الله عماد الأمر كله

محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين. وكل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة، إما مذمومة أو محمودة، وجميع الأعمال الدينية والإيمانية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله ﷻ.

وإن قلوب المحبين تنجذب إلىٰ محبة الله لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها أن يحب ويعبد. ولا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده.

فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالىٰ هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وكل محبوب، سواء إن لم يحب لأجله فمحبته فاسدة.

وإنما نحب الأنبياء والصالحين تبعا لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين، ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله.

- **الحب في الله:**

إنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكل ما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك، كما إذا

ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلىٰ محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصا لله فإن الله هو محبوبه.

- **محبة الإحسان:**

إن من أحب إنسانا لكونه أحسن إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه وقد جبلت النفوس علىٰ حب من أحسن إليها، لكن هذا في الحقيقة إنما هو محبة الإحسان لا نفس المحسن، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب، وربما أعقب بغضاء، فإنه ليس لله ﷻ، فإن الذي أحب إنسانا لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء ومن قال إنه يحب من يعطيه الله فهو كذب ومحال وزور من القول، وكذلك من أحب إنسانا لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر، وهذا كان من أتباع من تهوىٰ الأنفس، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع تلك المضرة، وإنما أحب ذلك لكونه وسيلة إلىٰ محبوبه، وليس هذا حبا لله ولا لذات الحبوب، وعلىٰ هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدىٰ ذلك إلىٰ النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله والله وحده. وأما من يرجو النفع والنصر من شخص ثم يزعم أنه يحبه لله فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال.

وليس معنىٰ ذلك أن تغمط المحسن في إحسانه فعن النبي ﷺ: «من أحسن إليكم فكافؤه فإن لم تستطيعوا فقولوا له جزاك الله خيرا، حتىٰ تعلموا أنكم قد كافأتموه».

• **العطاء والمنع لله:**

ونبينا ﷺ كان يعطي المؤلفة قلوبهم، ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي موكلا لهم ما في قلوبهم من الإيمان، وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما في قلوبهم من الهلع والجزع، ليكون ما يعطيهم شيئا لجلب قلوبهم إلىٰ أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلىٰ حب الله ﷻ وصرفها عن ضد ذلك، وكان يمنع أقواما خشية أن يكبهم الله علىٰ وجوههم في النار، فمنعهم بذلك العطاء عما يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله، وقد قال: (من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان). وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: «إني والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحدا ولا أمنع أحدا، ولكن أضع حيث أمرت».

• **علامتان لأهل محبته:**

جعل الله لأهل محبته علامتين هي:

(١) اتباع الرسول.

(٢) والجهاد في سبيل الله، ولهذا قال تعالىٰ في الاتباع: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فإن الرسول يأمر بما يحب الله ونهي عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به، فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسىٰ به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.

وعن الجهاد قال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان.

فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا علىٰ ضعف محبة الله ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبا إلا باحتمال المكروهات سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة.

- **الخلة:**

والخلة هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه، وهذا الكمال حصل لإبراهيم ومحمد ﷺ وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا» وقال: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله» ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل، إذ الخلة لا تحتمل الشركة فإنه كما قيل في المعنىٰ:

«قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا».

بخلاف أصل الحب فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن والحسين «اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما».

وسأله عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**». قال: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**». قلت: ثم من؟ قال: «**عمر بن الخطاب فعد رجالا**».

وقال في علي ﷺ: «**لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**» وأمثال ذلك كثير.

- **تكميل المحبة:**

فتكميلها بثلاثة أمور:

(١) أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يكتفي فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب مما سواهما.

(٢) أن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

(٣) أن يكره العودة إلىٰ الكفر أعظم من كراهته الإلقاء في النار وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقىٰ في النار».

أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، لإن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئا أو اشتهاه إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهىٰ.

● **أدعياء المحبة:**

ادعىٰ قوم حبهم لله وهم يفعلون الكبائر ويصرون عليها، والله يبغض من يصنع ذلك، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره، مع مداومته عليه، وعدم تداويه منه بصحة مزاجه.

وقد ندد الله باليهود والنصارىٰ في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨] فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة النبوة، بل يقتضي أنهم مربون مخلوقون، ولو تدبر هؤلاء الحمقىٰ ما قص الله في كتابه من قصص الأنبياء، وما جرىٰ لهم من التوبة والاستغفار، وما أصيبوا به من أنواع البلاء تمحيصا وتطهيرا لهم، علموا بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كانوا أرفع الناس مقامًا ولهذا كانت محبة هذه الأمة الله أكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل، فأين هذا من قوم يدعون المحبة؟ فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض والله يحب الإيمان والتقوىٰ ويبغض الكفر والفسوق والعصيان.

● **من يحبهم الله:**

أخبر سبحانه أنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويحب التوابين ويحسب المتطهرين، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب

كما في الحديث الصحيح: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» إنه بقدر تكميل العبودية لله تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا.

وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك. وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل.

فالدنيا ملعونة ما فيها إلا ما كان لله، وإلا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع، فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون الله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله، وأن يكون موافقة لمحبة الله ورسوله، وهو الواجب والمستحب كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبته غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلىٰ ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب منيبًا إلىٰ الله خائفا منه راغبا راهبًا له، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٣٣] إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا وهو بين خوف ورجاء قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ثانيًا

الروحانية والتدين والمعنى

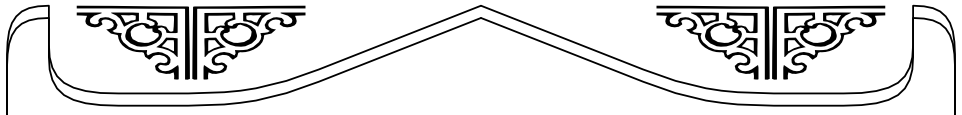

الروحانية والتدين والمعنى

إجمال الكلام قبل تفصيله أن الروحانية هي: تجاوز الإنسان لذاته من أجل غاية غير مادية (يسعىٰ لذلك بإرادة وباختيار حر وليس كالبهائم)، هذه الغاية متجاوزة لنفعه المادي ولاحتياجاته المادية الجسدية.

وعكس الروحانية: الانحسار والانغماس في الذات والتمركز حولها وحول احتياجاتها المادية، ويعبر عنها قول السيد المسيح: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

لماذا تُحسِّن دراسة مفاهيم الروحانية من جودة عبادة الإنسان وتزكيته لنفسه؟

لأن دراسة مفاهيم الروحانية ينتج عنها شيئان: **الأول**: تعميق فهم معنىٰ العبادة، والثاني: تعميق فهم الغرض من العبادة.

والإنسان إذا استطاع أن يُحسِّن فهمه للشيء والغرض الذي وُجد من أجله الشيء؛ فهذا يُحسِّن جودة فعله له ويرفع من درجة اهتمامه به.

مثال: إذا لم يرَ الزوج قيمة أو أهمية من إحضار الهدايا لزوجته طالما يتصف بالكرم ولا يُقصر في نفقة احتياجات المنزل، نقول له: إن جعل الهدية من باب الكرم والإنفاق هو قصور شديد عن فهم معنىٰ الهدية، فالهدية فعلُ تواصلٍ وحب واهتمام، وإذا استوعب الإنسان أن الهدية هي فعل تواصل وحب واهتمام سيدرك أن الأمر غير متعلق بالنفقة أو بالقيمة المادية، بل متعلق بدلالة السلوك.

ولأجل ذلك، لما تكلم النبي -عليه الصلاة والسلام- عن الهدية، لم يدخل للهدية من باب النفقة، وإنما دخل للهدية من باب الحب، فقال عليه الصلاة والسلام: «**تَهَادَوْا تَحَابُّوا**»[(١)].

ولذلك، كان النبي ﷺ يقبَل الهدية ويُثيب عليها، أي يردها بهدية أخرىٰ، فالموضوع في الهدية كأن أحدًا يقول لك: «أنا أحبك وأهتم بك»، والمطلوب منك أن تقول له: «وأنا أيضًا». أما بالنسبة للصدقات والنفقات، فليس مطلوبًا منك أن تُنفق علىٰ من أنفق أو تصدق عليك.

إن الفرد عندما يفهم جوهر ومعنىٰ الهدية، ويفهم -أيضًا- الغرض من تلك الهدية، ينبغي عليه أن يحسن تعامله مع مفهوم الهدية، ويحسن ممارسته لسلوك الهدية.

وقِسْ علىٰ ذلك دراسة مفاهيم الروحانية، فإنها تُعمِّق فهم معنىٰ العبادة ومقصدها والغرض منها.

الفكرة الأساسية لمصطلح الروحانية والتدين والمعنىٰ

نفهم من كلمة (الروحانية، والتدين، والمعنىٰ) أن لدينا ثلاثة مصطلحات، نتعرض لبيان معانيها إجمالًا، ثم سنتعمق بشكل أكبر في الحديث عن الروحانية.

مصطلح (الروحانية، والتدين، والمعنىٰ): مبني علىٰ فكرة أساسية، وهي: أن الإنسان ليس جسدًا ماديًّا بيولوجيًّا آليًّا بحتًا، بل يوجد مُكوِّن داخل الإنسان يتجاوز المادة ومختلف عنها في طبيعته واستحقاقاته وتداعياته

(١) [**صحيح**]: «الأدب المفرد» برقم (٥٩٤). انظر: «صحيح الأدب المفرد»، للألباني، برقم (٥٩٤).

المختلفة علىٰ المسيرة الإنسانية، هذا المكون هو «**الروح**».

والسلوكيات الروحانية التي يفعلها الإنسان منطلقًا من هذا المكون الآخر «**الروح**» بعكس سلوكيات المكون المادي المرتبط بالطعام والشراب التي يحيىٰ عليها.

الأصل في هذه القسمة فيما يتعلق بالمنطلقات الإسلامية، أن المولىٰ -تبارك وتعالىٰ- لمّا خلق الإنسان قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [سُورَةٌ صٓ: ٧١]. هذا هو المكون المادي (التكوين الطيني)، وأما المكون الروحي أو الروحاني (النفخة الروحانية) يتمثل في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سُورَةٌ صٓ: ٧٢].

إذن هناك مكونان للخلق الإنساني:

المكون الأول (المادي = الطين).

المكون الثاني (روحي، غير مادي = نفخة الروح الإلهية).

إليك الشرح المجمل لتلك المصطلحات الثلاثة انطلاقًا من احتياجي التعلق والاستقلال

لدىٰ الإنسان أربعة احتياجات أساسية، أولهما:

١- احتياج الإنسان إلىٰ التعلق والتواصل.

٢- احتياج الإنسان إلىٰ التحكم والاستقلال.

لمّا نفخ المولىٰ -تبارك وتعالىٰ- في هذا الإنسان من روحه أقام معه علاقة واتصالًا، فأنشأ داخل الإنسان وفي بنيته الأساسية الفطرية احتياجًا للتعلق والاتصال بدايةً من هذه النفخة الإلهية من روح الله تعالىٰ، هذه

النفخة غرست الصلة بينه وبين الله تعالىٰ، وغرست الاحتياج الدائم الذي لا ينقطع للمولىٰ تبارك وتعالىٰ.

إذن، ما الغرض من إنشاء رابطة التعلق هذه؟

لأن رابطة التعلق هي التي يقوم عليها اتصال الإنسان بربه، وسعي الإنسان في اتجاه ربه إلىٰ أن يموت.

وباستمرارية الحياة، تتجدد تعلقات أخرىٰ للإنسان، مثل تعلقه بأبيه، أو بأمه، أو بجده، أو بعائلته، أو بأصدقائه وزملائه، أو بجيرانه، أو بزوجته، أو بأولاده، أو بأحفاده، إلىٰ أن يموت.

هذه التعلقات تسد -أيضًا- هذا الاحتياج.

ومع ذلك فإن التعلق الأول والأصيل هو التعلق الروحي الإلهي الذي يهيمن علىٰ النفس ويعلقها بخالقها، ومن خلاله يرىٰ ويتواصل مع سائر التعلقات.

وفي هذه التعلقات جميعًا، بدايةً من التعلق بالله (وهو التعلق الرأسي) وانتهاءً بالتعلقات الأفقية، الإنسان يتجاوز ذاته، يتجاوز مصالحه المادية المباشرة وانحساره في نفسه من أجل أن يتواصل مع الله (التعلق الرأسي) ومع العالم عمومًا من البشر والجمادات والنباتات والحيوانات (التعلقات الأفقية).

وهذا التجاوز والتواصل وتعميق الاتصال بالله والعبودية له هو الذي يُعزز احتياج التحكم والاستقلال؛ لأنه عندما يكون التعلق بالله -تبارك وتعالىٰ- هو المُهيمن، وهو الذي يحتوي علىٰ مكوّن الخضوع، فنجد أن الإنسان بهذا التعلّق الإلهي يُحرر سائر تعلقاته عن الخضوع، فيُسدد -أيضًا-

احتياج التحكم والاستقلال عن الخلق، بحيث يتوازن التعلّق بهم مع التحرر منهم في منظومة واحدة.

والذي يُعين علىٰ المزج بين التعلق بهم والتحرر منهم: هو وجود تعلق مُهيمن هو الوحيد الخالي عن التحكم والاستقلال، وهو الذي يُعطي القوة للتحكم والاستقلال.

القِيَم: هي المعايير التي يضعها صاحب التعلق المُهيمن، وهو الله تبارك وتعالىٰ، ويطلب منك ضبط سلوكك بها، ولو علىٰ حساب هوىٰ نفسك، ويجعل فعلك لها والتزامك بمقتضاها هو فعل حبٍّ تتوجه به نحو حبيبك المهيمن الذي تعلقت به.

إذن، عندما يكون لديَّ علاقة واتصال مهيمن مع مصدر أعلىٰ، يُحررني ذلك من عبودية التعلقات الأخرىٰ. هذا التحرير يمنحني القدرة علىٰ إقامة سائر التعلقات دون الخضوع لها أو فقدان تحكمي واستقلالي، بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن صاحب التعلق المهيمن يزودني بمنظومة قيم تُترجم إلىٰ شبكة من السلوكيات والأفعال، وهذه السلوكيات ليست مجرد أفعال عشوائية، بل هي أفعال حب وتواصل موجهة نحو هذا الحبيب المهيمن.

فقط التعلق القلبي أو الوجداني وحده لا يكفي؛ يجب أن يدعمه ويتصل به نظام من الأفعال والسلوكيات التي تظهر كدلائل ملموسة علىٰ قوة هذا التعلق ورسوخه. هذه الأفعال تُعبِّر عن عمق الارتباط واستمراريته في الحياة العملية.

الروحانية: هي شعور الفرد الوجداني المتجاوز لنفسه المادية، ذلك الشعور ليس موجودًا في العالم لمجرد سداد احتياجاته المادية لكي يأكل

ويشرب، كما يقول المسيح عليه السلام: «ليس بالخبز وحده يحيىٰ الإنسان»[١]، شعور الفرد أنه موجود لغاية أكبر من مجرد أن ينجو. يقول فيكتور فرانكلن: «لمّا انتهىٰ الإنسان من الصراع لأجل البقاء انتقل إلىٰ صراع: البقاء لأجل ماذا»، بمعنىٰ أنني استطعت أن أبقىٰ وتجاوزت مخاوف الموت، فأنا بقيت لأجل ماذا؟ هذه الحاجة الوجدانية إلىٰ الارتباط والتعلق بما يتجاوز نفسي وأنانيتي ومصالحي الذاتية، هناك حاجة وجدانية لتجاوز الذات؛ لكيلا أكون منحسرًا في ذاتي وفي مصالحي الذاتية المادية.

هذه الرغبة والاحتياج إلىٰ التجاوز يدفعان الإنسان إلىٰ السعي لتحقيق تجاوز علىٰ الصعيد الرأسي مع الله الخالق، وعلىٰ الصعيد الأفقي مع العالم المحيط بنا والمختلف عنا.

من أين أتىٰ للإنسان شعوره واحتياجه لهذا التجاوز؟ ولماذا لم ينحسر في نفسه وفي مصالحه الذاتية؟

لأجل نفخة الروح التي رسّخت داخل الإنسان، هذا الاحتياج.

لو كان الإنسان مكونًا من مادة الطين فقط، لاقتصرت حاجاته علىٰ متطلبات الجسد الطيني وحدها.

فلماذا إذن أجد في داخلي نزوعًا يدفعني إلىٰ تجاوز هذه الاحتياجات المادية؟ بل أحيانًا أتصرف بطريقة تعاكسها، تقاومها، تكبح بعضها، وتقيّد أو تنظّم بعضها الآخر؟ **لأنني لستُ طينًا فحسب.**

وينتج من هذا بالضرورة الشعور بقيمة ومعنىٰ وغاية الحياة؛ لأن الحياة

(١) «إنجيل لوقا» (٤/ ٤).

عالمٌ مادي، فإذا كنتُ طينًا فحسب، أسدِ احتياجات الطين فحسب، فليس للحياة معنىٰ ولا غاية إلا كونها بيئة لسد احتياجات الطين.

وبما أني وجدت في نفسي هذا الاحتياج إلىٰ ما يتجاوز الطين، لا بد أن في العالم وفي الحياة ما يتجاوز المادة، فنحن (أنا والعالم) يكمن فينا ما يتجاوز المادة، فسينتج من تلامسي مع الاحتياج الروحاني شعور بمعنىٰ وقيمة وغاية وروحانية الحياة.

وسلوكيات التعبير عن المكون الروحاني داخل الإنسان ستنقسم بالاعتبار السابق (وهو الاعتبار الرأسي والأفقي) إلىٰ شيئين:

١- ممارسات تواصل وتعبد مع الله الخالق.

٢- ممارسات تواصل إحساني وجمالي مع العالم والناس والطبيعة والبيئة والجمادات والحيوانات؛ لأن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء.

كل إنسان فينا لديه رؤية كونية للعالم، فيها نظام من المعتقدات، ونظام من القيم، هذه الرؤية هي إجابات عن أسئلة سبعة، وهي التي تشرح تفاصيل معاني الروحانية، وتفاصيل معاني السلوكيات الروحانية، وتفاصيل الإجراءات التواصلية.

إن الرؤية التي تشرح التفاصيل وتُنشئ البرنامج العملي التفصيلي والمنهج التعليمي الدراسي تُسمىٰ: «الدين».

الدين: هو البناء المتكامل الذي يُجيب عن سبعة أسئلة.

والتدين: هو استقبالك وممارستك لما تقتضيه إجابة الأسئلة السبعة من أفعال وسلوكيات.

وبالتالي فإن الدين هو الإطار الشارح والمُفسر والمُفصِّل للروحانية، وبرنامج ممارسة الروحانية.

وعلىٰ هذا، ننتقل للمصطلح الثالث وهو:

المعنىٰ: له ثلاثة أشكال، عندما نذكر كلمة المعنىٰ فإننا نقصد واحدًا من هذه المعاني الثلاثة بحسب السياق:

١- المعنىٰ الأول لكلمة المعنىٰ هو: **(معنىٰ الحياة وغايتها)** ككل.

فعلىٰ سبيل المثال: من إجابة الدين ورؤيتي الكونية، فإن معنىٰ الحياة وغايتها ككل أن أكون في هذه الحياة متوجهًا إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ بالعبادة، ومُحييًا ذكره في الكون، ومُزكيًّا نفسي إلىٰ أن أصل إلىٰ ربي يوم القيامة ليجازيني بما صنعت.

٢- المعنىٰ الثاني لكلمة المعنىٰ: **(ما يمكن فهمه واستنباطه من واقع الحياة وأحداثها وتجاربك فيها)**.

علىٰ سبيل المثال: عندما تُصاب بمرضٍ ما، أو تُطرد من شركتك، ثم تعرف أن هذه الشركة تعرضت للإفلاس، فتقول: هذه التجربة التي مررتُ بها كانت تحوي معنىٰ كامنًا وهو أنَّ هذا هو الخير لي، وأن هذا هو الذي أعانني وساعدني علىٰ شيء.

إذا تعرضت الأمة لأزمة عامة فتقول: إن المعنىٰ الكامن في هذه الأزمة هو إيقاظ الناس من غفلتهم وتوجيه انتباههم لهذه القضية والأزمة.

٣- المعنىٰ الثالث لكلمة المعنىٰ: **(تذكر أفعال الحب التي ذكرنا أنك تتوجه بها نحو خالقك، وتحيا حياتك من أجل ممارسة هذه الأفعال)** بعض هذه الأفعال يُمثل بالنسبة لك وزنًا شخصيًّا أثقل من غيره، واحدٌ من هذه

الأفعال إذا أخلصت حياتك له لرأيت أنه يستحق ذلك، واحدٌ من هذه الأفعال يكون جزئًا من هويتك وتعريفك لنفسك.

مثل: الجهاد بالنسبة لخالد بن الوليد ﷺ، **النفقة والصدقة** بالنسبة لعثمان بن عفان ﷺ، وإقامة العدل بالنسبة لعمر بن الخطاب ﷺ، **والصديقية وإكمال رسالة النبوة** بالنسبة لأبي بكر الصديق ﷺ، **وتأويل الدين وتعليمه** بالنسبة لابن عباس.

فالمعنىٰ الثالث لكلمة المعنىٰ هو: (**بابٌ معيّن من أبواب تجاوز النفس وأفعال الحب الموجّهة لله له وزن وقيمة أعظم من غيره في نفسك، بحيث لو بذلت حياتك كلها لأجله لما كان كثيرًا**).

إذا تحدثنا عن شخصٍ رؤيته الكونية أنه ليس للكون خالق، وأنه ليس هناك دين، هل هذا الشخص يستطيع إثبات معاني ومصطلحات ومفاهيم الروحانية والمعنىٰ؟

للإجابة عن هذا السؤال نود أن نشير إلىٰ أن هذه النوعية من الناس **تنقسم لنوعين:**

١- **النوع الأول**: يرىٰ أن بما أنه ليس للكون خالق، وليس هناك دين؛ فالحياة عبثٌ لا معنىٰ لها، ولا يوجد معنىٰ أو روحانية في مثل هذه الحياة، فالحياة مادة ولأجل المادة.

٢- **النوع الثاني منهم**: يجد الاحتياج في نفسه، والشوق لتجاوز المادة في نفسه، يجد الشوق لتجاوز النفس في نفسه، موجود بداخله ويتلامس معه ويشعر به، ولكنه لا يثبت دينًا ولا يُثبت إلهًا، فيحاول عمل برنامجٍ شخصي خاص به لتسديد هذا الاحتياج الذي يجده في نفسه.

وهو لا يعرف من أين أتىٰ أصل هذا الاحتياج، بل ويُنكر ما نقوله نحن أن أصل هذا الاحتياج هو النفخة التي من روح الله تعالىٰ، غير أنه يتفق معنا في وجود الاحتياج، ويختلف معنا في أصل هذا الاحتياج وفي طريقة سده، ويحاول إيجاد برامج بديلة، بداية من الفن، والجمال، والموسيقىٰ، والصدقة، والخير، وإعانة المحتاجين، وإنقاذ السلاحف، وصولًا إلىٰ بعض أنواع المخدرات التي يعيش معها تجربة تجاوز للذات وشعوره بأن هناك شيئًا مختلفًا عن العالم المادي.

ولذلك وُجدت بعض أنواع المخدرات عند الطرق الصوفية، لأنها أشعرتهم بهذا التواصل، بل إن بعض الرياضات الصوفية القائمة علىٰ السهر والجوع ينتج عنها تأثيرات عقلية وذهنية تشبه تأثيرات المخدرات في إشعار الإنسان بخروجه خارج المادة والجسد المادي.

ولدىٰ سام هاريس كتاب يُسمىٰ: «**نحو بناء روحانية بديلة**» وجاء في هذا الكتاب من ضمن البدائل الروحانية التي ذكرها هي «**المشروم السحري**» (نوع مُخدِّر ينتج عنه هلوسات).

وكل هذه البدائل الروحانية تسد نسبة من الاحتياج، لكنها ناقصة بلا شك عن برنامج سد الاحتياج الذي يُعطيه الدين الحق.

لدينا ثلاثة اتجاهات فيما يتعلق بالروحانية:

١- مَنْ يقسم الإنسان هذه القسمة للروح والمادة انطلاقًا من الدين.

٢- مَنْ يرفض هذه القسمة، ويعتقد بأن الإنسان مادة فقط، وهم الماديون (وكلهم ملحدون وليس العكس).

٣- تشمل اللادينيين والملحدين وغيرهم: وهؤلاء ليسوا ماديين، يثبتون أن الإنسان مادة وروح؛ لأنهم وجدوا أن هناك سلوكيات ومظاهر

إنسانية واحتياجات نفسية لا يمكن تفسيرها من خلال المادة فحسب؛ أي: أن هناك سلوكيات أنسب تفسير لها هو وجود مكون غير مادي، وتسمىٰ المقدرة التفسيرية، فأثبتوا الروحانية ولكن من منطلقات غير دينية؛ وبالتالي هي روحانية غير متدينة.

بناء علىٰ ذلك، يمكننا تعريف الروحانية والتدين والمعنىٰ بشكل مبسط يُظهر العلاقة بينهم:

١- الروحانية:

هي تجاوز الإنسان لذاته من أجل غاية غير مادية (يسعىٰ لذلك بإرادة وباختيار حر وليس كالبهائم)، هذه الغاية متجاوزة لنفعه المادي ولاحتياجاته المادية الجسدية.

وعكس الروحانية: الانحسار والانغماس في الذات والتمركز حولها وحول احتياجاتها المادية، ويعبر عنها قول السيد المسيح: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

مثل: الاستماع للموسيقىٰ (بقطع النظر عن الاختلاف في تحريمها فهي غذاءً للروح، والغذاء قد يكون محرمًا كالخنزير أو مباحًا كلحم الأنعام)، أو الرسم، أو التأمل في البحر، أو السعي علىٰ الأبناء، أو الطبخ (حتىٰ لو لم يكن جائعًا): فهنا لا يأكل الفرد أو يشرب أو يتلقىٰ العلاج لأجل تسديد احتياج مادي، فلا يوجد احتياج مادي يتم تسديده؛ بالتالي تلك سلوكيات روحانية.

لذلك -عبر التاريخ كله بلا استثناء، حتىٰ ما يُسمىٰ بالإنسان القديم-

وُجد لدىٰ الإنسان البدائي أدوات موسيقية، ويُنفق فيها الإنسان من ماله ووقته وكدّه وسعيه؛ لأنها تُسدد احتياجات بداخله غير الاحتياجات المادية.

ولقد صحّ عن عطاء بن أبي رباح أن مزامير داوود كانت تُقرأ وتُلحن بالمزمار.

عن ابن جريج، قُلْتُ لِعَطَاءٍ: الْقِرَاءَةُ عَلَىٰ الْغِنَاءِ؟ قَالَ: مَا بَأْسَ بِذَلِكَ، سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنِ عُمَيْرٍ يَقُولُ: «كَانَ دَاوُدُ النَّبِيُّ ﷺ يَأْخُذُ الْمِعْزَفَةَ فَيَعْزِفُ بِهَا عَلَيْهِ، يُرَدِّدُ عَلَيْهِ صَوْتَهُ، يُرِيدُ أَنْ يَبْكِيَ بِذَلِكَ وَيُبْكِي»(١)

غير أن هذا يفسره ما جاء بعده مباشرة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيٍّ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ»(٢)

الروحانية هي: تجاوز الذات من أجل الاتصال الرأسي بالله وإقامة العلاقة معه، ومن أجل الاتصال الأفقي بالعالم وإقامة العلاقة معه، لا لأجل تحصيل مصالح مادية للذات.

فمثلًا:

- إذا اتجه أحدٌ للصلاة في أيام الامتحانات، فحظ هذه الصلاة من الممارسة الروحانية محدود وليس كبيرًا؛ لأن الاتصال حدث لأجل تحصيل مصلحة ذاتية شخصية مادية دنيوية.

- عندما يتصدق أحدٌ، فإن مصلحته المادية الذاتية الدنيوية القريبة العاجلة تكون في بقاء هذا المال وليس في التخلص منه، لكنه عندما يتخلص منه فهو بذلك يتجاوز ذاته ويتجاوز المصلحة الذاتية، ليتواصل بهذا

(١) «مصنف عبد الرزاق» برقم (٤١٦٥).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» برقم (٤١٦٦).

الفعل مع الله سبحانه ويُقيم العلاقة معه. وهذا لا يمنع أن يعود عليه هذا الفعل بالنفع والثواب والبركة في الرزق ودخول الجنة ونيل نعيمها، لكن هذه الأمور لا تمثل جوهر الفعل الذي قام به، لأن جوهر الفعل هو الاتصال.

إن تجاوز الذات ليس مجرد أثر يختبره الإنسان نتيجة الصلة، بل هو الغاية الأساسية منها والهدف الذي تُقام من أجله. فالغرض من الصلة أن يتحقق تواصل يتجاوز حدود الذات. ورغم أن الفرد قد يتواصل دون أن ينطوي هذا التواصل علىٰ تجاوز للذات، إلا أن الهدف الأسمىٰ هو أن يكون هذا التواصل متجاوزًا للذات، بما يُسهم في تعميق الصلة وتعزيز العلاقة.

لقد وجَّهت إحدىٰ دكاترة الأنثروبولوجيا سؤالًا للطلبة نصه: **ما هو أول وأقدم مظهر حضاري إنساني؟**

فأجاب الطلاب إجابات عديدة مثل: العمران، البناء، الزراعة، الكتابة؛ لكنها نفت صحة إجاباتهم، وقالت لهم: إن أقدم مظهر حضاري: هو وجود حفريات لبشرٍ كُسر فخذهم وتمّ لفّه بالجبيرة. الإنسان القديم إذا كُسر فخذه، لم يعد مفيدًا لجماعته علىٰ الإطلاق، لا في الصيد أو القنص أو الجمع أو أي شيء آخر، ولم يعد مفيدًا في المسيرة التطوريّة أو النفع المادي.

فاعتناء الإنسان بهذا الشخص، وصنع جبيرة له، والحفاظ عليه، ونقله من مكانٍ لآخر، خاصةً المسنين منهم؛ فهذا يعد أقدم دليل علىٰ المظاهر الحضارية؛ لأن صلب وجوهر الحضارة هو في تجاوز الذات.

ولذلك، عندما جاء النازي صاحب المذهب المادي المُغرق والموغل في المادية، كانت إحدىٰ أفكارهم الرئيسية هي القضاء علىٰ المعوّقين وقتل المسنين وكبار السن والتخلص منهم؛ لأنهم غير مفيدين، ولا يسدون احتياجًا ماديًّا، ولا ينفعون الأمة.

ولذلك لم تكن معسكرات النازيين والهولوكوست قاصرة علىٰ اليهود فقط، بل كان بها اليهود والغجر والمعوقين وذوي الإعاقات العقلية.

إذن، إن أهم وأقدم مظهر حضاري للتعبير عن الروحانية: **الاعتناء بشخص ليس له أي فائدة حياتية**، فالعناية بالمعوقين والمسنين هو تجاوز للذات، لعدم وجود نفع مادي من ورائه، بل هو عبء علىٰ المادة من الدخل والطاقة والوقت والصحة . . . إلخ، هذا التجاوز للذات هو سلوك روحاني؛ لأنه اتصال مع الجزء غير المادي من الإنسان.

وبالنظر إلىٰ **العاطفة** وما بها من تجاوزٍ للذات، فإن من أوائل المظاهر التي ردت الدكتور عبد الوهاب المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإلحاد، بعدما كان مُلحدًا إلحادًا ماديًّا شيوعيًّا، والتي لفتت انتباهه بوجود خطأ ما في رؤيته الكونية: مراقبته للعاطفة التي قامت في قلبه ناحية ولده الأول، حيث رأىٰ أن هناك رابطة عاطفية مُعقدة متداخلة سريعة النشأة والنمو بشكلٍ غير منطقي، ليست غريزية وليست بسيطة كالموجودة لدىٰ القطط التي يمكن لها أن تتناول صغارها إذا جاعت، ورأىٰ أن المذهب المادي ورؤيته الكونية لا تستطيع تفسير ذلك، وهذا ليس بسبب ضعف المكون الروحي فقط، بل بسبب طغيان الانحسار في الذات. ومن هنا، كان هذا هو المفتاح الأول الذي خدش بناء المادية ودلّ علىٰ وجود مكون آخر غير مادي.

ثم قرأ بعد ذلك لعلي عزت بيجوفيتش، وإنتاجه لثنائية المادة والروح وعلاقة المنتجات الثقافية والحضارية والفنية والإبداعية والجوانب الروحانية والعلاقة بين الدين وبين الفن والجمال، وهو من أعظم ما يمكن أن يُقرأ مكتوبًا بالعربية في هذا الموضوع، والذي للأسف لم ينل حقه إلىٰ الآن من التحليل أو الشرح.

٢- المعنىٰ:

يمكن للإنسان أن يمارس أكثر من سلوك متجاوز للذات خلال يومه وفي حياته عمومًا، إذا كان أحد تلك السلوكيات يراه الإنسان تحديدًا يستحق أن تُعاش الحياة لأجله وربما يستحق الموت في سبيله ولأجله.

وذلك مثل: أن يستمع للموسيقىٰ لكنه لا يرىٰ أنها تستحق الحياة لأجلها، أما عندما يمارس تجاوز الذات من خلال تحمل مسئولية أسرته والإنفاق علىٰ أطفاله وتوفير الأمان لهم، ويرىٰ أن هذه الغاية تستحق عيش الحياة لأجلها.

ومثل: أن يبتعد الشخص عن الانتحار المصحوب بالانحسار الذاتي والرغبة في إراحة النفس من أجل رعاية أهله وحقهم عليه، هذه الغاية وهذا السلوك الروحاني تحديدًا هو معنىٰ الحياة بالنسبة لهذا الشخص.

بالتالي، هناك معنىٰ عام للحياة وهو العبودية لله ﷻ والاتصال به، لكن هناك معنىٰ شخصي جزئي خاص بالفرد، ومتعلق بقطاع حياتي وسلوكي معين.

ولذلك، فإن المعنىٰ أخص من الروحانية: المعنىٰ سلوك روحاني معين، أما الروحانية فهي مجموعة من السلوكيات تُحقق المعنىٰ العام

المتمثل في العبودية والاتصال. كل سلوك يُستمد منه معنىٰ الحياة هو سلوك روحاني، وليس كل سلوك روحاني مؤهل لرتبة أن تُستمد منه الحياة.

المعنىٰ يُعطي جودة للعيش، بل وفقًا لدراسات العلاج الوجودي والعلاج بالمعنىٰ أن عدم وجود معنىٰ للحياة هو أحد أهم أسباب الانتحار، أو يجعل الإنسان يحيا حياة غارقة بالمادية بشكل يُصيبه بالأمراض النفسية مثل هتلر.

يمكن للملحد أن يعيش لأجل معنىٰ جزئي دون وجود معنىٰ كلي، مثل العيش لأجل تربية الأبناء أو للحفاظ علىٰ علاقة حب، وإذا تعرض لتجربة فقد هذا المعنىٰ الجزئي عيشه متعلق بقدرته علىٰ توليد معاني جزئية جديدة.

إذا كان هناك معنىٰ شامل للحياة الإنسانية بأكملها يغطي جميع جوانب الحياة ويجعل أن عيشك لأجل هذا المعنىٰ تستحقه الحياة، **هذا المعنىٰ الكلي يُقدمه الدين.**

٣- الدين:

السلوكيات الروحانية الجزئية يمكن أن توجد دون ارتباط مباشر بالدين، إذ إن هناك أنماطًا من السلوكيات الروحانية التي تمنح الحياة معنىٰ وقيمة، دون أن يكون الدين شرطًا لوجودها.

لكن لجعل الحياة كلها بكل ما فيها من فعل وسلوك يجمع بينها غاية مشتركة مع الاحتفاظ بوجود الغايات الجزئية يجب: **أن يكون العمل في سبيل الله**، ولا يوجد مصدر يُعطي غاية كلية للسعي الإنساني إلا الأديان التي تجعل جميع السعي الإنساني في الحياة الدنيا **لأجل الدار الآخرة**،

وليس شرطًا أن تكون الدار الآخرة بالمعنىٰ الإسلامي بل يمكن تحقق ذلك عند الهندوس، فالغاية الكلية عندهم هي فعل الخير لأجل تناسخ الأرواح في جسد آخر بمعاناة أقل وحياة خيِّرة.

مثل: سعي الفرد لأجل أطفاله ولأجل أن يكون هذا الفعل في سبيل الله.

هذا هو سؤال المصير الذي يُجيب عليه الدين: أن كل هذه الأفعال المتجاوزة للذات تجمع بينها غاية كبرىٰ، بغض النظر عن أهدافها الصغرىٰ ومنازلها ورتبها، وهذه الغاية تسمىٰ (**الغاية المطلقة**).

الدين لا يمنع الغايات الصغرىٰ، مثل أن تحيا لتُعطي الأمان لأطفالك، أو أن تحيا لأجل من تحب، لكن يمنحك خيارًا وهو: أن تضع تلك الغايات الصغرىٰ في إطار الغاية الكبرىٰ.

نفترض أن هناك مَن ليس لديه الدين أو غاية كبرىٰ، أو لديه الدين لكنه مارس تلك الأفعال بدون وضعها في إطار الغاية الكبرىٰ، أو ركزّ علىٰ السلوكيات الروحانية المختلفة عما جاء به الدين أو حرّمها الدين، هل سيجني ثمارًا حياتية؟

نعم! ولكن هذه الثمار ليست بالشكل الأتم والأكمل. (الذي يعيش حياته يأكل شيئًا واحدًا من الأطعمة، فهذا سيشبع ولن يموت، لكن لا يوجد وجه مقارنة بينه وبين من أصاب من أطايب الطعام وأنواعها بتفاوت درجاتها في الفضل والجودة).

إذن، لدينا: الروحانية غير الدينية -بما فيها الروحانية المُلحدة- والروحانية المتدينة:

الروحانية غير الدينية:

هذه الروحانية يمكن أن يكون صاحبها مُتدينًا، لكنه لا يأخذ السلوكيات الروحانية من الدين.

هذه الروحانية تحاول تقديم تعريفات ومفاهيم روحانية غير مستمدة من الدين، مثل: الفن والموسيقىٰ والعطاء للآخرين.

مثل:

بيل جيتس: رغم ثرائه ينفق نصف ثروته علىٰ المشاريع الخيرية، عكس شخص آخر يرىٰ ذلك إهدارًا لثروته، هذا بسبب الروحانية والمعنىٰ، قد يريد البعض إيجاد معنىٰ لحياته، الحياة تستحق أن تُعاش لأجلها مثل العطاء للآخرين.

الإلحاد يتضمن أيضًا سلوكيات تتعدىٰ السلوكيات الروحانية التي ذكرناها، وصولًا للمخدرات غير الضارة وليست عالية الإدمان؛ لأن الفرد بتناولها يتجاوز ذاته. مثل: **سام هاريس** الذي يؤيد هذه الفكرة لديه كتاب عن هذا النوع من الروحانية.

الروحانية الدينية:

تشمل السلوكيات الجزئية المظللة بالغاية الكبرىٰ وهي العبودية، مع وجود حظ النفس في السلوكيات الجزئية.

جاء في الحديث وعن كعب بن عجرة ﵁ قال: **مر علىٰ النبي ﷺ رجل، فرأىٰ أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعىٰ علىٰ ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعىٰ علىٰ**

أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعىٰ علىٰ نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعىٰ رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»[(١)].

لقد قام الصحابة هنا بحصر السلوكيات الروحانية المُتجاوزة للذات من أجل الاتصال بالله في العبادات المحضة، ولم يعقلوا السلوكيات الجزئية إلا وهي في إطار الغاية الكلية، أي هناك مطابقة كاملة بين الغاية الكلية والسلوك الجزئي. لكن النبي ﷺ لفت نظرهم إلىٰ أن كل تجاوز للذات وكل سعي في غير مصالح الذات هو في الحقيقة اتصال بالله ﷻ وفي سبيله، أي أنه جعل الغايات الصغرىٰ التي تتجاوز الناس لأجلها ذواتهم قابلة للدمج داخل الغاية الكبرىٰ.

بالعودة مرة أخرىٰ لنقطة التواصل

ما هي الغاية الكبرىٰ في التصور الديني للروحانية؟

الغاية الكبرىٰ في التصور الديني للروحانية هي **الله** تبارك وتعالىٰ.

وما الهدف المركزي والأساسي للسلوكيات الروحانية في **التصور الديني؟**

الهدف المركزي والأساسي للسلوكيات الروحانية في التصور الديني هو **الاتصال بالله**.

لمّا عبر النبي ﷺ عن تحقيق الروحانية في العبادة، وتحقيق التعلق والاتصال في العبادة؛ أي لا تكون العبادة مجرد عبادة مجردة عن معاني

---

(١) [**صحيح**]: «مجمع الزوائد» برقم (٧٧٠٩). انظر: «صحيح الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (١٤٢٨).

التعلق والاتصال، ولا تكون مُجرد طقسٍ يمارسه العبد- فقال: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**»(١)، بل يُراد به التعلق والاتصال، لمّا أراد ﷺ أن يُعبر بأن العبودية المذكورة في منزلة الإيمان والإسلام لا بد أن تُفعلَ بشكلٍ يُعمق التواصل والعلاقة، عبّر عن ذلك بمنزلة الإحسان، حيث قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٢)، فتكون العبادة مُعمِّقة للعلاقة والتواصل والمحبة.

«**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» ليست النية للعبادة، بل هي: الحالة الشعورية والاستحضار القلبي والتمثيل النفسي الذي تفعله داخل العبادة لتُحيي طبيعة الاتصال والتعلق في هذه العبادة، وتُخرجها عن الحالة الطقسية. أن تستحضر في نفسك **أنني الآن ألقىٰ الله وأراه**، فتملأ الطقس والعبادة بمعاني الاتصال والتعلق والمحبة.

مثال: يُمكن أن يُمارس الجنس بشكلٍ انحساري في الذات لأجل قضاء الشهوة وسد الاحتياج المادي، ويمكن أن يُمارس بشكلٍ يُعمق التعلق والاتصال والمحبة، حتىٰ لو لم تغلبه الشهوة. وهناك اتجاه تصوفي يرىٰ أن الجماع تحديدًا ممارسة روحانية، خاصة عند لحظة بلوغ النشوة، هم يروا أن تلك الأجزاء من الثانية هي من الاتصال بالله، ممارسة الجنس هنا كسلوك تعبدي. هنا لا نتكلم عن قصد وجه الله بالفعل الدنيوي بل إن هذا الفعل نفسه فعل ديني.

---

(١) [إسناده جيد] «مسند الشهاب» برقم (١٤٢٤). انظر: «صحيح الترغيب والترهيب»، للألباني، برقم (١٠٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٠).

لذلك: **فإن موضوع الروحانية هو أكثر جزء متصل بالإحسان في حديث جبريل**، وقد عرّفه النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، هنا لم يقل النبي ﷺ أن تعبد الله فتحقق أعظم الثواب أو تستوفي أجرك كاملًا، فهذه وإن كانت ثمرات للعمل، لكنها ليست الغاية الكبرىٰ، حيث إن الغاية الكبرىٰ هي الاتصال بالله، ولذلك عبّر عنها كأنك تراه أو هو سبحانه يراك.

إذا كان بداخل الإنسان بعض المنازعة النفسية في النوايا ناحية سلوك معين، وحاول استحضار تجاوز الذات والرؤية الكلية رغم وجود رغبات إنسانية أخرىٰ، فهذا يعتبر فعلًا متجاوزًا للذات؛ لأن الأمر بأكمله قائم علىٰ المجاهدة، مثل الإنسان الذي يقوم في صلاته فيحاول أن يخشع وأن يقيم الاتصال بالله ويحسن اللقاء بالله، وأن يقف بين يدي الله كأنه يراه، ثم تأتيه خواطر الدنيا فيدافع هذا تارة، ويسلم له تارة أخرىٰ، فهو بذلك في فعل تواصلي، وبقدر ما يسلم له ويخلص له الاتصال بقدر ما يعظم قدر وأثر ووزن العمل الروحاني.

بعد تجاوز مرحلة الاختبار والحساب ودخول الجنة: هناك نعيم في الجنة مرتبط بسد الاحتياجات المادية في ظاهره، لمّا عبّر الله ﷻ عنه في الدنيا عبّر عنه بما يُشبه الأغراض المادية للإنسان (طعام وشراب وجنس . . . إلخ)، لكن هذا لا يعني أن هذا النعيم في الجنة سيكون مُحقِّقًا ومُغذيًا فقط للجانب المادي في الإنسان مثل النعيم الدنيوي، فتصورنا المغلوط عن الطعام والشراب في الآخرة أنهم تغذية للجانب المادي فقط لقياسنا لهم بوظيفة هذه الأشياء في الدنيا، لكن في الحقيقة هو تشابه في الأسماء فقط أدَّىٰ للظن أن هناك تشابه في الوظيفة، ففي الواقع كل أنواع

النعيم في الجنة تُغذي المادة والروح. ولا يمتنع أن تكون هذه الممارسة في الجنة لها أثر روحاني.

وهناك أنواع أخرىٰ من النعيم ليست مادية بحتة، مثل: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، والذي يتعلق بالاتصال والعلاقة مع الآخر.

ثم يأتي أعظم نعيم أهل الجنة، وهو: رؤية المولىٰ تبارك وتعالىٰ.

إذن، مرتبة الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) ومَنْ مثَّل في نفسه محبوبًا كأنه يراه، ازدادت محبته وعظم شوقه وبلغ توق نفسه لرؤية الحبيب مداه. ولأن الله يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فإن المحسنين يوم القيامة يُجزون بما قاله النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ -تتزاحمون- فِي رُؤْيَتِهِ**»(١).

إن جوهر علاقة واتصال المحبين؛ أنه اتصال ممزوج بالالتذاذ، وليس مجرد اتصال كالذي يحدث عند التعامل مع سائق الأجرة أو البائع في المحل؛ ولذلك كان الجنس جزءًا جوهريًّا وأساسيًّا من علاقة الزواج، لأنه يصحبه درجة عالية جدًّا من الالتذاذ.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ**»(٢)، فرؤية الله سبحانه يوم القيامة هي اتصال ممزوج بالالتذاذ.

فالعبادات وسائل من أجل تحقيق العبودية، العبودية هي الاتصال التعلقي بأفعال العبادة والحب، كأنك بفعلها وفي هذا التواصل تلقىٰ الله سبحانه وتراه. وهذه هي غاية المُحبين من أحبابهم؛ اللُقيا والرؤية.

---

(١) [متفق عليه]: «صحيح البخاري» برقم (٥٥٤)، و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٣).

(٢) [إسناده صحيح] «سنن النسائي» برقم (١٣٠٥). انظر: «صحيح سنن النسائي»، للألباني، برقم (١٢٣٧).

إذن، لقد خلقك الله سبحانه، ومنحك الإرادة الحُرّة لتفعل الخير وتترك الشر، ونظّم لك عمليات اللقاء والاتصال والرؤية تُسدد بها احتياجاتك التي اقتضتها نفخته الروحية التي فيك، إلىٰ أن تلقاه سبحانه يوم القيامة فتراه. **هذا هو المسار الروحي بأكمله من بدايته لنهايته**: من النفخة التي تقتضي رغبتك في الخروج عن الاحتياجات المادية لأن هذه النفخة تُناديك، فأعطاك الدين برنامجًا سلوكيًّا للممارسات حتىٰ يدلك علىٰ كيفية تحقيق هذا الخروج، وأثناء قيامك بهذا البرنامج السلوكي يلزمك ممارسته بطريقة محددة وإلا ستكون مجرد طقوسٍ وأفعال لا تُغطي الحاجة ولا تُسدد الاحتياج، وهي أن تُمارسها كأنك ترىٰ الله سبحانه، إلىٰ أن تموت فتلقىٰ الله فتراه.

ما هي القنطرة والجسر الذي يصل بين «أن تعبد الله كأنك تراه» وبين «أن أعظم نعيم أهل الجنة هو الرؤية»؟ أن هذه هي الغاية العظمىٰ، الغاية العظمىٰ في الدنيا الوصل «كأنك تراه»، غاية الوصل في الدنيا أن تُمثل كأنك تراه، وغاية الوصل في الآخرة «أن تراه». وكل الغايات الأخرىٰ كالثواب والحور العين والطعام والشراب والخمر والعسل وخلافه؛ ثانوية بالقياس إلىٰ الغاية العظمىٰ.

فالمتدين يمارس سلوكياته الروحانية لأغراض خاصة وجزئية، لكنه يضعها في الإطار الكلي، وإن لم يضعها في الإطار الكلي سيجني شيئًا من ثمارها (مثل الكافر)، لكن إن أراد الدرجة الأعلىٰ سيربطها بالغاية العظمىٰ عن طريق النية، والنية وضعها الله كطريق وجسر يصل بين مختلف الممارسات وبين الغاية العظمىٰ.

إن العلاقة مع النبي ﷺ هي من العلاقات الأفقية التي تخضع لهيمنة العلاقة الرأسية، الفكرة أن العلاقة الرأسية أعطت لهذه العلاقة الأفقية تحديدًا ما لم تُعطه لسائر العلاقات، سواء من الاستحقاقات أو من الواجبات.

مهارات التعبد والممارسة الروحانية

هناك ثلاثة أنواع من الممارسات الروحانية: النوع الأول: اقترحه الوحي ونصَّ عليه، والنوع الثاني: حرّمه الوحي، والنوع الثالث: سكت عنه الوحي.

النوع الذي سكت عنه الوحي: دائمًا تجد له علاقة بالأنواع التي اقتُرِحَت؛ بمعنىٰ: أن كليات الأنواع التي اقتُرِحَت تشمل معظم الأشياء التي نعتقد أنه سُكِتَ عنها.

مثال عن المسكوت عنه من الممارسات الروحانية: الطبخ. «يمكن أن يشمله معنىٰ إطعام الطعام: يعني في الشريعة أن تصنع الطعام، إذا مارسه الفرد مستلذًّا بما فيه من تجاوز للذات؛ لأن الطبخ لكي يكون ممارسة روحانية يجب ألا يكون هدفه أن تأكل منه، وعند ربطه بالغاية الكلية يحتسب الفرد مَن سيطعمهم بهذا الطعام فيدخله في إطعام الطعام».

يمكن تسمية الممارسات الروحانية التي لم توضع في إطار الغاية الكبرىٰ باسم: **(عيش النفس)** وهذا ما وضعه ابن القيم عند حديثه عن بدع الصوفية وممارساتهم غير المشروعة المخالفة للكتاب والسنة، لتسمية الممارسات الروحانية البدعية، لكن من جمال الاسم فهو يصدق علىٰ جميع الممارسات الروحانية غير الدينية، مما يدل علىٰ ملاحظته لأهميتها[1].

(١) راجع كلام **ابن القيم** في كتابه «الكلام علىٰ مسألة السماع» (١/ ٤٤٥).

وعيش النفس يعني: تعتاش منها النفس، لكن ليست هي التي شرعها الله وليست هي الغذاء الأكمل والأتم، والكمال هنا هو الكمال الواجب وليس كمال التزيين، مجرد شيء ناقص يُنجيك من الموت جوعًا.

إذن: الدين يقدم برنامج عملي للممارسة الروحانية، ويقدم إطارًا كليًّا للممارسة الروحانية وإطارًا كليًّا لسؤال المعنىٰ.

إذا تم تجاهل هذا البرنامج الديني والأجوبة الدينية فلن يبقىٰ أمامنا غير أن يقوّم كل فرد بمجهوده الشخصي من خلال هذه المصادر الناقصة والضعيفة ببناء هيكل شخصي للممارسة الروحانية ولسؤال المعنىٰ، وهو السائد في المجتمعات الغربية نتيجةً للنفور من الدين والتدين ومن أجوبته وبرامجه.

وهذا لا يعني عدم اختيار الإطار الشخصي داخل الإطار الكلي، ويدل عليه ما قاله الإمام مالك ردًّا علىٰ عبد الله العمري العابد، عندما كتب إلىٰ مالك يحضُّه علىٰ الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا علىٰ خير وبر[1].

هذا هو الإطار الشخصي الذي يُبنىٰ تحت مظلة الإطار الكلي.

مثال: الذي يذهب ليؤذن للصلاة مع استحضاره أنها عبادة:

هنا تجاوز لذاته ومارس سلوكًا روحانيًّا، إذا رأىٰ أن طلوعه للمئذنة وإمساكه للميكروفون لإيقاظ الناس وتنبيههم للصلاة أنه شيء يُعطي لحياته

(١) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي، برقم (٨/ ١١٤).

معنىٰ، هنا انطلق من إطار السلوك الروحاني إلىٰ رتبة المعنىٰ. وهذا هو سبب استمرار بعض الناس في المواظبة علىٰ الأذان لسنين طويلة.

وهنا لدينا ثلاث درجات:

١- (**سلوك مادي**): وهو مَن يؤذن سعيًا للرزق المادي فقط.

٢- (**سلوك روحاني**): وهو مَن يؤذن وهو مستحضر للعبادة وللثواب.

٣- (**سلوك معنىٰ**): حينما رأىٰ أن طلوعه للمئذنة وإمساكه للميكروفون لإيقاظ الناس وتنبيههم للصلاة أنه شيء يُعطي لحياته معنىٰ.

المسلم: يرىٰ أن الحياة لأجل عبادة الله تستحق أن تُعاش، فبالنسبة له العبودية تعطي معنىٰ للحياة. ويجب ملاحظة (**العلاقة بين الغاية الكلية والغاية الجزئية**):

- أن يقوله أحدٌ وهو متحقق به.

- قوله علىٰ سبيل الشعار فقط وهو غير مُتحقق به.

وللوصول إلىٰ الشعور التام بهذا المعنىٰ إلىٰ المعايشة التامة لهذا المعنىٰ: تلك رحلة شخصية يمكن أن يصل لها البعض ولا يصل لها البعض الآخر.

- سواء كان مُتحقِّقًا أو غير مُتحقِّق: لا يمنع هذا من رؤية أن الحياة تستحق العيش لأجل أبنائه، لكن هذا في إطار الغاية الكلية، وكونه غاية كلية يختلف عن عدم كونه كذلك.

بمعنىٰ:

يوجد شخصان يرىٰ كل منهما أن الحياة تستحق أن تُعاش لأجل الأبناء، ثم إذا دُعيا إلىٰ الجهاد الواجب واستجاب أحدهما، فهذا يعني أن

الغاية الجزئية موضوعة بالفعل تحت مظلة الغاية الكلية، وأما الآخر الذي لم يستجب جُبنًا وخوفًا علىٰ أطفاله وخوفًا من الفقد فهذا يدعي أن شعار الغاية الكلية عنده تعلو جميع الغايات، لكن عندما حُقَّت الحقائق اكتشفنا أن الغاية الجزئية هي المسيطرة، وفي الحديث عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «الْوَلَدُ ثَمَرُ الْقَلْبِ، وَإِنَّهُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ»(١).

كذلك من يعتقد أن غايته الكبرىٰ هي السعي علىٰ أطفاله ومن ثَمَّ أكلَ الحرام ليوسع عليهم: هنا الغاية الجزئية هي المسيطرة، وأصبحت الغاية الكلية مجرد شعار.

إذن: الدين لا يمنعك من الغايات الجزئية لكن يجب وضعها تحت مظلة الغاية الكلية، وأن تكون الغاية الكلية هي المهيمنة والمسيطرة ومركز البوصلة.

بعكس بعض الاتجاهات الصوفية: التي تغلو في تجاهل الأولاد والأسرة؛ لأن الغاية الكلية عندهم أوصلته إلىٰ درجة الإنكار والخوف من الغايات الجزئية، وإلىٰ الرعب من التحدي الذي تُحدثه الغايات الجزئية.

مع مواصلة السير في هذه الرحلة -رحلة تغليب الغاية الجزئية تارة وتغليب الغاية الكلية تارة أخرىٰ- تجد أن هناك نوعًا من الذنوب يرتبط بانتصار الغايات الجزئية علىٰ الغايات الكلية. علىٰ سبيل المثال: إذا طلب منك أحدهم صدقة ورفضت ذلك لأنك تعتقد أن أولادك أولىٰ بها، وادّعيت أنك لا تملك المال، فهذا كذب، لكنه نتاج لهيمنة الغاية الجزئية.

---

(١) [ضعيف] «مسند أبي يعلىٰ» برقم (١٠٣٢). انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، للألباني، برقم (٤٧٦٤).

ومع المضي قدمًا في هذه الرحلة، تجد نفسك تصل إلىٰ حالة يصبح فيها حضور الغايات الجزئية أمرًا هامشيًا، وأخطاؤك لا تتعدىٰ الزلات العرضية، بينما الغالب عليك هو التحقق بأن الغاية الكلية هي التي تسيطر وتوجّه أفعالك وتفكيرك.

وخلاصة القول:

إن الممارسات الروحانية تحقق التجاوز من أجل الاتصال، سواء أكان هذا الاتصال بالله ﷻ أو كان بالعالم.

كما أن **قيمة الدين** تمنحك برنامجًا منظمًا لعملية تجاوز الذات من أجل التواصل مع الله ومع العالم.

وواحدة من الخصائص المشتركة بين الأديان -خاصة الأديان الإبراهيمية- تجعل التواصل مع العالم في سبيل الله؛ أي أنها تمنحك مفهومًا وأداةً لكي تمزج نوعي تجاوز الذات حتىٰ يكون كلاهما في الحقيقة اتصالًا بالله، حيث إن تلك الأديان لا تعزل الاتصال بالله عن الاتصال بالعالم، وتعتبر الاتصال بالعالم إن حدث بدون استحضار الاتصال بالله ليس له أجرًا في الآخرة عند الله، وتعتبره بأكمله أجرًا دنيويًّا مثل أن يُدفع عنك بعض البلاء وأن يُكتب لك بعض الخير الدنيوي.

علىٰ سبيل المثال: التغذية الصحية في مقابل كلمة الروحانية.

ما يميز دكتور التغذية أنه يأخذ عبارة «التغذية الصحية» ويحولها من مجرد شعار وعنوان إلىٰ برنامج يحتوي علىٰ العناصر والمكونات والإجراءات والخطوات العملية.

وكذلك مدرب «الجيم» يأخذ كلمة اللياقة البدنية والبناء العضلي ويحولها إلىٰ شبكة من الإجراءات والممارسات والبرامج التدريبية.

إذن، الدين يأخذ كلمة الروحانية التي تعبِّر عن تجاوز الذات لأجل الاتصال بالله وبالعالم ليمنحك شبكة من الإجراءات والممارسات، لكي تمارسها من أجل تحقيق هذا الاتصال.

وينتج عن ذلك في النهاية أن لدينا: (الدين - التدين).

فالدين: هو مصدر ومنهج رؤية العالم، يمنحك منطقة اعتقادية، ومنطقة للقيم والأخلاق، ومنطقة للسلوك والتشريعات والعبادات والطقوس، ويُعلمك أن هناك مصيرًا ستصل له في نهاية تلك **الرحلة**.

أما التدين: فهو الممارسة والتمثل التحقيقي السلوكي لما ذكره الدين، بأن تأخذ هذا البرنامج من أجل ممارسته وتطبيقه وتنفيذه، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحُلُمَ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطِهِ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ . . .»[(١)]، وهذه هي عملية التدين.

علىٰ سبيل المثال: كان النبي ﷺ تنزل عليه الآيات، فيُقْرِئها للصحابة عشر آيات لا يتجاوزها حتىٰ يأخذوا ما فيها من العلم والعمل، فعن أبي عبد الرحمن قال: **حدثنا من كان يُقرِئُنا من أصحاب النبي ﷺ: «أنَّهم كانوا يَقتَرِئونَ من رسولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آياتٍ، فلا يأخُذونَ في العَشْرِ الأُخرىٰ حتىٰ يَعلَموا ما في هذه منَ العِلمِ والعَمَلِ، قالوا: فتعلَّمْنا العِلمَ والعَمَلَ»**[(٢)].

فالعشر آيات التي نزلت من عند الله سبحانه هي الوحي والدين، أما ممارسة العلم والعمل لتلك الآيات التي قام بها الصحابة -رضوان الله

---

(١) [**صحيح**]: «معجم الطبراني الأوسط» برقم (٢٦٦٣). انظر: «صحيح الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (٢٣٢٨).

(٢) [إسناده حسن] «مسند أحمد» برقم (٢٣٤٨٢).

عليهم- هي عملية التدين، وأما الأشخاص الذين قاموا بهذه الممارسة فيُطلق عليهم المتدينون.

إذن، الدين يُقدم البرنامج العملي للممارسات الروحانية، **والتدين هو عملية تنفيذ هذا البرنامج**، والمتدين هو المنفِّذ لهذا البرنامج الذي يقوم بالممارسات الروحانية التي يقدمها برنامج الدين العملي.

فإذا جاء أحدهم ببرنامجٍ آخر يختلف عن البرنامج الذي يقدمه الدين، فلا يمكن القول بأنه من الدين، أو أنه فرع من فروعه، أو أن الدين أجازه.

مثال ذلك:

الموسيقىٰ، والصور، والتماثيل التي يحرمها الدين الإسلامي علىٰ قول الأئمة الأربعة، فأما **حرمة الخنزير**؛ لأنه بطبعه الخبيث يأكل روثه المختلط ببوله، إلىٰ جانب حمض البوليك المتراكم في لحمه بكميات كبيرة مما يضر بصحة الإنسان، وأما **الصور**؛ فهي ذريعة للشرك وعبادة غير الله تعالىٰ، وأما سبب **حرمة الموسيقىٰ**؛ فلأنها في الحقيقة مزاحِمة للقرآن إذا اعتاد الفرد سماعها.

كما أن الموسيقىٰ تعد أحد أساليب طوائف العبادات الشيطانية، ولذلك يحدث أحيانًا درجات من الهوس والمفارقة في بعض الحفلات الأجنبية. وبالطبع فإن حديثنا ليس عن السماع العادي، بل عن جعل السماع طريقًا روحانيًّا. أما عن قول الأئمة الأربعة بتحريم الاستماع العادي للموسيقىٰ سببه أنه ذريعة لاتخاذه عبادة. ولذلك يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن السماع الديني أعظم في الحُرمة من سماع الهوىٰ، لأن السماع الصوفي لم يُختلف في تحريمه، وممزوج فيه البدعة بالحرمة، علىٰ عكس سماع الهوىٰ المُختلف في تحريمه».

* وهذه الأمور الثلاثة - **الموسيقىٰ، والصور، والتماثيل** - في جانب آخر تعد ممارسة روحانية تعبدية في الدين المسيحي -كالترانيم مثلًا- التي تشبه الأناشيد لدىٰ الصوفية.

كذلك تعد **الصور والتماثيل** ممارسة روحانية عند المسيحية حيث يعتبر النظر لها والتأمل فيها ممارسة تعبدية لها أثر روحاني، يصل عظمتها لسفر أحدهم من أجل رؤية سقف كنيسة سيستين. فإذا مارس أحدهم هذا البرنامج الروحاني المرفوض من قِبل الدين؛ يعد بدعة، حيث إنه تعبد الله بما لم يشرعه الله.

هل سيجني منه تأثيرًا روحانيًّا؟

نعم سيجني منه تأثيرًا روحانيًّا، وهو ما أطلق عليه ابن القيم (عيش النفس) الذي تعتاش وتغتذي منه النفس، كأن يتناول لحم الخنزير، فإنه سيشبع ويحصل علىٰ عناصره الغذائية كالبروتين والمعادن والأحماض الأمينية، وإن كان هذا لا يحبه الله ولا يرضاه، فليس كل غذاء يُبيحه الله تعالىٰ.

إصلاح الإسلام لعيب الديانتَيْنِ المحرفتَيْنِ (اليهودية والمسيحية):
نلاحظ أن الديانتين اليهودية والمسيحية في شكلهما المُحرَّف متقابلتان:

فاليهودية: تركز تركيزًا كبيرًا وواسعًا جدًّا علىٰ الشعائر والطقوس والقوانين والنواميس، وكذا المحرمات التي لا يجوز فعلها؛ أي: التركيز علىٰ الشكل والإجراءات والعملية الطقسية بدون الغاية المُرادة منها، وهي الاتصال الروحاني بالله، ولذلك فإن الفكرة الأصلية لبعثة عيسىٰ عليه السلام أنه كان من أنبياء بني إسرائيل، فقال لهم: «إني لم آتِ لأُشرِّع».

أما المسيحية: فقد جاءت ضد الغلو في القوانين والطقوس والمحرمات والتشديدات التي جعلتها اليهودية معيار القرب إلىٰ الله.

ولذلك أصبحت المسيحية دينًا بغير طقوس؛ لإيغالها في الروحانية بغير إجراءات أو طقوس أو برامج محددة، وترتب علىٰ ذلك بدء عملية الابتداع لبرنامج جديد ومحاولة الزيادة عليه، فأصبح هذا الدين رافضًا للطقوس اليهودية بأكملها دون وجود طقوس بديلة لديه.

لذلك أصبح الإيغال في الروحانية وفي الأجزاء المتعلقة بتعظيم الاتصال بالله والروحانية والمحبة وابتداع الرهبانية أصل هذا الدين المسيحي.

الصوفية والفقهاء:

كذلك نظرة الصوفية والفقهاء بعضهم لبعض، مما يشبه المقابلة السابقة التي سردناها بين اليهودية والمسيحية.

نظرة الصوفية إلىٰ الفقهاء: بالنسبة للصوفية فإن نظرتهم إلىٰ الفقهاء أنهم يركزون علىٰ العلم المجرد بدراسة القواعد والحلال والحرم وما يهتم به الفقه الإسلامي، ولا ينفذون إلىٰ عمق هذه الأشياء من الاتصال بالله.

نظرة الفقهاء إلىٰ الصوفية: بالنسبة للفقهاء فإن نظرتهم إلىٰ الصوفية أنهم جردوا أنفسهم للحياة الروحية دون الاهتمام بالأمور التي يهتم بها الفقهاء، وذلك بجعل الحقيقة فوق الشريعة.

ولشيخ الإسلام تعبير جميل، في قوله: «الموسوية من أمتنا، والعيسوية من أمتنا».

● **سبل الإسلام في إصلاح الديانتين (اليهودية والمسيحية):**

إن الإسلام في صورته المحفوظة الأولىٰ أتىٰ ليُصلح عيب الدينَينِ المُحرّفَيْنِ، فهناك برنامج عمليٌّ متكامل ومنظومة فقهية قوية متماسكة، وفي نفس الوقت، لا بد أن تفعل ذلك وتمارس هذه التشريعات جميعًا بإحسانٍ، وهذا الجزء الروحاني الاتصالي.

فجاء الدين الإسلامي متكاملًا بكلا الجانبين: الجانب التشريعي والفقهي - وجانب الإحسان باتخاذ العبد كل سبل الارتقاء للوصول إلىٰ الله تعالىٰ.

ولقد شبَّه شيخ الإسلام ابن تيمية الذين ركزوا علىٰ جانب القوانين والتشريعات باليهود، كما شبه الذين ركزا علىٰ الجانب الروحاني والاتصال بالنصارىٰ، حيث قال: «إِنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا الشِّدَّةُ، وَشَرِيعَةَ الْإِنْجِيلِ يَغْلِبُ عَلَيْهَا اللِّينُ، وَشَرِيعَةَ الْقُرْآنِ مُعْتَدِلَةٌ جَامِعَةٌ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»[(١)].

إذن، الفرق بين النزعتين عند (اليهودية ويشبهها الفقهاء) و(المسيحية ويشبهها الصوفية) تلك النزعتين: النزعة المغالية في الحرفية القانونية الطقسية في مقابل النزعة المغالية في الجوانب الروحانية القلبية المنحلة عن الطقوس، ويربط جميع تلك الأجزاء ببعضها. أما الدين الحق والتام والكامل والخاتم فهو متوازٍ بين هذه النزعات جميعًا.

ومع هذا فإن الإنسان مهيئٌ فطريًّا لقبول التدين، ومثال هذا ما كان

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، (٥/ ٧٩).

عليه أبو بكر قبل بعثة النبي محمد ﷺ حيث إنه كان طيبًا صالحًا وقد اعتمد هذا علىٰ ركائز ومكونات تلقاها من مجتمعه الذي عاش فيه.

أما التركيز علىٰ ظواهر العبادات بغير اهتمام بالتأثيرات الروحانية والاتصال بالله والرحمة بالخلق والعدل مع الناس والإحسان إليهم فهي موسوية.

ما ينبغي علىٰ المرء القيام به كيلا يتحول إلىٰ نسخة موسوية؟

هذا الأمر من الصعوبة بمكان، ولذلك فإن الإجابة العملية لدىٰ الصوفية المعتدلة المعترفين بأهمية الشرائع والعبادات علىٰ هذا السؤال بأنهم يقومون ببرنامج إضافي وكأن البرنامج الديني لا يكفي لتحقيق الروحانية تلك، ولذلك قالوا: لا بد أن يكون للخواص أورادًا وأفعالًا خاصة موازية له.

* أما الادعاء الذي نقوله بأن نفس البرنامج الشرعي الذي أتىٰ به الوحي يمكن للفرد ممارسته بإحسان، وهذه هي فكرة الإسلام؛ أنك ستمارس هذا البرنامج بإحسان دون الحاجة لبرامج أخرىٰ.

ولهذا فإن الثغرة الموجودة في الممارسة الروحانية لديهم؛ أن هذا البرنامج يُمارس بغير إحسان؛ حيث إنهم يجعلون علامة الممارسة بإحسان هي وجود مشاعر الحميمية والقرب والرقة، وإنما كل ذلك يعد من الثمرات المُعجلة للعبادة وليست هي الممارسة بإحسان، ولذلك حدث الخلط عندهم.

ما ينبغي علىٰ المرء القيام به لكي تكون الممارسة بإحسان؟

لكي تكون الممارسة بإحسان ومحققة للاتصال، فنحن بحاجة إلىٰ التركيز علىٰ عدة سمات ومهارات تكون حاضرة أثناء ممارستنا لبرنامج

الوحي، وذلك بالمزج بين الأمرين؛ أي أن تكون ممارستك للبرنامج بجميع محاوره بطريقة تحقق غايتك.

علىٰ سبيل المثال: من غير الممكن أن نمارس العبادة، سواء كانت الذكر أو الصلاة أو الصوم أو الصدقة، وهذه هي الإجراءات والسلوكيات، دون اللجوء إلىٰ الأدوات والمهارات التي تجعل هذه الإجراءات تُحقق غاية الاتصال وتؤتي ثمارها، فتلك المهارات تتكون من:

- **الأفعال**: وهي الخطوات الإيجابية التي تمارسها لكي يؤتي البرنامج ثماره ويُحقق الصلة.

- **المتروكات**[1]: حيث إن هناك أمورًا لا يمكنك ممارستها بالتوازي أو بالتقاطع مع البرنامج؛ أي: أن البرنامج يحتوي علىٰ بعض الأمور يجب تركها والتخلي عنها.

الأدوات -المهارة- التي تُمارس لأجل الوصول بالعبادات إلىٰ غاية الإحسان وتحقيق الصلة بالله تعالىٰ:

المهارة الأولىٰ: التعمّد: ويدخل فيه: التخطيط، وتخصيص الوقت، وذلك لاكتساب شعب الإيمان.

وهذا يعني: أن تُخطط للبرنامج الخاص بك، بتحقيق الصلة، مُستحضرًا العلاقة ما بين الإجراء وما بين غاية الإجراء.

ومن الجدير بالذكر أن واحدة من أهم الأشياء التي تعوقك عن تحصيل الثمرات أنك غير مستحضرٍ أن هذا الشيء ثمرة ووسيلة لذلك الشيء.

---

(١) سيأتي بيانها في «علل التدين».

فالمشكلة تكمن في وجود شبكة واسعة جدًّا من الإجراءات لا تخطيط ولا تخصيص وقت لها، مثل:

الخوف من الله تعالىٰ، ومحبته، والرجاء فيه، والتوكل عليه، وكذا الصبر، والرضا بالقضاء، ومحبة النبي ﷺ، وكذا الحب في الله والبغض في الله، وتعظيم الله وأوامره، وحفظ حدوده، وسلامة الصدر، وحسن الخلق، والرحمة، والتواضع، والرفق، والحياء، والعفاف، وحسن العهد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان بين الزوجين، والعناية بتربية الأبناء، وطلب العلم، وتعليم الناس، وإطعام الطعام، وإكرام الضيف، والزيارة في الله، وتوقير الكبير، والإحسان إلىٰ المستضعفين، وذكر الله، والدعاء، والاستغفار، والصلاة علىٰ النبي، والإصلاح بين الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والهجرة والفرار من الفتن، وأداء الأمانة، وحفظ اللسان، وإفشاء السلام، وعيادة المريض، والصلاة علىٰ الميت واتباع الجنازة، وإقراض ذي الحاجة، والوفاء بالقرض، والذبح، وحفظ الأيمان، وكتابة الوصية، وإماطة الأذىٰ عن الطريق . . . إلخ.

بالنسبة للصوفية، فقد قدّموا حلًّا لهذه العملية التنظيمية، وهي أن يُنظم الشيخ للمريد ويُخطط له ويوجهه ويُشرف عليه، وتستمر علاقة المُريد بالشيخ لمدة عشرين سنة، والتي تشبه في وقتنا المعاصر علاقة المُرشد أكثر منها علاقة بالمُعلم.

أما بالنسبة لنا، فنحن بحاجة لتعلم هذه الشبكة من الإجراءات غير المُخططة وغير المُخصصة.

إن سبب عدم قيام الشريعة بمثل هذا التخطيط وتخصيص الوقت لمثل هذه الإجراءات: هو ترك مساحة للتفرُّد والتميُّز الشخصي والعمل والاجتهاد

الشخصي، وحتىٰ نشعر بوجود مكون شخصي في العلاقة بينك وبين الله تعالىٰ. وهو ما يُعادل لغات الحب عند الحديث عن العلاقات، حيث يتميز كل فرد بلغة حب خاصة.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن تَبِعَ منكم اليوم جِنازَةً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا، فقال ﷺ: ما اجتمعْنَ في امرئ إلا دخل الجنَّة**»[1].

في الحديث دلالة علىٰ أن النبي ﷺ لم يكن معتادًا علىٰ التخطيط للبرنامج الذي يمارسه الصحابة -رضوان الله عليهم-، وهذه من أهم المشكلات في فلسفة الشيخ والمُريد، فالشريعة لم تقم بهذه الآلية، بل تركت المساحة للعمل الشخصي والصناعة الشخصية والعلاقة الشخصية، وللنسخة الخاصة بكل فرد، وهذا من ناحيتين: من ناحية الإطاقة، ومن ناحية أن الناس ليسوا سواءً في إقبالهم علىٰ أنواع الطاعات.

وبعض شعب الإيمان التي يمارسها العبد أو المريد بحسب استطاعته قد يشعر بوجود التلامس بينه وبينها وأنها من نقاط القوة بالنسبة له، وأنه يستطيع القيام بها علىٰ أحسن وجه، فتكون له كالصدقة لعثمان، أو كالعلم بالحلال والحرام لمعاذ، أو كالعلم بالمواريث لزيد بن ثابت، أو كالعلم بالقرآن وجمعه لزيد بن ثابت، أو كالحكم والعدل لعمر، أو كجمع الحديث لأبي هريرة؛ أي تتحول الطاعة إلىٰ سجية لا تكاد تنفك عنه.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٢٨).

المهارة الأولىٰ: الوقت

إن الخطوة الأولىٰ للوصول بالبرنامج إلىٰ غايته تكمن في تخصيص الوقت ووضع خطة مدروسة لتحقيق نصيب من شُعب الإيمان؛ لذا، ينبغي أن ألتزم بتخصيص الوقت اللازم وأخطط بعناية للاستفادة من هذا البرنامج، حتىٰ أتمكن من الشعور بالتفاعل الحقيقي مع أهدافه من خلال ممارسة أعماله وتطبيقها عمليًّا في حياتي.

المهارة الثانية: الحضور

تعني: عدم الغفلة خلال ممارسة هذه الشُعب الإيمانية؛ لأنك إن فعلت فلن تُحقق غاية التواصل والاتصال والإحسان، وهي: أن تعبد الله كأنك تراه.

ومثال ذلك: كالتخلي والانقطاع من أمور الدنيا عند تكبيرة الإحرام، وشعورك أنك تقف بين يدي الله ﷻ.

ومع ذلك، فإن غفلة المرء عن حضور القلب أثناء ممارسة هذه العبادات لا تعني حرمانه من الأجر، ولكن من المهم أن يُرافق التخطيط والتخصيص حرصٌ علىٰ أداء هذه الأعمال بأقصىٰ درجة ممكنة من حضور القلب.

وإياك أن تصل بك الغفلة إلىٰ درجة كأنك لم تفعل العبادة من الأساس، كما ورد في الحديث عن أبي هريرة: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ وَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ. فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ. ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ

بِالْحَقِّ، مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي، فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّىٰ تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا.»(١)

أو أن يكون حالك في الصلاة كحال المنافق الذي يرقب الشمس حتىٰ يصلي، ففي الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن؛ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ، حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الظُّهْرِ، وَدَارُهُ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ: أَصَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ؟ فَقُلْنَا لَهُ إِنَّمَا انْصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنَ الظُّهْرِ، قَالَ: فَصَلُّوا الْعَصْرَ. فَقُمْنَا فَصَلَّيْنَا، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إلا قليلا»(٢).

وقد ذُكر في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهْوَ فِي الصَّلَاةِ، فَيَرُدُّ عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ سَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا، وَقَالَ: إِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغْلًا»(٣).

إذن، فالأداة الثانية التي تجعل عناصر البرنامج المكونة من العبادات والإجراءات تُحقق الغاية هي **الحضور والتخلي والانقطاع**، والانخلاع من العالم، فيتجاوز الفرد ذاته والعالم من أجل الاتصال بالله سبحانه «**إِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغْلًا**».

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٥٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٦٢٢).

(٣) [**متفق عليه**]: «صحيح البخاري» برقم (١١٩٩)، و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٨).

وهذا الحضور لن يتحقق إلا بتخصيص الوقت وتعمد الحضور والتهيؤ لفعل العبادة والتفكير فيها وفي تجويدها وإحسانها.

ففي الحديث عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّىٰ قَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ. قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

فهذه الأحاديث فيها دلالة علىٰ أنه لا بد للعبد من التهيؤ وحضور القلب، وليس الإسراع في الذهاب للصلاة وأدائها علىٰ عجلٍ من أجل العودة للانغماس في الحياة الدنيا مرة أخرىٰ.

في الحقيقة، فإن التخلي عن الذات والعالم يحدث بشكلٍ تعبدي، فعلىٰ سبيل المثال:

- يجلس الأب ليتناول الطعام مع أبنائه منشغلًا في هاتفه أو في عمله وليس حاضرًا معهم، علىٰ الرغم من أن وقت الطعام هو (موسيقىٰ العلاقات)، فيتحول الاجتماع علىٰ الطعام إلىٰ طقسٍ مُعتاد بعدما كان أداة لترسيخ وتقوية وتوطيد العلاقة.

بعكس ما نراه في سيرة النبي ﷺ: حيث إن علاقات النبي ﷺ توضح لنا شدة درجة القرب والحميمية في العلاقة، ومدىٰ حضور الذهن والقلب في أبسط تفاصيلها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَىٰ مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَىٰ مَوْضِعِ فِيَّ»(٢).

---

(١) [متفق عليه]: «صحيح البخاري» برقم (٦٣٥)، و«صحيح مسلم» برقم (٦٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٠٠).

ما قام به النبي ﷺ إنما هو فعلُ حبٍّ واتصالٍ وليس فِعلًا ماديًّا لغرض سدِّ الحاجة المادية إلىٰ الطعام والشراب، حيث إنه تعمّد الشرب من نفس الموضع الذي شربت منه علىٰ الرغم من إمكانية ممارسة فِعل الإرواء دون اللجوء لذلك.

ينطبق ما ذكرناه في تلك الأمثلة النبوية علىٰ الاتصال بالمولىٰ تبارك وتعالىٰ:

يجب أن تكون حاضر الذهن والقلب، إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فأنت كأنما تسمع قول الله سبحانه: حمدني عبدي. وإذا قلت: الرحمن الرحيم، فكأنما تسمع قول الله سبحانه: أثنىٰ عليّ عبدي.

إن جميع تلك الأدوات مرتبطة ببعضها البعض، فعلىٰ سبيل المثال: أثناء ذهابي إلىٰ العمل إذا مررت علىٰ رجلٍ فقير أتصدق عليه مُستحضرًا أنها تقع في يد الله تعالىٰ، كأنما أنخلع من مالي ومن حظ نفسي وهواها لكي أتصل بالله. بذلك أكون قد تعمدت ممارسة هذا الفعل التعبدي وخصصت له وقتًا وفعلته وأنا حاضر القلب.

المهارة الثالثة: البطء

ويعني: تهدئة الإيقاع. فإذا رغبت في ملاحظة تفاصيل إحدىٰ المباريات سوف تعرضها عرضًا بطيئًا.

إن البطء هو أعظم معينات الحضور، وتعد الحياة العاجلة السريعة التي نعيشها واحدة من أهم معوقات الحضور علىٰ الإطلاق.

وهذا الأمر يظهر بوضوح وجلاء في حديث ابن عباس، «في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من

التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه له في صدرك وتقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال فاستمع له وأنصت: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه»(١).

علىٰ سبيل المثال: يتجه الفرد منا إلىٰ الاستماع إلىٰ القرآن مرتلًا أو مجودًا رغبةً في التدبر؛ خلافًا للقراءة حدرًا لمراجعة الحفظ. قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]

وإليك ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن صلاة النبي ﷺ في الليل، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن: «أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رضي الله عنها: كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ فَقَالَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»(٢).

هناك كذلك بعض الأوقات التي تُصلي فيها مع الإكثار من السجود فعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال:

---

(١) [متفق عليه]: «صحيح البخاري» برقم (٥)، و«صحيح مسلم» برقم (٤٤٨).

(٢) [متفق عليه]: «صحيح البخاري» برقم (١١٤٧)، و«صحيح مسلم» برقم (٧٣٨).

«كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي «سل» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال «فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»[١].

فمن أفضل الصلوات التي تُصليها هي تلك التي تُعطيها حقها من السجود والركوع والدعاء مع حسن تدبر!

تستعين علىٰ هذا بمهارة التخطيط وتخصيص الوقت، فعندما تقوم ببناء خطتك الروحانية ستصلي بالطريقة المعتادة، وتخصص فقط ركعة الوِتر أو أول ركعة في صلاة الفجر لتحقق فيها الهدوء والخشوع والتدبر بأي قدر من القرآن سواء أكانت سورة طويلة كانت أو قصيرة.

المهارة الرابعة: الكثافة/ العمق

متعلقة بتعمُّقي داخل الفعل، متعلقة بالمسار الرأسي، ومتعلقة بدرجة يقظتي وتأملي وبصيرتي وتدبري أثناء الفعل.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: «**صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا، قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ**»[٢].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٨٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٢).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «**صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَطَالَ حَتَّىٰ هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قَالَ: قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ**»(١)..

يتضح من الوصف السابق لصلاة النبي ﷺ أنها طويلة وغير مُتعجِّلة، شملت علىٰ حسن الأداة وتهدئة الإيقاع.

أما ما يدل علىٰ وجود الكثافة والعمق في صلاة النبي ﷺ، ما ذُكر في الحديث: عن أبي ذر قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا» وَالْآيَةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المَائِدَة: ١١٨](٢)

فلم يُذكر هنا طول الصلاة، لكنه قام بهذه الآية وحدها، مما يدل علىٰ تعميق النظر في الآية، والتدبر والتفكر فيها.

يتضح مما ذكرناه الفرق بين البطء وبين العمق والكثافة:

البطء: هو أن تقرأ جزءًا من القرآن بأهدأ إيقاعٍ ممكن.

العمق: هو أن تُعمق تدبرك وتفكرك في هذا الجزء أو في ربعٍ واحدٍ منه.

وهناك تقسيمة لأوراد قراءة القرآن: وردٌ للتلاوة (قراءة جزئين أو ثلاثة من القرآن)، ووردٌ للتدبر (قراءة ربع واحد فقط بتدبر وفهم لمعانيه ومطالعة لشيء من تفسيره).

إذن، **فإن العمق متعلق بالكيفية**، وبتكثيف التأمل والنظر في العبادة التي تُمارسها، أما **البطء فمتعلق بزمن العبادة.**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٣).

(٢) [**صحيح**]: «سنن ابن ماجه» برقم (١٣٥٠)، و«صحيح ابن خزيمة» برقم (١٢١).

علىٰ سبيل المثال:

قد نعامل أناسًا في العمل أو السوق لعدة سنوات، ولا نعرف أسماءهم، في هذه الحالة لا يوجد تعميق للعلاقة.

إن من فوائد العلوم الإنسانية والاجتماعية أنها توضح لك انعكاسات الحياة الكبيرة علىٰ الحياة الصغيرة الخاصة بك. كتب أحد علماء الاجتماع كتابًا يُسمىٰ: «اللا أمكنة»، يقول فيه: أن من سمات حياة ما بعد الحداثة التي نعيشها حاليًا أن الأمكنة أُزيلت عنها صفة المكانية، وأن حياة ما بعد الحداثة أفقدتنا هذه الصلة العميقة بالأماكن.

إذن، فالعمق وتكثيف الاتصال بالممارسات التعبدية التي يقوم بها الفرد يعد من أهم ما يُعمق مسألة الخروج من العبادة إلىٰ منزلة الإحسان والاتصال بالله، مثل: طول التأمل في القرآن الذي تقرأه أو الذكر الذي تتعبد به.

كذلك مسألة الذكر، فمثلًا أذكار الصباح والمساء ليست كما نعتقد أنها مجرد قول جميعها من الكتب، كما أن النبي ﷺ لم يصح عنه أن ينتهي من جميع الأذكار في جلسة واحدة.

فالممارسة الصحيحة تكمن في تعميق النظر في هذه الأذكار، والأفضل فيها هو التنويع بينها حتىٰ تتأمل فيهم.

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية عن أدعية استفتاح الصلاة قائلًا إنه من المستحب أن ينوع العبد بين هذه الاستفتاحات حتىٰ يُحصل الاستفادة في أمرين:

الأول: هو حضور القلب، لأنك عندما تعتاد ذكرًا أو دعاءً معينًا تبدأ

في قوله بقلبٍ غافلٍ وبشكلٍ اعتيادي روتيني، أما التنويع والتجديد يجعل القلب حاضرًا.

الثاني: ألا تهجر شيئًا من كلام النبي ﷺ وأذكاره، فإنك إن داومت علىٰ ذكرٍ واحد فقط فأنت تهجر الأخرىٰ[(١)].

ومن فوائد التنويع بين الأذكار ألا يكون بداخلك هاجس عن وجوب قراءتها كاملةً كل يوم، فإذا خصصت ربع ساعة من صباح كل يوم لأذكار الصباح فلا تقرأ فيها عشرين ذكرًا، بل اكتفي بذكرين أو ثلاثة وكرر ترديدهم بتأملٍ وهدوءٍ مع قراءة شرحهم، حتىٰ تُعمق الصلة بهذه الأذكار.

المهارة الخامسة: الإدامة/ المداومة/ الاستدامة

وتعني: أن تُديم الطاعة. فتحقق البطء مع الكثافة مرة واحدة أو من خلال الفعل المنقطع (مثل شهر رمضان، أو في صلاة واحدة) هذا لن يصل بنا إلىٰ أي نتيجة.

وأما ما يجب فعله من أجل تحصيل ثمرة العبادة، هو ممارسة البطء مع الكثافة في الفعل الروحاني، والعمل علىٰ استدامته.

ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ «كان يحتجر حصيرًا بالليل فيصلي، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلىٰ النبي ﷺ فيصلون بصلاته حتىٰ كثروا، فأقبل فقال: يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا، **وإن أحب الأعمال إلىٰ الله ما دام وإن قلَّ**»[(٢)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٢/ ٣٤٢).

(٢) [متفق عليه]: «صحيح البخاري» برقم (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»(١).

وعن علقمة: «قلت لعائشة ﵂: هل كان رسول الله ﷺ يختص من الأيام شيئا؟ قالت: لا، **كان عمله ديمة**، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق»(٢).

وعن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ لِلهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَىٰ كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**»(٣).

فإذا جاهد المرء علىٰ إدراك تكبيرة الإحرام في الصلوات الخمس لمدة أربعين يومًا فلا يتصور أن يكون منافقًا.

عند الحديث عن الإدامة في الأمور النفسية والسلوكية والتطوير والمهارات الحياتية، فما يُعادلها هو: بناء العادات.

فعليك أن تُقلل الكم، وأن تفعله ببطء، وأن تعمق الصلة به، واجعله منتظمًا دائمًا. أي أن تجعلها عادات بالمعنىٰ الإيجابي لها.

يتضح مما ذكرناه أن الاستدامة علىٰ الأعمال فعلٌ عظيم القدر في تحقيق الصلة بالله ﷻ، ولذلك جعل المولىٰ -تبارك وتعالىٰ- للصلوات الخمس برنامجًا تِكراريًّا حتىٰ نأخذها كنموذجٍ لشعب إيمانية أخرىٰ.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٥٢).

(٢) [**متفق عليه**]: «صحيح البخاري» برقم (١٩٨٧)، و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٣).

(٣) [**صحيح**]: «سنن الترمذي» برقم (٢٤١). انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني، برقم (١٩٧٩).

فالله ﷻ حتىٰ لا يشق عليك، ولا يُكلفك ما لا تُطيق، وحتىٰ يترك مساحة للسعي للتفرد والنسخة الشخصية، لم يُجهز لك برنامجًا تكراريًّا لكل شعب الإيمان، بل ترك لك التخطيط لهذا البرنامج التكراري الخاص بك، وترك لك حرية الاختيار من بين الشعب الإيمانية التي ستطبقه عليها. بالطبع لن يتم التطبيق علىٰ كافة الشُّعب الإيمانية التي ذكرناها، بل يتم الاختيار من بينها بعد التجربة لفترة من الوقت أشدها تلامسًا مع نفسه وشعورًا بتحقيق الصلة. مثل: اتخاذ قرار التصدق كل يومٍ أو مرة في الأسبوع أو مرة كل الشهر، تخصيص وردٍ ثابت واعتيادي من القرآن لا أنقص عنه.

فلو أن المرء بفعل الأمر بحب فهو في تلك الحالة بحاجة لممارسته معه بشكل منتظم ومعتاد ومُستدام.

فمثلًا، إذا لم يُفتح للعبد في عبادة الصيام فليس معناه أن يهجرها تمامًا أو أن يقتصر علىٰ صيام شهر رمضان، بل يمكنه أن يُداوم علىٰ القليل منه، مثل: التسع من ذي الحجة، الست من شوال، يوم عاشوراء، يوم عرفة، الأيام البيض من كل شهر. بجانب تركيزه علىٰ العبادات التي فتح الله له فيها وتوجيه أغلب طاقته لها.

قيل لعبد الله بن مسعود ﷺ: «**إِنَّكَ تُقِلُّ الصَّوْمَ، فَقَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي إِذَا صُمْتُ ضَعُفْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصَّوْمِ**»[١]

وهذا المعنىٰ مُلاحظ في الشريعة، ولذلك يُكره للواقف بعرفة أن يصوم ليتقوىٰ علىٰ اليوم.

---

(١) «معجم الطبراني الكبير» برقم (٨٨٧٢).

الخلاصة: إن مزج البرنامج التكراري والعادة والاستدامة مع العناصر السابق ذكرها يساعد علىٰ تحويل العبادة إلىٰ تحقيق الصلة ومنزلة الإحسان.

المهارة السادسة: التوقف/ الراحة/ الإجمام

وتعني: ألا تظن أن العمل والتقرب لله لا يكون إلا بأن تكون دائمَ العمل والانشغال. ففي الحديث محمد بن المنكدر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَىٰ نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَىٰ**»(١).

ففي كثير من الأحيان قد يحدث الفتور بسبب التقصير في الإجمام.

ولذلك، حُرِّم الصيام في أيام العيد، ونُهي عن صوم الدهر أو إفراد يوم الجمعة للصيام، هذا دليل علىٰ أن الله سبحانه يمنحنا نموذجًا للراحة والتوقف من أجل أن نقيس عليه بقية حياتنا، حيث إن كل فرد منَّا له طبيعة ونظام ومكونات الإجمام التي تناسبه.

لا بد أن تعرف أن جزءًا أساسيًّا من البناء الروحي والوصول بالعبادة إلىٰ تحقيق الصِّلة هو الإجمام، والتوسعة علىٰ النفس، واحتساب النومة كما تُحتسب القومة، والعناية بالذات.

من أمثلة ذلك في السيرة النبوية:

كان النبي ﷺ يُسابق السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد قَالَت: «سابقني النَّبِي ﷺ فسبقته، فلبثنا حَتَّىٰ إِذا أرهقني اللَّحْم سابقني فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «**هَذِه بِتِلْكَ**»(٢)

---

(١) [ضعيف]: «سنن البيهقي الكبرىٰ» برقم (٤٧٤٣). انظر: «ضعيف الجامع الصغير وزياداته»، للألباني، برقم (٢٠٢٢).

(٢) [**صحيح**]: «سنن أبي داود» برقم (١٩٧٩). انظر: «إرواء الغليل»، للألباني، برقم (١٥٠٢).

وعنها -أيضًا- قالت: «كان الحبش يلعبون بحرابهم، فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتىٰ كنت أنا أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو»[(١)].

وكان يُجالس أصحابه فيتسامرون ويتضاحكون، وكان صحابة النبي -رضوان الله عليهم- يتبادحون بالبطيخ، فعن بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، يَتَبَادَحُونَ بالبِّطِيخ، فإِذا كَانَت الحَقَائِقُ كَانُوا هُمُ الرِّجَالُ[(٢)].

إذن، من المهم جدًّا أن تُخطط للإجمام والتوقف والاستراحة وترك العمل، وأن تُخصص له الوقت، كقيامك بالتخطيط والتخصيص لبقية شؤون حياتك وعباداتك، حتىٰ لا تقع في خطورة الإسراف في العمل دون توقف، التي تجعل الإنسان يقطع ظهره ويؤذي نفسه ودابته.

ختامًا:

إن تخصيص الوقت، والحضور، والبطء، والكثافة، والاستدامة، والتوقف: لا تستطيع أن تُمارس هذه المهارات بكفاءة ما لم تمزجها بمختلف الحقول الحياتية، لن تستطيع ممارستها بشكلٍ اجتزائيٍّ مقتصرٍ علىٰ العبادات وحدها، بل يتوجب عليك بناؤها كعادات سلوكية في مختلف تفاصيل حياتك اليومية حتىٰ تؤتي ثمرتها في العبادات؛ أي: أن تتحول إلىٰ منهجٍ لحياة بأكملها، سواء في علاقتك مع زوجتك أو أبنائك أو أصدقائك

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥١٩٠).

(٢) [**صحيح**]: «الأدب المفرد» برقم (٢٦٦)، و«سنن الترمذي» برقم (١٩٩٠). انظر: «صحيح الأدب المفرد»، للألباني، برقم (٢٠١).

أو علىٰ وسائل التواصل الاجتماعي، وغيرها من مختلف المجالات. بالطبع مع وجود مساحة للعفوية ولعدم الحضور.

فالحضور اليومي يُدرب علىٰ الحضور في العبادات. والبطء اليومي يُدرب علىٰ البطء في العبادات. والتعميق والتكثيف اليومي يُدرب علىٰ تحقيقه في العبادات. وهكذا.

علىٰ سبيل المثال:

- يتوجب عليك في بعض المرات أن تتناول طعامك ببطء وأنت حاضرَ الذهن، فمن غير الممكن أن تتناول الطعام مُسرعًا بدون مضغٍ جيدٍ له ثم تتجه لتحقيق البطء والأناة في الصلاة؛ لأنها في الأصل عادات متعلقة بالبنية الذهنية والنفسية.

- تعمد أن تسأل البائع عن اسمه أثناء شرائك منه حتىٰ تُعمق التواصل في ممارساتك الحياتية، والذي سيساهم في تحققه في العبادات.

- درِّب نفسك علىٰ استحضار معنىٰ قول (السلام عليكم) في نفسك عند إلقائك السلام علىٰ أحد المارين، والتي تعني: أسأل الله أن يُحلَّ عليك بركاته ورحمته وسلامه.

- يمكن للمرء أن يُدرِّب نفسه علىٰ تحقيق درجة من الحضور أثناء التمرين الرياضي بتخيل شكل العضلة وهي تتحرك، دون الانشغال بالاستماع لشيء ما أثناء التدريب.

- يمكنك أن تخصص إفطار يومٍ ما لتحقيق البطء والأناة فيه، وأن تُخطط له مسبقًا.

- كما أن المختصين التربويين ينصحون الأهل بتخصيص وقتٍ خاص

لكل ابن علىٰ حدة بجانب الوقت الذي يقضونه معهم جميعًا، لأجل تعميق الصلة بينهم وبينه بشكل شخصي.

إذن، ينبغي لنا أن نعمل علىٰ تفعيل هذه المهارات في شتىٰ جوانب حياتنا اليومية بقدر معين، مع التخطيط لهذا القدر بعناية. فهي تقنيات تهدف إلىٰ تحقيق أقصىٰ فائدة ممكنة من أي تصرف حياتي، وليس مقتصرة علىٰ العبادات فحسب.

علل التدين

لقد أشرنا إلىٰ أن الدين يقدم خارطة طريق ترضي الله -تبارك وتعالىٰ-، تهدف إلىٰ تحقيق الاتصال بالخالق ﷻ وتعزيز الممارسات الروحانية.

هذا البرنامج وهذه الخارطة العملية التي تهدف إلىٰ التواصل مع الله -تبارك وتعالىٰ- وتعزيز الروحانية والصلة به، تأتي بتفصيل دقيق. فهي تُجنب الإنسان الاعتماد علىٰ أهوائه الشخصية أو اقتراحاته الذاتية في تحديد سبل تحقيق هذه الصلة. ذلك لأن لديه مرجعًا إلهيًّا موثوقًا يمثل البرنامج العملي الذي ينبغي أن يسير عليه للوصول إلىٰ هذا الهدف.

المشكلة تظهر عندما يكون الإنسان متدينًا وممارسًا لهذا البرنامج العملي، ولكنه في الواقع لا يحقق الصلة الحقيقية مع الله -تبارك وتعالىٰ-؛ بمعنىٰ أن الوسائل، كالأعمال والعبادات، لا تؤدي إلىٰ الغاية المرجوة، وهي التواصل مع الله. فعلىٰ سبيل المثال، قد لا تحقق الصلاة أثرها الحقيقي إذا لم تكن ناهية عن الفحشاء والمنكر.

وإن ضابط هذا الأمر ليس شرطًا أن يكون ملموسًا، فهو ليس مرتبطًا بشعور المرء بمشاعر نفسية معينة من عدمه، الفكرة تكمن في كون الدين والتدين غير مُحقق للصلة بالمولىٰ تبارك وتعالىٰ.

بمعنىٰ أن هناك حالات يكون فيها التدين غير محقق للصلة، والتي أطلقنا عليها: علل التدين.

المقصود بعلل التدين

أوجه الخلل التي تدخل علىٰ التدين وعلىٰ الممارسات الروحانية الدينية فتحول دون تحقيق هذه الأفعال للغايات المرجوّة منها.

وهي المشكلات التي تعوق التدين والممارسات الروحانية عن القيام بدوره في الحصول علىٰ روحانية سليمة وناضجة.

إن التدين هو قائمة الغذاء التي تحقق الروحانية، فيأخذ الفرد هذا الغذاء، ومع ذلك لا يُحقق فِعل وعملية التغذي؛ وهي الوصول إلىٰ روحانية سليمة.

خُصِّص الكلام هنا عن المتدينين دون غيرهم؛ لأنهم المختصون بنقل الدين؛ وبالتالي فالمشكلة في ظهور علل التدين لديهم تكون أكبر من غيرهم. ومن العبارات الدالة علىٰ ذلك في الكتاب المقدس: «يا ملح الأرض من يُصلح الملح إذا الملح فسد»، وقد تتابعت هذه العبارة بعد ذلك عند السلف، وشملتها أقوال الإمام الغزالي.

فعلىٰ سبيل المثال: خصّ الله تبارك وتعالىٰ أمهات المؤمنين بالتنبيه علىٰ أمورٍ في قوله: «**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ**»، إن القصد منها هو مخاطبة بقية النساء العالم، لكن توجيه الخطاب لهن تحديدًا لأنهن زوجات النبي ﷺ «**لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ**».

كذلك، تخصيص الأطباء بالكلام عن أخلاقيات الأطباء؛ لعظم المسئولية المترتبة علىٰ إخلالهم بهذه الأخلاقيات، مقارنة بمسئولية عامة المجتمع، مثل: إفشاء السر أو التأخر عن تقديم المساعدة في الوقت المناسب.

أنواع علل التدين

ذكرنا في العلاقة بين التدين والروحانية أن التدين يعد قائمة من الغذاء، فمتىٰ لا يتحول التدين إلىٰ روحانية؟ بمعنىٰ متىٰ لا يكون الغذاءُ غذاءً؟ ما هي العلامات التي تجعلني أشعر بأن هذا التدين لا يقوم بدوره في الوصول إلىٰ روحانية سليمة؟

يمكن القول بأن التدين في هذه الحالة هو مجرد إجراءات لا توصل الفرد إلىٰ الروحانية السليمة من خلال مجموعة من العلامات، وهي:

العلة الأولىٰ: التدين الاستعمالي/ استعمال الدين

أن يكون الدين مُستعملًا ومُوظفًا لأجل غاياتٍ أخرىٰ، وتصبح غاية الدين الأصلية التي شُرع لأجلها (وهي غاية الاتصال بالله) غير مقصودة، فيُمارس الفرد الأفعال لا لأجل الاتصال بالله، وإنما لأجل غاياتٍ أخرىٰ.

ومن أمثلة كون التدين والدين موظفين ومستعملين، وغير مقصودين لذاتهم أو لتحقيق الاتصال:

١- أن يكون التدين أداة لإشباع النفس، وليس أداةً للوصول إلىٰ الله تبارك تعالىٰ.

وهنا لا نقصد أن يكون التدين أداةً للوصول مع ملاحظة الثمرات، إنما تكون الثمرات هي المقصد الأساسي؛ ولذلك يتعرض الشخص من هذا النوع لاختبار عندما يُمارس الأفعال الدينية التي ليس لها ثمراتٌ ملحوظة.

٢- أن يكون التدين أداة مستعملة من أجل الحصول علىٰ استحسان الآخرين.

٣- أن يكون التدين أداة لإدانة الآخرين والتقليل من قيمتهم.

٤- أن يكون التدين أداة للتنافس مع الآخرين.

٥- أن يكون الدين جدارًا يختبئ الإنسان خلفه ليبتعد عن التركيز علىٰ تصدعاته الداخلية.

٦- أن يُستخدم الدين كضمادة توضع علىٰ جروحِ النفس المُتقيِّحة، وهنا لا يكون الدين دواءً، وإنما يكون ضمادة تكبت وتستر وتُداري الجروح النفسية المُتقيّحة، في تلك الحالة فالدين لن يشفيها، بل سيزيدها تقيُّحًا.

فلا يوجد ها هنا (أي في هذه العلة) نفاذٌ إلىٰ عمق التدين، بل تحوَّل الدين إلىٰ شيء مُستعمل. والشكل الجليُّ من استعمال الدين لاستجلاب رضا الناس هو: الرياء.

وهناك أشكال متعددة لاستعمال الدين غير الرياء، مثال مشهور علىٰ ذلك: استعماله في أيام الامتحانات لجلب التفوق، أو للحصول علىٰ زواج جيد، من خلال المواظبة علىٰ الصلاة والدعاء في مِثل هذه الفترات. أحيانًا يكون ذلك طريق خيرٍ يواظب الناس عليه، لكنه في الأصل استعمال للدين.

هذان الشكلان هما الأشهر: استعمال الدين لأجل الناس، أو استعماله لأجل تحصيل الأغراض العاجلة.

لكن هناك أشكال أخرىٰ كما ذكرنا، مثل استعمال الدين لتضميد الجراح النفسية، وليس لعلاجها أو مداواتها أو شفائها. أو استخدامه لتبرير التصرفات الخاطئة، فمثلًا: كما نرىٰ في نموذج بر الوالدين، أو تسلط الزوج أو تسلط الزوجة، حيث نلاحظ أنه يتم استعمال الدين لترسيخ سلطة الوالدين أو سلطة الزوج، أو ترسيخ تملّص الزوجة من طاعة زوجها عن طريق الاستشهاد لهذه الممارسات بالدين.

هناك نصٌّ مهم نستعمله عادة في البرنامج: هذا النص لطبيب نفسي يُدعىٰ (رولو ماي)، تكلّم فيه عن قسٍّ يُسمىٰ (هارولد) جاءه شاكيًا من نوبات القلق، إن (هارولد) يعد مثالًا مألوفًا جدًّا لاستعمال الدين.

قال رولو ماي: «أخبرني هارولد أن عصبيته تنتج عن قلقه المستمر، إنه لا يستطيع الكف عن القلق، كان يعاني من عقدة نقصٍ وإحساس بالدونية منذ عدة أعوام، نحيف الجسم غائر العينين لا يجلس ساكنًا، يتحرك باستمرار، اعتاد تغيير الموضوع، فجأة تكلم عن الفتاةِ التي سيتزوجها بوصفها عازفةَ أُرجٍ ماهرةٍ في الكنيسة ومدرسةً بمدارس الأحد، لها خبرة طويلة، بدا أن أهم أسباب اختياره لها هو أنها تُلائمُ وظيفةَ زوجةِ القس، وأنها ستساعده في عمله الكنسي، ولم يكن يفهم لماذا يُعاني من متاعبَ صحية، كان يهتم بصحته جيدًا، توقف عن التدخين، أقلع عن شرب الشاي والقهوة، كان يود أن يجعل جسده خادمًا للربّ، أثناء الجامعة أقلع عن لعب الورقِ والرقصِ، لم يُرد أن يحط من مثله وأن يرتكب ما يرتكبه الآخرون، كان حريصًا في كنيسته علىٰ ألا يشاهده الناس في الشارع يمشي مع النساء، كان شديد الحرصِ علىٰ الاحتفاظِ باحترامِ الناس له في بلدته، كان الشباب في بلدته يرقصون ويلعبون، ويسألونه لماذا يعتقد أن هذه الأشياء خطيئة، كان يُجيب: «إن هذه الأشياء خطيئة بالنسبة له ولا أستطيع أن أحدد ما هي بالنسبة لكم، ربما كنتم أنتم أقوياء بما يكفي كي تفعلوها».

كل هذه العناصر التي وصفناها في أسلوب حياته ستؤدي لا محالة إلىٰ أزمة شخصية مماثلة، كان علىٰ حق في تأكيده علىٰ شعوره بالدونية، لقد لاحظنا أن أسلوب حياته قد تمحور حول إحساسٍ جوهريٍّ بعدم الأمان المرعب، الذي يجعله يتطلع لتعويضه بأخلاقياتٍ معينة وأداءٍ ديني خاص،

ومع فشل هذه الجهود؛ أي فشل الأداء الديني في تعويض جوانب النقص وتعويض الشعور بعدم الأمان، كان من الطبيعي أن ينتقل بعد ذلك إلىٰ العُصاب (هو اسم لكل الأمراض النفسية غير العقلية في مرحلة الستينات)، الامتناع الشاي والقهوة والكاكاو لم يكونا بسبب رغبته في أن يحتفظ بجسده في الوضع الأمثل، ولكن كان غرضها رفع قيمته عند الناس من حوله، وقد أخبرنا هو بطرق عديدة أن هذه الأفعال استخدمها كي يجعل من نفسه متفوقًا علىٰ زملائه في الجامعة، كانت هذه هي طريقته لهزيمة الآخرين في البلدة، كان هذا الإحساس العميق بعدم الأمان الذي كان يُحاول أن يُعوضه كان واضحًا في رغبته في أن يكون محترمًا، فعلىٰ الأغلب كان ثمة إحساس عميق يعتلج داخله بأنه ليس مُحترمًا.

كان أيضًا يستخدم زواجه كمصعدٍ في بناية تمركزه حول الذات، مصعد يستطيع من خلاله أن يصل للنصر الأخلاقي والديني، فإذا كانت قدرات خطيبته علىٰ التأهبِ كزوجةٍ لقسٍ هي دافعه الرئيسي كي يتزوجها كما افترضنا، فهو لا يتزوجها لذاتها، ولكن لما يُمكن أن تفعله أن تساعده علىٰ النجاح، وهذا الدافع الأناني يؤدي فقط إلىٰ فشل الزواج، هنا نرىٰ بوضوح صورة جلية لأسلوب الحياةِ المتمركزِ حول الذات المبني علىٰ أساسٍ مفترضٍ بعدم الأمان يحاول الشخص أن يُعوضه من خلال أفعالٍ دينيةٍ وأخلاقية، وهذه الأفعال لن تُفلح علىٰ المدىٰ البعيد؛ وبالتالي سننتقل إلىٰ العُصاب».

الفساد الروحاني الأكبر يتمثل في استخدام الدين بطريقة تخدم أغراضًا ذاتية. ففي هذه الصورة، يصبح التدين مجرد وسيلة لتحقيق أهداف دنيوية أو شخصية، بدلًا من كونه خطوة نحو الروحانية أو أداة لتعزيز التواصل

الإلهي. يتحول الدين إلىٰ وسيلة للتنافس، سواء من أجل الشعور بالرضا عن النفس، أو الحصول علىٰ الأمان والقيمة. وما يجمع بين هذه الأهداف هو التمركز حول الذات، حيث يصبح التدين في خدمة هذه الذات، علىٰ الرغم من أن الهدف الحقيقي للتدين هو تجاوز خدمة الذات لتحقيق الإخلاص لله.

يؤكد هذا المعنىٰ حديث النبي ﷺ الذي وصف فيه القلبين: «**وقلب أسود مُربادًّا كالكوز مجخيًّا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**». ويشير هذا الحديث إلىٰ أن هذا النوع من القلوب قد يعرف المعروفات وينكر المنكرات، لكن هذا العرفان والإنكار لا ينبعان من صلة حقيقية بالله، وإنما من الهوىٰ ومن مصالح النفس وميلها.

نفس تلك الصورة موجودة في استعمال التدين لكن بشكلٍ أخفىٰ . . .

مع إكمال النص: «قد ينصح بعض الناس الذين يلاحظون كيف يُستخدم الدين لتوكيد أسلوب الحياة المتمركز حول الذات، مثل هارولد أن يُخرج الدين من حياته تمامًا، وفي الواقع قد يُفيده هذا بعض الشيء، فعندما يتخلص هارولد من التدين المزيف قد يصل أخيرًا إلىٰ بعض العناصر من الدين الحق، بيد أن المشير لا يتعامل بهذا القدر من الجلافة، ولكنه يساعد الشخص علىٰ فهم إحساسه الأساسي بالدونية الذي يدفعه إلىٰ التنافس الخاوي من المعنىٰ علىٰ أرض الدين والأخلاق؛ ومن ثم يستطيع هارولد أن يُحوِّل تدينه الحالي المتمركز حول الذات إلىٰ تدين حق غير أناني، فمن الواضح أن التدين الحق سيخرجه من مشكلاته، سيعطيه إحساسًا عميقًا وحقيقيًّا بالأمان، سيعطيه شجاعةً حقيقية، ومن ثم عندما

يتخلص من الحاجة إلىٰ رفع أناة فوق الآخرين سيكون بوسعه أن يُكرس نفسه حقًّا لخدمة الله وخدمة رفاقه من البشر».

يدل حديث الثلاثة الذين هم أول مَن تُسعَّر بهم النار، متمثل فيهم الشرك الخفي الذي يُلاحظ مع أول درجة من درجات المراقبة. ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت، قال: كذبت، **ولكنك قاتلت لأن يقال هو جريء**، وقد قيل، ثم أمر به فسُحبَ علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتي به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، **ولكنك تعلمت ليقال عالم**، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحبَ علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجلٌ وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت، **ولكنك فعلت ليقال هو جواد**، فقد قيل، ثم أمر به فسُحبَ علىٰ وجهه ثم ألقي في النار» رواه مسلم.

يُكمل رولو ماي النص محاولًا ذكر الأعراض: «نستطيع اكتشاف النزعات العُصابية في الحياة الدينية ونتحرز منها، سنلاحظ أولًا أن الدين عند هارولد كان يُستخدم كحاجز بينه وبين الآخرين (كل أشكال التدين المُزيف تستخدم كحواجز)، في الواقع فإن سبب التدين الأساسي هو إيجاد هذا الحاجز (**لكي نختبئ خلفه**)، بيد أنّ الدين الحق ينبغي أن يصل بين الناس، يجب أن يقوِّي الروابط الأساسية بين البشر، رغم أنه قد يقوي

الفروق علىٰ السطح، لكن في العمق سنجد الروابط قوية، ويمكننا أن نخلص إلىٰ أنّ الدين (الممارسة الدينية) به جانب خطر عُصابي عندما يفصل ما بين الإنسان والآخرين ولا يقوي الروابط بين البشر، أيضًا سنلاحظ في المقام الثاني أن دين هارولد لم يكن يدفعه للشجاعة وإنما للخوف.

لقد كان الأداة التي تحاول عبرها الأنا أن تصل إلىٰ أمان زائف، وبالطبع لا يوجد عيب في أن يكون الدين درعًا ضد الإحساس بعدم الأمان، ففي الواقع يعمل الدين أساسًا كي يصل المرء إلىٰ أمان حقيقي، لكن النزعة الخطرة هي أن المتدينين مثل هارولد يحاولون الوصول إلىٰ هذا الأمان عبر الطرق القصيرة، وبشكل أكثر تحديدًا عبر الامتناع عن الأشياء (التحريمات)، وهو ما يقودهم إلىٰ طريق لا يعودون أبدًا قادرين علىٰ العودة من خلاله إلىٰ طريق الأمن الحقيقي، لقد ارتبط الدين عند هارولد بإحساس الدونية، ولكون الدين مُجرد أداة في المقام الأول تُستخدم للتغلب علىٰ الضعف فقد سجنه في حالة من التبعية وعدم النضوج.

بوسعنا أن نستخلص أن الدين يتحول لعصاب عندما يدفع الإنسان للجبن وليس للشجاعة، في حالة هارولد كانت حياته متعثرة باردة مرتعبة، كانت متعته هي لحظات من الانتصار الرخيص الأناني علىٰ الآخرين، لقد كانت حياته في الواقع علىٰ النقيض تمامًا من سخاء الحياة، بيد أن هذا لا يعني علىٰ الإطلاق أن الدين يُطلق العنان لنزوات المرء، بل إنه يُعطي الإنسان الطاقة كي يعيش مع الإحساس بالمغامرة، والقدرة علىٰ الاستمتاع بصحبة البشر، أن يعيش المتع البسيطة والهادئة غير الأنانية، التي تعتمد أساسًا علىٰ اليقين بالله، **التدين يصير عُصابيًّا عندما يؤدي إلىٰ إفقار الحياة»**.

بالنسبة لجزئية: « . . .الدين الحق يجب أن يصل بين الناس، يجب أن يقوي الروابط الأساسية بين البشر، رغم أنه قد يقوي الفروق علىٰ السطح لكن في العمق سنجد الروابط قوية . . .».

تعد اليهودية من أكثر الديانات الظاهر فيها استعمال الدين كحاجزٍ، فهي ليست دينًا تبشيريًّا، وليست دين دعوة، فهم لا يهتمون بدعوة أحد، والتميز عندهم موجودٌ في السطح وفي العمق، جدارهم عازلٌ ممتد، تتحقق قمة الفصل بينهم وبين الناس، جميع علاقاتهم مع الناس هي علاقات استعمالية.

بينما بقية الأديان بلا استثناء (الإسلام، المسيحية، البوذية، الكونفشيوسية . . . إلخ) لديها النزعة التبشيرية، فهناك بالفعل فروق علىٰ السطح، لكنهم في العمق يحاولون هداية الناس والاتصال بهم.

الصورة الأكمل والأتم: هي أن تلك الصلات لا تكون لأجل الهداية فقط. بالرغم من أن الهداية هي الهدف الأساسي والمركزي وهي كمال المحبة الدينية للشخص، لكن بافتراض أن الهداية لم تتحقق لسبب أو لآخر، هل ستقطع العلاقة وتُنهيها! هذا شكل من أشكال الاستعمال، فالمفترض أن الصلة بقصد الإحسان قائمة في مرتبة غير الصلة بقصد الهداية، وأن الصلة الإنسانية قائمة في مرتبة أخرىٰ غير الصلة الدينية بالمعنىٰ الديني.

فإذا كانت الهداية هي العلة، لكان الرجل يطلق زوجته إذا لم تدخل في دين الإسلام بعد زواجهما.

وهذا ما نجده عند المسيحية: حيث إن الصلة فيها خارج الهداية

محدودة وضعيفة؛ لذلك عندما كانوا ييأسون من تنصّر قرية إفريقية يتوقفون عن إرسال المساعدات لهم.

ويحدث كذلك عند السلفيين: عندما يعمل معك أحد منهم ويشعر أنك لم تصبح مثله فيبدأ في تركك.

نلاحظ أن هذا الشكل غير موجود في الدين الحق: فالنبي ﷺ قام لجنازة يهودي بعدما مات ولم تعد له فرصة للهداية، قائلًا: «**أليست نفسًا**»، فقد تمسك ﷺ ببقايا الصلة. الاحترام هنا للنفس الإنسانية ليس استعمالًا أو أداةً وظيفية لكي يدخل المرء في الإسلام، وهذا يدل علىٰ وجود العمق رغم كل هذه الفروق.

عندما قال رولو ماي: « . . .ويمكننا أن نخلص إلىٰ أنّ الدين به جانب خطر عُصابي عندما يفصل ما بين الإنسان والآخرين . . .».

نلاحظ أن البعض عندما تدين لم يفكر في مسألة برّ الوالدين وصلة الرحم بقدر تفكيره في التلفاز أو والدته غير المحجبة أو الصور المُعلقة علىٰ الحائط، أي أنه فكر في جوانب القطع والفصل والافتراق ولم يبدأ التفكير في جوانب الوصل.

عندما قال: « . . .لكن النزعة الخطرة هي أن المتدينين مثل هارولد يحاولون الوصول إلىٰ هذا الأمان عبر الطرق القصيرة، وبشكل أكثر تحديدًا عبر الامتناع عن الأشياء . . .».

المتدينون يركزون بشكلٍ كبير جدًّا علىٰ المحرمات، وعلىٰ محاكمة الآخرين بناء علىٰ الامتناع عن الأشياء. فيمكن أن تجد علىٰ سبيل المثال مقطعًا جيدًا جدًّا يشمل المناصرة لغزة أو تعليم الناس شيئًا مفيدًا، وبشكلٍ عارض ظهر فيه امرأة غير محجبة في جزء وثائقي يستدل به، في تلك الحالة

نجد أن غالبية التعليقات تُهمل الفائدة الناتجة عن هذا المقطع وتركز في هذه الصورة العارضة أو في الموسيقىٰ التي ابتدأ بها الفيديو. لا يوجد أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر مطلقًا، لم يتم التركيز علىٰ الجوانب الإيجابية سواء كانت تعليم الناس أو نصحهم أو نصرة المسلمين، إنه لم يركز علىٰ جوانب الائتمار الموجودة في هذا المقطع، بل ركز فقط علىٰ جانب عدم الانتهاء عن النواهي. إن الأمر هنا متصلٌ بالاستعلاء، حيث تُستعمَل النصيحة ليس من باب (أنا أحب الخير لك) إنما من باب (**أنا خير منك**)، لأن كله تدينًا استعماليًّا وليس تدينًا حقيقيًّا للاتصال بالله وتجاوز النفس والاتصال بالناس.

إن الدين يشمل الائتمار بالأوامر واجتناب النواهي، لكن هل وزن كليهما في الشريعة واحد؟ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا رأيت من يعمل هذا ولا يتركه إلا إلىٰ شر منه، فلا تَدْعُ إلىٰ ترك منكر بفعل ما هو أنكر منه، أو بترك واجب أو مندوب تركه أضر من فعل ذلك المكروه»، أي أن فعل الأوامر أعظم وأهم من الانتهاء عن النواهي.

هذا لا يعني مثلًا أن الأمر بصلة الرحم أهم وأعظم من ترك الزنا، بل المقصد أن مجمل الائتمار بالأوامر ومجمل فعل الطاعات أثقل في الوزن من مجمل ترك المعاصي، وهذا يتضح في قوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، ولقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالةٍ له عشرين دليلًا علىٰ أولوية الطاعات في مقابل ترك المعاصي.

وسبب كون المعاصي والنواهي في التدين الشائع تأخذ المساحة الأكبر في واقعنا الحالي: هي أننا نشتهي محاكمة الناس وإصدار الأحكام

بداخلنا، تكون تلك الأحكام مبنية علىٰ المعاصي التي يرتكبونها، وليس الطاعات التي يفعلونها، بينما يفترض أن يكون الحكم السليم عمليةً موازنة بين الطاعات والمعاصي، لكن تلك الموازنة صعبة ولن تستطيع الوصول لها، كما أن تلك الموازنة تكون لله وليست لنا.

أحيانًا نضطر لتلك الموازنة في سياقاتٍ معينة، مثل الزواج أو المشاركة في عمل ما، فنحتاج لملاحظة المميزات والعيوب كخطوة احتياجية، لكن الحاصل هو إصدار الأحكام علىٰ الناس بلا داعٍ، فنحن هنا لا نقصد الحكم المخصوص بنطاق محدد، لكن نقصد الحكم الذي نطلقه علىٰ الشخص بدون مناسبة.

إن التركيز علىٰ المحرمات واجتنابها ليس خطأً، لكن المشكلة أنها تكون في مقابل إهمال التركيز علىٰ الطاعات، فلا توجد نفس درجة البحث والتحفيز والثناء علىٰ فِعل الطاعات كما توجد في التقاط الأخطاء والتنبيه علىٰ المعاصي.

وهذا يحدث أيضًا في أحكامك علىٰ نفسك، فيدخل جلد الذات في فعل المعصية، رغم عدم وجود أي تقدير للذات عند فعل الطاعة. يقول النبي ﷺ في الحديث: «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**».

للأسف، هذه الظاهرة تعود جذورها إلىٰ أساليب التربية التي يُنشأ عليها الإنسان منذ الصغر، فعندما يكبر الطفل في بيئة لا يُقدَّر فيها علىٰ أفعاله الجيدة ولا يُثنىٰ عليه عند تحقيقه أمورًا إيجابية، بينما تُسلط الأضواء فقط علىٰ أخطائه، يترسخ لديه شعور بأن الانتباه أو الاعتراف به مرتبط بالخطأ أو السلوك السلبي، لدرجة أن هذه الطريقة أصبحت قاعدة تسويقية (لا ينتبه إليك أحد حتىٰ تُخطئ).

إن الصورة المتوازنة أن يكون وزن الطاعات والائتمار بها أثقل عندك من وزن المعاصي، رغم ذلك، نجد أن أحدهم يستحيل أن يرتكب ذنب الزنا أو السرقة، لكنه يمكن أن يترك الصلاة. تكمن المشكلة في تعظيم المنهيات، وتركيز التربية الاجتماعية عليها، خاصة عندما تندمج المنهيات داخل التقاليد والمحرمات الاجتماعية؛ ولذلك نجد من الصعب علىٰ أحدهم أن يترك الصيام أو صلاة الجمعة، لكن لا يشغله الالتزام ببقية الصلوات.

لقد اكتشفت إحدىٰ الدراسات أن الأشخاص الذين يرتكبون المخالفات المرورية هم الذين يركبون العربات الصديقة للبيئة، هدف تلك الدراسة هو محاولة استنتاج هل الالتزام بفعلٍ انضباطي معين يمنح الفرد شعورًا استعلائيًّا ورخصة أخلاقية لارتكاب الأخطاء؟ وقد وجدوا ذلك بالفعل عند الأشخاص المناصرين للبيئة وعند النباتيين، وعند الأشخاص المهتمين بالرياضة والطعام الصحي، فكلها أبواب استعلائية، يتم استعمالها للتعالي علىٰ الناس.

الخلاصة: إن شكلًا من أشكال التدين الزائف هو اختلال الميزان بين الطاعات والمعاصي، **وارتكاز عملية التدين علىٰ الامتناع والممنوعات**، لسد النقص والشعور بالرفعة الأخلاقية (**أنا خيرٌ منك**).

بالنسبة لجزئية: « . . .**لقد ارتبط الدين عند هارولد بإحساس الدونية عنده** . . . ».

كيف دعمت وسيلةُ الأمان التي سعىٰ لها عدمَ الأمان عنده؟ إن لديه شعورًا بالدونية وعدم الأمان، وتركيزًا علىٰ الممنوعات، والتي هي بطبيعة الضعف الإنساني سيمارسها، وعندما يمارسها سيتعمق الشعور بالدونية وعدم الأمان، وسينتج عنه الشعور بالخزي.

بالنسبة لجزئية: « . . .**بوسعنا أن نستخلص أن الدين يتحول لعصاب عندما يدفع الإنسان للجبن وليس للشجاعة . . .**».

الشجاعة هنا ليست خاصة بشجاعة القتال والحرب، إنما تعني الانضباط الذاتي، المسئولية، الفاعلية، الإقدام علىٰ مطلق الفعل، الحق والصواب.

من الأمثلة الدالة عن الاستعمال المبدئي للدين:

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: **إن كان الرجل يسلم لا يسلم إلا لأجل الدنيا، ثم لا يلبث أن يدخل الإيمان في قلبه.**

- عندما جاء صفوان بن أُميَّة كافرًا للنبي ﷺ، فجعل ينظر إلىٰ غنم بين جبلين، فرآه النبي ﷺ مُعجبًا بها وأعطاه إياها، فأسلم صفوان، وقال: «**أسلموا يا قوم، فإن مُحمدًا يعطي عطاءً لا يخشىٰ الفاقة**».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما سئل رسولُ الله ﷺ علىٰ الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلىٰ قومه فقال: يا قومِ أسلِموا؛ فإن محمدًا يُعطي عطاء من لا يخشىٰ الفقر، وإن كان الرجل لَيُسلِمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيرًا حتىٰ يكون الإسلام أحَبَّ إليه من الدنيا وما عليها». رواه مسلم.

- فِعلُ النبي ﷺ في فتح مكة يدل علىٰ عبقريته في فهم الذات الإنسانية: عندما قال له العباس بن عبد المطلب: «إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر»، قال ﷺ: «ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

ما سبق كله يدل علىٰ **الاستعمال المؤقت في البداية**، وهو ليس سيئًا، المرحلة الأولىٰ هي مرحلة المُداواة، وهي مرحلة انتقال، وليست مرحلة

استمرار وديمومة كما صدر من بعض التابعين الذين استمر إسلامهم حتىٰ مماتهم لغرض الدنيا، حتىٰ وإن حارب المسلمين لأجل المال وشهوات الدنيا.

لقد رُصِدَ في النص ثلاثة مفاتيح لتشخيص التدين الغرضي أو الاستعمالي:

المفتاح الأول: عندما يزيد الحواجز بينك وبين الناس.

المفتاح الثاني: عندما يزيد من شعورك بالدونية والخوف والجبن وعدم الأمان.

المفتاح الثالث: عندما يقود إلىٰ إفقار الحياة وافتقاد الشعور بمتعة العيش.

ولذلك، نجد التركيز علىٰ هذه الجوانب في الأفلام المعادية للإسلاميين، فحتىٰ إن كانت تلك الجوانب موجودة بالفعل، لكنها تصبح عملية انتقائية يتم تعميمها.

الطبيب النفسي لا يتكلم هنا عن الخوف من الله وعن مكره وعذابه، فيجب التفرقة بين الخوف وعدم الأمن عندما تكون مشاعرَ نفسية وليست أفعالَ القلوب الموجهةِ لله، يجب علينا عدم الخلط بين أفعال القلوب والمشاعر، فالخوف من الله فعلٌ قلبي مطلوب وممدوح، وعدم الأمن من مكر الله وعذابه هو أيضًا فعلٌ قلبي مطلوب وممدوح (أحيانًا تصل لدرجة عالية ليست هي الدرجة الممدوحة، في حالة الوصول للدرجة المتطرفة تستعمل الرجاء)، لكن الخوف وعدم الأمان والاسترسال في الشعور المتمثل في المشاعر النفسية فهي مشاعر كاسحة من الشيطان ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾.

إذن، فهناك ثلاثة عناصر: الشعور، الاسترسال، الفعل القلبي. الخوف يمكن أن يكون شعورًا إنسانيًّا، والاسترسال معه شيء، والخوف من الله شيء آخر تمامًا.

ومن أشكال الخوف المرضي من الله: الخوف الذي يوقع في المعصية، والخوف الذي يُقعد عن الطاعة.

علىٰ سبيل المثال:

الخوف عرض من أعراض المشكلات النفسية، وهناك درجات كاسحة منه ويُنصح فيها بتناول الأدوية، فإذا لم يكن لدىٰ الفرد وعي ذاتي وإدراك لمشاعره، وكان يعاني من مشكلات نفسية وعوامل جينية، ولم يلجأ لأخذ الدواء، ستبحث مشاعر الخوف التي بداخله عن موضوع تتجسد فيه، مثل: الخوف من فقدان الوظيفة، الخوف من نفاذ المال، الخوف علىٰ الأبناء وهم في الخارج أن يتعرض لهم أحد، الخوف من تشخيص وتوقع الأمراض بسبب وجود عرض ما؛ لذلك، هناك فرق بين الخوف الطبيعي والخوف المرضي، الخوف الطبيعي مدته قصيرة ولا يستمر لفترة طويلة من الوقت عن موضوع غير واقعي أو غير مفيد.

أثناء سير هذا الفرد خلال رحلة حياته اتجه للالتزام والتدين، وأصبح يذهب للمسجد ويصاحب الملتزمين ويحفظ القرآن، ويطلب العلم، أثناء كل ذلك حدث شيء لم يلاحظه، وهو: ذهاب الخوف وتخديره، الانغماس في الفعل وممارسة الأشياء التي لها جاذبية، ومن ثم الانفصال عن الذات الحقيقية. نفس تلك النتيجة يصل لها الفرد إذا مارس فعلًا إدمانيًّا كالإباحية والعادة السرية، أو الانغماس في مشاهدة كرة القدم.

وأحيانًا ينصح المعالجين الفرد الخائف بمشاهدة أفلام الرعب، لأنه سيتعرض لغمر من مشاعر الخوف الحقيقية، ومن ثم هدوء الخوف الأصلي.

هناك طبقة من المتصوِّفة يرون أن الحلال متعذر، وكانوا فقط يأكلون الحشائش الموجودة في الأراضي ويشربون من الأنهار، لأنهم يرون عدم وجود سبيل لاجتناب الحرام، وبسبب انتشار ذلك ذُكر في كتب العقائد في القرن الثالث والرابع أن من صفات أهل السنة: ولا يرون الحلال متعذرًا. فالخوف هنا رغم أن ظاهره الفعل القلبي إلا أنه في الحقيقة ليس خوفًا ممدوحًا من الله ﷻ، بل هو في الغالب بالتشخيصات النفسية الحديثة يندرج تحته مشكلات نفسية.

لقد قال عثمان بن عفان: «إن عُمَر كان يتقرب إلىٰ الله بالتضييق علىٰ أهله، وأنا أتقرب إلىٰ الله بالتوسعة علىٰ أهلي». ففي سيرة عمر رضي الله عنه نجد أنها طاعات تناسب طبيعة شخصيته ولكن ليست هي الطاعة الوحيدة.

وهنا ننوه علىٰ أهمية النسخة الشخصية، فالصحابة جزء من عبقرية هذا الجيل أنه لا يوجد أحد نسخة من الآخر، وجميعهم داخل الإطار العام، فنمط سيدنا عمر يختلف عن نمط أبي بكر ويختلف عن نمط عثمان ويختلف عن نمط عَليٍّ، رضي الله عنهم جميعًا، ولا يوجد دين أنماط تدينه مفتوحة للنسخ الشخصية مثل الإسلام، فكل واحدٍ يختار الأحفظ لدينه، فمن حقهم أن يجتهدوا لاختيار نسختهم الشخصية.

هناك جزء من الأجر الأخروي ينقص عند حدوث النصر الدنيوي: الصحابة كانوا يرون أن مصعبًا أعظم أجرًا منهم، مع أنهم قاتلوا مع النبي أكثر مما قاتل مصعب، وصحبوه وتعلموا منه، ونزل عليهم القرآن وتعلموا

من القرآن وحفظوا وبلغوا منه أكثر مما علم وبلغ مصعب؛ لأنه قُتل وهو يرىٰ الهزيمة وليس النصر.

إن النصر الدنيوي نوع من الشهادة التي هي عكس الغيب، فمن آمن ولم يرَ النصر الدنيوي ولم تُستجب دعوته إيمانه أعلىٰ ممن آمن ورآه واستُجيبَت دعوتُه، فمن لم يشهد النصر الدنيوي لديه شعبة أعلىٰ من الإيمان بالغيب. قال ﷺ: «ما مِن غازِيَةٍ، أوْ سَرِيَّةٍ، تَغْزُو فَتَغْنَمُ وتَسْلَمُ، إلَّا كانُوا قدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وما مِن غازِيَةٍ، أوْ سَرِيَّةٍ، تُخْفِقُ وتُصابُ، إلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ».

فالبشارات الدنيوية والأثر الدنيوي جيد ومبشِّر ويعد شكلًا من أشكال الشهادة، لكن الإيمان بالغيب ثقيل جدًّا، والصبر علىٰ بلاء المصيبة له كل هذا الأجر لأنه من الغيبيات، بعكس النعمة؛ فهي بلاءُ شكرٍ لأنك تمتلك درجة من درجات الشهادة؛ سألت الله الغنىٰ فأغناك، سألته العافية فأعفاك، سألته الولد فأعطاك.

لذلك في الكلام عن فضل الغني الشاكر والفقير الصابر، يكون النظر للصابر من حيث مقام الغيب، والنظر للغني من حيث مقام الشهادة.

لا مشكلة من تمني وجود حالة الشهادة والدعاء بها، لكن يجب أن تُدرب نفسك علىٰ التعامل مع حالات غياب الشهادة، وعلىٰ جعل الوجود مع الله هو الأصل.

من الأفكار التي تمت مناقشها في كتاب اختلاف الإسلاميين: أن حجم الخلافات الفقهية والمنهجية بين تيارين إسلاميين كبيرين كالسلفيين والإخوان المسلمين ليس حجمًا كبيرًا، فكل مجموعة الخلافات الفقهية والمنهجية قيمتها محدودة جدًّا، وهي أقل خطورة في الكم والكيف من

الخلافات بين السلفيين والأشاعرة، لكن نقاط الاختلاف بين الإخوان والسلفيين ضُخِّمَت من قِبل الطرفين من أجل شيءٍ آخر متمثلٍ في مسألة السلطة والنفوذ، إن كليهما يُصارع علىٰ كعكة مجتمعية واحدة. وهذا ما جعل الكثيرين ممن لديهم خبرة في استقراء أوضاع المتدينين والتيارات الإسلامية مثل الشيخ محمد الغزالي إلىٰ القول بأن الكثير من هذه الصراعات هي في الأصل صراعات شخصية تُصبغ بصبغة دينية.

مثال علىٰ ذلك منتشر في أوساط النساء: أن يكون هناك داعية أو معلمة، ثم ينضم للمجموعة طالبة تتسم بالنبوغ والقبول والذكاء والتأثير، فتبدأ المعلمة في التركيز والتعليق علىٰ شكل حجابها أو أخطاء التجويد في قراءتها أو عن قول فقهي تتمسك به، هذه المشكلات ليست هي المشكلات الحقيقية لكن المشكلة هنا هي مشكلة نفوذ وسلطة.

من أمثلة الاستعمال أيضًا:

أن يكون الأب لا يصلي، ومع ذلك يعطي لابنه محاضرات عن بر الوالدين، إن تعظيم بر الوالدين في حياة الأب ليس نابعًا من تدين حقيقي، إنما من تدين استعمالي.

ومن الممكن أن تكون الأم متدينة بالفعل ولكن استعمالها للتدين مع ابنتها هو في الحقيقة من أجل تدعيم السلطة عليها؛ لحاجتها لذلك في بعض الأحيان كنتاج لغياب الأب.

إذن، العلة الأولىٰ هي استعمال التدين، فالتدين في كل هذه الصور مستعمل وموظف، وليس مقصودًا لذاته، **وهذا يقودنا إلىٰ العلة الثانية.**

العلة الثانية: الفصام

يُقصد بها: أن تكون شعب الإيمان غير متقاربة.

لا يوجد شخص تتساوىٰ لديه شعب الإيمان، لكننا نحتاج إلىٰ درجة من التقارب، فمثلًا: إذا حدّث الأب ابنه عن برّ الوالدين فلا بد أن يكون هذا الأب مُعظمًا ومُتصلًا بالشعائر التي لها نفس ميزان بر الوالدين.

لذلك يقول النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**»، فلا يمكن أن تمارس شبكة من العبادات في الوقت الذي تكون فيه الأخلاق بعيدة ومُهترئة.

ليس المقصود هنا أن الذي يفعل شعبة إيمانية يُفترض ألا تقع منه معصية، لكن المقصود بالفصام: أن تكون شعب الإيمان جُزرًا منفصلة ومُتباعدة، ليست متصلة ثم انفصلت ووقع منها أحجار وصخور، أو وقوع صخرة كبيرة بين جزيرتين، إنما هي متباعدة تمامًا. كأن تكون الصلاة والصيام والحج في درجة ما، ومكارم الأخلاق أو تقوىٰ الله في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم في درجة أخرىٰ بعيدة جدًا.

فمن المفترض أن تكون شعب الإيمان جزرًا متقاربة، بينها مسافات من المعاصي والذلل والخطأ، وأن يحاول العبد التسديد والمقاربة بين نقاط قوته وضعفه.

قيل سابقًا في أحد الأمثلة: «الشيخ هو الذي تقول عنه زوجته أنه شيخ». ويقول النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي». المسألة هنا ليست اعتبار حسن الخلق مع الزوجة شعبة إيمانية، بل كون الأهل مستورين، وليس هناك أي داعٍ للتزين أمامهم أو التصنع معهم. فإذا

كانت خيرية الإنسان شاملة أهل بيته، فغالبًا تكون خيريته حقيقية وليست مزيفة، وهذا هو مكمن قول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا».

إن الجزر المتباعدة مرتبطة بالكم والكيف: الكم هو كثرة شعب وأبواب المعاصي وليس مجرد ضعفٍ في باب معين، والكيف هو طبيعة المشكلة في بابٍ من هذه الأبواب.

فعلىٰ سبيل المثال:

- إذا كان الشخص ديِّنًا مصليًّا داعيًّا إلىٰ الله سبحانه، ووقع في معصية الزنا، أو يمارس إحدىٰ الممارسات الإدمانية، أو يشاهد الإباحية: في تلك الحالة تكون الجزر متقاربة، إنها ليست حالة الفصام، إنما هو النقص البشري الذي يحدث للجميع طالما ليس من الأنبياء، فليس هناك عبدٌ معصوم من الخطأ مهما بلغت درجة صلاحه وتقواه. فهناك من الصحابة مَن وقع في الزنا، وهناك مَن قتل، وهناك مَن سرق، وهناك مَن تجسَّس لصالح الأعداء، وهناك مَن كان يدمن الخمر لكن يحبه الله ورسوله.

- إذا استغل أحدهم مكانته الدينية وإفتاء الناس لإقامة علاقة مُحرمة مع العديد من النساء، بين التحرُّش وعرض الزنا وطلب إرسال الصور، أو ليتخفىٰ بهذه المكانة الدينية خلف تجارته للمخدرات، أو بيع محتوىٰ الإباحية للآخرين: هذا مرض واضطراب وليس مجرد ذلة وقع فيها.

هذا الفصام يختلط أحيانًا بالعلة الأولىٰ الخاصة باستعمال التدين، فمثلًا: عندما يقوم الفرد بانتهاك الأعراض يشعر بألم الفصام، ويشعر بعدم الرغبة في أن يبدو متناقضًا، أو أن تكون شُعب الإيمان بالنسبة له جزرًا متباعدة، ولكي يجمع بين شعب الإيمان التي يُمارسها وبين وقوعه في

الأعراض يقوم بالتأويل (إنشاء كوبري ليصل الجزيرتين ببعضهما عن طريق التأويل)، فيقول لنفسه أن انتهاك الأعراض الذي يفعله هو لله، وانتهاك الأموال لله.

العلة الثالثة: إدانة احتياجات الذات من حيث كونها ذاتًا إنسانية

هذه العلة هي التي يقع فيها الكثير من المتدينين، وكذلك يقع فيها مَن ظاهره التدين والقيام بالعبادات وشعب الإيمان، ورغبة مَن حوله أن يكون مثله.

في هذه العلة يكون المرء مؤمنًا صادقًا، لا يعاني من انفصال الجزر، قائمًا بمعظم شُعب الإيمان ومتزنًا في ممارستها، لكنه يبلغ درجة من التدين يُريد فيها أن يُميت احتياجات النفس.

فالتدين هنا معلول: علته ليست الاستعمال، فهو مؤمن صادق. وعلته ليست انفصال الجزر، فهو قائم بمعظم شعب الإيمان ومتزن في ممارستها. بل العلة الأساسية: أن يبلغ درجة من التدين يُريد فيها أن يُميت حاجات النفس، إنه يريد أن يتدين تدينًا تابعًا لعيش نفسه، فهو الذي يرسم معالم هذا التدين وليس الوحي، وعبَّر عنها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بمصطلح: «**فهذا عيش النفس**».

وهي من علل التدين الخفية؛ لأنك عندما تنظر لهذا الشخص تُمنِّي نفسك أن تكون مثله، وتحقِّر من نفسك.

وعندما تكلم النبي ﷺ عن الخوارج قال: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مع صَلاتِهِمْ، وصِيامَكُمْ مع صِيامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ

الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ في النَّصْلِ فلا يَرَىٰ شيئًا، ويَنْظُرُ في القِدْحِ فلا يَرَىٰ شيئًا، ويَنْظُرُ في الرِّيشِ فلا يَرَىٰ شيئًا، ويَتَمارَىٰ في الفُوقِ».

ومن هنا ذمَّ الله الرهبانية عند الحديث عن النصارىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

التدين في تلك الحالة صادق، وليس تدينًا منفصلَ الجزر، لكنه معلول، وأصل علته من كون الشخص يريد أن يرسم لنفسه معالم التدين تاركًا الاتباع، من خلال إماتة احتياجات النفس؛ لذلك نجد أن كل مبالغات الصوفية في باب التدين ليست موجودة في سنة النبي ﷺ.

إن الإنسان في التدين السليم يقطع الصلة ببعض الاحتياجات في بعض الأوقات، لكن لا يُميت تلك الاحتياجات.

وتعد الشهادة في سبيل الله شكلًا استثنائيًّا له إطار معين من الصورة الأكمل والأتم لقطع العلائق، لكن القطع الدائم للعلائق (مثل قطع العلاقة بالطعام في الصيام) غير مُشرع في ديننا، فقد قال الرسول ﷺ: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

من أشكالها:

أ- **التصوف**: القسوة علىٰ النفس وإماتة احتياجاتها في بعض الجوانب مثل: النوم - الطعام - العلاقة الخاصة - المال - الزينة - الولد.

ب- **ومن أشهر وأقدم الأمثلة التي حدثت في حياة النبي ﷺ:**

الأول: الثلاثة الذين وقفوا بباب النبي ﷺ، أحدهم يريد أن يصوم فلا يُفطر، والثاني لا ينكح النساء، والثالث يقوم ولا ينام.

عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: «جاء ثلاث رهط إلىٰ بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها [أي: عدُّوها قليلة]، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ وقد غَفرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا [أي: دائما دون انقطاع]، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر [أي: أواصل الصيام يومًا بعد يوم]، وقال الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

الثاني: صحابته ﷺ: عثمان بن مظعون، أبو الدرداء، عبد الله بن عمر.

لكن أبو الدرداء كان أظهرهم، لأنه لم يُرد فقط أن يُميت احتياجات النفس، إنما أيضًا المسئوليات الأسرية، فقال له النبي ﷺ: «إن لبدنك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا . . .».

الثالث: دخَل رسولُ اللهِ ﷺ المسجدَ وحبلٌ ممدودٌ بينَ ساريتَيْنِ فقال: ما هذا؟ قالوا: لزينبَ تُصلِّي فإذا كسِلَتْ أو فتَرَتْ أمسكت به. قال: «حُلُّوه» ثمَّ قال: «لِيُصَلِّ أحدُكم نشاطَه، فإذا كسِل أو فتَرَ فليقعُدْ».

ج- أن يكون لدىٰ أحدهم طموح بالتفوق الدراسي، أو التفوق في مجال تعليمي أو مهني معين، لكنه يزهد في ذلك اعتقادًا منه أن زهده لأجل الآخرة، فهو بذلك يُميت حاجات نفسه تحت دعوىٰ التدين والعبادة والتفرغ للدين.

فإذا افترضنا أن أحدهم يمتلك طموحًا مهنيًّا أو تعليميًّا، من الممكن أن يدخل له أحد الأشخاص ويستعمل التدين من أجل إماتة هذه الاحتياجات والرغبات، كأن يقول له: العلم النافع هو العلم الديني فقط.

لذلك، لما ذهب عمرو بن العاص إلىٰ النبي ﷺ يسأله عن المال، حيث كان بنو أمية من أهل الأموال، قال له النبي ﷺ: «يا عمرو، إن هذا المال خضر حلو، نعم المال الصالح للعبد الصالح». فإذا وجدت أن علاقتك مع المال علاقة احتياج وبها درجة من درجات التعلق، فلا تُمت نفسك عن هذا الاحتياج، لكن عليك أن تضبط العلاقة به.

بالتالي: هناك فرق بين ضبط العلاقة بالاحتياج وبين إماتة الاحتياج، يجب علىٰ الفرد أن يتقبل احتياج نفسه، ويضبطه.

وعليه يحتسب أجر الصبر علىٰ الشهوات، ففي الحديث: جاء شاب إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الخصاء. قال: صُم، واسأل الله من فضله. وأيضًا قال النبي ﷺ: «من أخصىٰ عبده أخصيناه».

عندما تكلّم الإمام أحمد عن واحدٍ من الصوفية في زمانه يُسمىٰ (بِشر الحافي)، قال: «لو تزوج بِشر لكمل أمره». حيث يرىٰ أن مقامه الديني نَقُص لأجل عدم الزواج، لأجل أنه أمات هذا الاحتياج النفسي لديه.

إن الفتنة لا تأتي من الصور الفجة التي يمكن التقاطها بسهولة مثل الذي لا يرغب في الزواج أو الذي يقوم الليل فلا يرقد، رغم أن تلك الصور الفجة ظلت تحدث في تاريخ المسلمين.

عندما ظهر التصوف في البداية ظهر في البصرة والشام، وما يُميزها عن غيرها من سائر الأمصار هي كثرة صوامع النصارىٰ فيها، والنصارىٰ

يأخذون أنفسهم بهذه التشديدات وإماتة الاحتياجات، فهناك بعض الصوفية لم ينكحوا النساء واعتبروا ذلك من رياضة النفس.

د- كذلك من أشكال إماتة الاحتياج: تأنيب النفس ولومها عند الترفيه أو إسجاء الوقت أو اللعب إلىٰ آخره. وهناك تيار صوفي يسمىٰ بالملاماتية، وشيخ الإسلام له رسالة في الرد عليهم.

هناك درجة من لوم النفس مفيدة، حيث امتدح الله النفس اللوامة، وهناك أوقات يرفع فيها الإنسان طاقته إلىٰ أعلىٰ درجاتها، فقد كان النبي ﷺ إذا دخلت العشر أحيا ليله وأيقظ أهله. لكن الكارثة هو أن تتخيل أن الحياة كلها يُفترض أن تكون بهذا الشكل، فهذا إماتة للاحتياج.

ففي الأدب المفرد للبخاري: يقول بكر بن عبد الله المزني: «كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال».

ومن الآثار الجميلة أيضًا: قول سعيد بن المسيب وهو من كبار التابعين: «بلغني أن قومًا نسكوا نُسكًا أعجميًا، لا يتناشدون الشعر». (معنىٰ النسك هنا العبادة).

ويتضح من الأدلة السابقة: وجود مشكلة هذه العلة منذ الأزمنة السابقة، التي تتمثل وجود تعارض ما بين القيام بالحقوق وبين إتاحة الوقت للهو والمزاح.

إذن، التدين السليم الحقيقي هو الذي يحقق الصلة بالله، دون أن يُميت احتياجات النفس، إنما يُديرها ويُهذبها ويُنظمها.

العلة الرابعة: غياب البطء والعمق

أي: تحول التدين إلىٰ شغل وحركة ومجموعة من المهمات المتتالية أكثر من كونه قضاءً للوقت مع الله تبارك وتعالىٰ. ونجد ذلك منتشرًا بين الأشخاص العاملين في مجال التعليم والدعوة.

كالاحتياج إلىٰ الشعور بالكفاءة والإنجاز، وكثرة المشاريع والخطوات والركعات والصدقات والمشاوير لأجل الله، والانشغال بتعديد النوايا للعمل الواحد، بينما يكون الوقت الحقيقي الذي تقضيه مع الله سبحانه متصلًا به ومُستشعرًا لتلك الصلة ومُتدبرًا فيها قليل جدًّا.

هنا يقيس الإنسان نفسه بعدد المهمات وسرعتها، وهذا يعد قياسًا للتدين بالكم وليس بالكيف، فليس هناك يقظة أو خشوع، بل هناك ازدحامٌ وانشغالٌ بالمهام أكثر من الاستشعار للعلاقة والصلة بالله.

إن تزاحم المهمات مقبول أحيانًا، كأن يكون جزءًا من الاشتغال الإيماني الختمة السريعة، أو استحضار العديد من النوايا للعمل الواحد بشكل طبيعي وغير متكلف. لكن هذا الهوس بتعديد النوايا ليس موجودًا في القرآن أو السنة النبوية أو فعل الصحابة والتابعين. وإن كانت كل علاقتنا بالقرآن هي الختمة السريعة هنا نكون في علة الشغل وليس في التدين الحقيقي الذي يقود إلىٰ الصلة الروحية. فتحول التدين إلىٰ الحسبة الكمية يعوق عن تحصيل وأداء التدين للهدف الروحاني، ولن ينفذ هذا التدين إلىٰ الروح، فالنفاذ للروح لا يحدث إذا كانت الهيكلة كلها هيكلة مهمات وسرعة.

كأن تكون كل علاقتك بالقرآن (وليس بعض علاقتك) أن تقرأه في الصلاة فقط، هذا ليس من هدي النبي ﷺ:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره علىٰ إحدىٰ عشرة ركعة، يصلي أربعًا، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا. قالت عائشة: قلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة، إن عيني تنامان ولا ينام قلبي».

كما يمكن أن يقوم ﷺ الليل كله بهاتين الركعتين فقط، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «صَلَّيْتُ مع النبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ، فَقُلتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلتُ: يُصَلِّي بهَا في رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلتُ: يَرْكَعُ بهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا؛ إذَا مَرَّ بآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وإذَا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ، وإذَا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يقولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ، فَكانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِن قِيَامِهِ، ثُمَّ قالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا ممَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأعْلَىٰ، فَكانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِن قِيَامِهِ».

وكما يقول النبي ﷺ في ثواب قراءة القرآن، **مُعبرًا عن كون العبادة المرتبطة بالكم قليلة جدًّا**: «إن لكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

ويقول بكر بن عبد الله المزني: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام، ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه».

ولكي نصل لدرجة عالية من العلاقة بالذكر، نحتاج لطريقة أخرىٰ للتعامل مع الأذكار؛ لذلك يجب أن ننتبه إلىٰ أن أذكار الصباح والمساء لم يكن النبي ﷺ يسردها سردًا كما دونت في كتب الأذكار، لقد كان يمكن أن يقول ذكرًا واحدًا فقط في الصباح، ويتغير الذكر كل يوم، أي يتم التنويع

بين هذه الأذكار، وأحيانًا كان يقول أكثر من ذكرٍ لكن لم يكن هذا هو الغالب، بل إن هناك قولًا بكراهة الجمع بين الأذكار.

فالأمر كله متصلٌ بمدىٰ حضور قلبك واتصالك بالله في هذه العبادة، فاعمل علىٰ تحسين وتجويد كفاءة ذلك، ومراعاة الجودة في الكيف.

وعليك استغلال أنسب الأوقات للعبادات، فأفضل العبادات في كل وقت ما هو أليق بهذا الوقت. فعند الصباح، قد يكون الذكر أليق من قراءة القرآن. عند طلوع الخطيب يوم الجمعة، يكون الدعاء أليق من قراءة القرآن. وهذه الأمور تُعرف من خلال قراءة الكتب المتعلقة بشعب الإيمان.

إذن: علة التدين هنا ليست الأداء الكمي الذي يُفهم لبعض الاعتبارات والمعاني، لكن العلة هي غلبة الأداء الكمي، وتحول العلاقة مع الله إلىٰ مجرد ممارسة المهمات، وقياس الإنسان اجتهاده في الطاعة بكم المهمات وتنوعها. ويعبر عنها أحدهم: «**العمل لأجل الله، ليس تمضية الوقت مع الله**».

إذن، مراعاة الكم أحيانًا لا حرج فيه، لكن تصور التدين أنه كميٌّ يؤدي إلىٰ هوسٍ بالانشغال وبالحركة أكثر من قضاء الوقت مع الله سبحانه.

العلة الخامسة: تديين الصراعات

بمعنىٰ ستر الصراعات التي لها طابع شخصي بستار الدين، وهذا شائع في الجماعات والتيارات الإسلامية، لكنه موجودٌ أيضًا في العلاقات الفردية.

ليس شرطًا عن طريق الدخول في الصراع، بل يمكن تديين الصراع

بهدف الهروب منه، فتديين الصراع من أجل خوضه، وتديينه من أجل عدم خوضه: يعد كلاهما من علل التدين.

ومثال لذلك:

امتناع الزوجة عن الدخول في النزاع مع زوجها (الذي هو من حقها تمامًا) عن طريق تديينه واعتبار ذلك طاعة للزوج، بينما يكون ذلك علىٰ المدىٰ البعيد ضار لها دِينًا ودُنيا.

ونجد ذلك ظاهرًا أيضًا في طاعة الوالدين.

أو إذا كانت الزوجة متعبة من تعامل زوجها لها، فتتجه لطلب الطلاق زاعمة أن السبب الأساسي أنه لا يُصلي الفجر.

أو إذا كان أحدهم يغار من الآخر أو لا يرتاح في التعامل معه، فيتجه لتصيد الأخطاء الدينية له.

العلة السادسة: غياب الحدود

للإنسان حدوده الشخصية والنفسية، وحدود حقوقه وحدود واجباته، والمقصود بهذه العلة: أن يتم انتهاك هذه الحدود والحقوق، وصبغ هذا الانتهاك بالصبغة الدينية.

لا يوجد مشكلة في التنازل أو التفريط في الحدود أحيانًا، وأن يكون تنازلًا واعيًا عنها، لكن المشكلة أن تعتقد بعدم وجود الحدود من الأساس، مثل قول: أنت ومالك لأبيك (بالمعني غير الشرعي لها)، عكس من يعلم أنه ليس من حق والده لكنه سيتنازل بوعي عن حقه؛ لذلك ذكرنا (غياب الحدود)، وليس حضور الحدود ثم تنازلك عنها باختيارك.

من أمثلة توظيف الدين لأجل انتهاك الحدود:

- بعض المشايخ والدعاة يرىٰ أنه يجب عليه الرد علىٰ الهاتف في أي ساعة من الليل أو النهار، وإلا سيكون مقصرًا في حق الناس.

- إذا لم يساعد الشخص غيره لأي سبب يُتهم بالأنانية وعدم المساعدة، بادعاء أن خير الناس أنفعهم للناس.

- التفريط في الحدود باعتبار أن ذلك من الدين، مثل الاعتقاد: إذا ضُربت علىٰ خدّك الأيمن فأدر خدك الأيسر.

- استمرار العلاقة مع الظالم المؤذي رغم استمرار الأذىٰ، بحجة صلة الرحم أو العفو عند المقدرة، رغم أن السبب الأساسي هو ضعف مهارة توكيد الذات.

العلة السابعة: الانشغال بالحكم علىٰ تدين الآخرين

نحن لا نمنع احتياجنا أحيانًا إلىٰ الحكم علىٰ بعض المساحات من تدين الآخرين، كالخبطة أو الشراكة في العمل أو الجيرة، هذه ليست من علل التدين.

لكن من علل التدين: الانشغال بالحكم علىٰ تدين الآخرين، ليس الحكم علىٰ مساحة ظاهرة من تدينه، إنما علىٰ كامل تدينه.

ففي الصورة المشروعة:

- يكون الحكم أحيانًا، وليس انشغالًا.

- يكون الحكم علىٰ مساحة معينة، وليس علىٰ كل تدينه ظاهرًا وباطنًا.

- يكون لحاجة للحكم، مثل: المصاهرة أو التجارة أو الجيرة أو التوظيف.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يكون في الأمور المتفق عليها، وبقصد المحبة والهداية.

لكن من علل التدين:

- الانشغال بالحكم.

- الحكم بأحكام كلية علىٰ تدين الآخرين، وليس الحكم علىٰ مساحة معينة لأجل المصلحة.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في غير الأشياء المتفق عليها، وبرغبة خفية في التسلط والاستعلاء.

لذلك يقول الله تعالىٰ في كتابه: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

ثالثًا

فصول في تزكية النفس

(١)

روحانية الإسلام أن يخرج الإنسان من جزئه الطيني المادي؛ ليتصل بالله ﷻ عبر الأعمال الصالحة، وأصل هذه الأعمال، أعمال القلوب بمعرفة الله ومحبته والانقياد له، وتتبعها أعمال الجوارح.

وجوهر هذه الروحانية هو (**الكلمة**) كلمة القلب وكلمة اللسان وكلمة الجوارح، فإن كل ذلك كلام محبة فإن المحبة هي جوهر الخلق والعبودية والكلام إبانة عنها حتىٰ عمل الجوارح هو كلام وإبانة؛ لأجل ذلك تتكلم الجوارح يوم القيامة مخبرة بعمل صاحبها، ولأجل ذلك خلق الله الإنسان وعلمه البيان، ليعرب عما في نفسه من محبته لربه.

وجوهر هذا الكلام هو القرآن كلام الله ﷻ، لأجل ذلك ليس في الإسلام روحانية الصور ولا روحانية السماع (الإنشاد والموسيقىٰ) كما فعلته المسيحية وتبعتهم الصوفية، وليس في الإسلام روحانية وسائط؛ فإن الله قريب يكلم عبده بالقرآن ويتكلم العبد مع ربه بالصلاة والذكر والدعاء.

احفظ هذا فإنه لب الدين وروحانيته.

(٢)

يقول شيخ الإسلام: الاستعلاء علىٰ الناس إن كان بحق فهو الفخر، وإن لم يكن بحق فهو البغي

تأمل هذا:

يفجؤك أنك لو رأيت أنك أعلىٰ من فلان لأنك أصبت حقًا لم يصبه ووفقت لطاعة لم يوفق إليها = فهذا فخر مذموم محرم، والله لا يحب كل مختال فخور.

فإن قلت فماذا أفعل بحسنتي وسيئتهم؟

فعليك أن تسرك حسنتك، وتتوجه بها نحو ربك لا نحو الناس تقيمهم بها، وتزن نفسك عليهم بفضلها.

وتسوؤك سيئتهم وترجو لو لم يفعلوها، وتحب لهم الخلاص منها، وتُقدر أنه لهم ما يحبهم الله لأجله ويغفر لهم لأجله وأنك لستَ أرجىٰ لفضل الله من أحد، ويزيد إنكارك ويعظم علىٰ المجاهرين بالفسق والظلم لكنك تبقىٰ لا تأمن مكر الله ولا تقلب القلوب بين يديه سبحانه وأن يعافيهم الله ويبتليك.

هذا ميزان الحق والطاعة حين يكونان لله لا للاستطالة علىٰ الخلق والعلو في الأرض.

(٣)

قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

قال شيخ الإسلام: «فشبَّه العلم بالماء المنزَّل من السماء؛ لأن به حياة القلوب كما أن بالماء حياة الأبدان وشبَّه القلوب بالأودية لأنها محل العلم كما أن الأودية محل الماء فقلبٌ يسع علمًا كثيرًا ووادٍ يسع ماءً كثيرًا وقلبٌ يسع علمًا قليلًا ووادٍ يسع ماءً قليلًا.

وأخبر تعالىٰ أنه يعلو علىٰ السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء وأنه يذهب جفاءً أي يرمىٰ به ويخفىٰ والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات فإذا ترابىٰ فيها الحق ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات ثم تذهب جفاء ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس.»

فتأمل كيف تذهب الشبهات وتضمحل الشهوات فقط بزيادة الحق وتناميه لا بالقصد إلىٰ إزالتها،

وهذا باب من الفقه عظيم.

كاثر بالخير والحق والطاعة فالمكاثرة تداوي الخلل مداواة قد لا تبلغها المعالجة المقصودة.

(٤)

سأل سائل شيخه: حالي لا تستقيم لي مدة حتىٰ أقع في ذنب مما لا يليق أن يقع فيه مثلي.

فأجابه شيخه: بأنه ايضا يقع له ما ذكره، بل وغالب الظن أن ما يتكلم عنه ليس من كبائر الذنوب، ثم قال له ايضا: علىٰ كل حال دعني أعطيك شيئًا تنتفع به فإن الله نفعني به، ونفع به من أخذه عني:

الباب الأعظم للشيطان ليس أن تقع في الذنب، الباب الأعظم للشيطان هو في أن تهجر الطاعة وتصير الذنوب لك حال دائمة.

فالمشكلة الكبرىٰ في الذنب ليست هي نفس الذنب، ولكن أن الذنب يتركك في حالة وهاء نفسي، يختلط فيها احتقار النفس بتخلي حفظ الله عنك= مما يقود للاسترسال في ذنوب شتىٰ، ويقود للمصيبة الكبرىٰ حقًا= وهي ترك الطاعات.

ولعل هذه هي الأزمة العظمىٰ التي تتسبب فيها كبائر الذنوب، أنها تقود إلىٰ هذا أسرع بكثير.

فمِن أسوأ عقوبات المعاصي، أنَّها تفقدك الثقة بنفسك، وتحدث خللًا في جهازك المناعي. وهذا هو الأصل الذي يندرج تحته ما يذكر من أنَّ من عقوبة الذنبِ: الذنب بعده.

فأنت تكونُ بعد الذنب في حالة وهاء نفسي وفقدان للثقة، وهذه الحالة هي مفتاح القنوط. لكنَّها ليست حالة لازمة لا فكاك منها، وإلَّا لَمَا قال ﷺ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**».

ويقول ﷺ: «**إذا أسأت فأحسن**».

ومن أعظم الوسائل المعينة علىٰ استعادة الثقة بعد الذنب: التوبة، والاستغفار، والفزع إلىٰ الصلاة، وقراءة القرآن.

وإن عدت للذنب= عد ثانية لهذا العلاج؛ فإنه: «**لَنْ يَمَلَّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**».

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

وفي الخبر أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ؛ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

فما أعلمك إياه هو أن تصنع لك مسارًا ثابتًا للطاعة، لا يتأثر بوقوعك في الذنب، واحرص علىٰ عدم الاسترسال في ذنوب أخرىٰ حتىٰ ولو ابتليت بذنب أصررت عليه لا تطاوعك نفسك علىٰ تركه، فلا تنتقل من خانة إلىٰ خانة، لا تنتقل من خانة الإذناب بلا إصرار إلىٰ خانة الإذناب بإصرار، ولا تنتقل من خانة الإذناب بإصرار إلىٰ خانة الاسترسال في الصغائر، ولا تنتقل من خانة الاسترسال في الصغائر إلىٰ خانة الوقوع في كبيرة، ولا تنتقل من خانة الوقوع في كبيرة إلىٰ خانة الذي لا يبالي أي محارم الله انتهك حتىٰ يُختم له بالكفر والعياذ بالله.

دائمًا احرص علىٰ الوقوف بالخسارة عند حدها الأدنىٰ، واحرص علىٰ بقاء مسار الطاعة ثابتًا لا يتأثر بمسار المعصية، فإذا كنت تحرص علىٰ الجماعة ولك ورد من القرآن والذكر= فَلِمَ تترك شيئًا من هذا إذا وقعت في ذنب؟

إنك كمن وجد في بيته ذبابة ففتح كوة الحائط لتتسرب منها سائر أنواع الهوام، فلا يلبث الحائط أن يسقط ويتهدم البيت كله.

ثم إني أحذرك أن تكون ممن يستبشع ما يستبشعه الناس من ذنوب الشهوة مثلا، ثم إن لسانه ليسترسل في أعراض الناس، وإن قلبه ليحمل الضغائن والأحقاد وتعشش فيه سموم القلوب.

مهما غلبتك نفسك لا ينبغي أن تنقطع عن ثوابت العمل اليومية، والتي هي بمثابة زادك الروحي، أعني القرآن، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتذاكر كلام النبي ﷺ وسيرته وسير أصحابه، وتربية النفس علىٰ مكارم الأخلاق.

وبعض الناس ربما أنكرت نفسُه أنَّه يلازم هذه الثوابت، ثم إنَّ قلبه لا يلين، ونفسه لا ترتدع عن سقطات الذنوب المتتابعة، والحق، إنَّ العلم والعبادة، ولين القلب، وملازمة المساجد، ووصال القرآن، وسائر شُعب الإيمان= لا تعطيك حلاوتها إلَّا مع الصبر والمجاهدة، وكثرة القرع علىٰ بابها. وأكثر الناس يقرع ثلاثًا، ثم ينصرف، فكيف يصيب حلاوتها؟!

اصبر واملأ رصيد حسناتك ما استطعت.

(٥)

ومما يُغفل عنه في أعمال القلوب، أن الاستغفار واجب ولو كان المؤمن مقيمًا علىٰ الذنب لم يتب منه، فالتوبة ليست شرطا للاستغفار، والله يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك؛ فإنه سبحانه لا يغفره إلا إذا اقترن الاستغفار بالتوبة.

والعبد يثاب علىٰ الاستغفار وربما أجيب وغُفر له، ولو لم يترك الذنب، والمغفرة هي أن يمحو الله إثم هذا الذنب فلا يعاقبه عليه حتىٰ لو لم يتب منه؛ ولذلك استغفر رسول الله لأقوام معلوم بيقين أنهم لم يتوبوا.

ويكون الاستغفار حينها مع ما يقع في القلب من خشية بمثابة العمل الصالح الذي يغفر الله به الذنب ولو من غير توبة؛ كما غفر الله لبغي بني إسرائيل ولم تكن قد تابت، وكما يغفر لصاحب البطاقة ولم يكن قد تاب.

ويكون الاستغفار حينها درجة تجعل هذا العاصي أحسن عند الله من العاصي اللاهي الذي لا يتوب ولا يستغفر.

يقول شيخ الإسلام: «بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع».

ويقول: «الاستغفار من غير توبة. فإن الله تعالىٰ قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال».

فداوم علىٰ الاستغفار حتىٰ وإن غلبك الشيطان واستعصت عليك نفسك فلم تتب.

(٦)

«إن الصلاة قُوت القلوب، كما أن الغِذاء قُوت الجسد، فإذا كان الجسد لا يتغذىٰ باليسير من الأكل، فالقلب لا يقتات بالنقر في الصلاة؛ بل لا بد من صلاة تامة تُقِيت القلوب»

ابن تيمية

(٧)

الكلمات والعبادات وان اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتا عظيما.

ومثل هذا في حديث المرأة البغي التي سقت كلبا فغفر الله لها، فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة، وليست كل بغي سقت كلبًا= يُغفر لها.

ابن تيمية.

(٨)

إبراز عبودية الخوف حين التماسك لجرأة نفسك أو حين الظواهر المؤذنة بحلول عذاب الله.

وإبراز عبودية الرجاء حين التماسك لانكسار نفسك بين يدي الله.

هذه طريقة السنة ومنهج السلف في الموازنة بين عبادات القلوب.

هذا مشهور معروف.

ونفسه، إذا وجدت مسلمًا واهنًا مستضعفًا تسلط عليه ظالموه، وزاد به الكرب عن سنن الكرب التي تعمنا كلنا= فإياك أن يغلب علىٰ قلبك شيء غير رحمته والشفقة له وذكر حسناته والدعاء له.

وإياك أن تستسلم لابتزاز من يريد أن تردف ذلك دائمًا بذكر نقائصه وسابق خطئه.

واذكر دائمًا أرحامه والمكلومين فيه؛ فإنهم مسلمون مصابون ليس في جسدهم مكان لسوط لسانك.

إن المؤمن يحسن الموارنة بين النصيحة والبيان وبين موالاة أهل الإيمان، والرحمة لهم والحدب عليهم، ويراعي في ذلك الزمان والمكان.

ورب رجل تدخله الجنة زفرة قلب مكلوم رحم بها مؤمنًا لا يزال له حق لا إله إلا الله، وأنه يحب الله ونبيه ودينه.

(٩)

تزكو النفس بالأعمال الصالحة وإدامة الاتصال بشعب الإيمان، مخلصًا في الطاعة مستغفرًا تائبًا من الذنب، صابرًا في الضراء شاكرًا في السراء، مستعملًا نعم الله في طاعة الله، عبدٌ شكور، له ساعة يستجم فيها لكنه مع ذلك قد عمَّر حياته بالطاعة والإيمان، فيصيب العبد سهمًا من كل طاعة، لا يخلو يومه من بضعة أعمال من شعب الإيمان مثل:

الخوف من الله، الرجاء، التوكل، الصبر، الرضا بالقضاء، محبة الله، محبة النبي ﷺ، المحبة في الله والبغض في الله، تعظيم الله وأوامره، حفظ حدود الله، سلامة الصدر، الطهارة، حسن الخلق، الرحمة، التواضع، الرفق، الحياء، العفاف، حسن العهد، بر الوالدين، صلة الأرحام، الإحسان بين الزوجين، العناية بالأبناء، إطعام الطعام، إكرام الضيف، الزيارة في الله، توقير الكبير، العناية بالمستضعفين، ذكر الله، طلب العلم، تعليم الناس، الدعاء، الاستغفار، الصلاة علىٰ النبي، الإصلاح بين الناس، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الهجرة والفرار من الفتن، أداء الأمانة، حفظ اللسان، إفشاء السلام، عيادة المريض، الصلاة علىٰ الميت واتباع الجنازة، الإقراض، الوفاء بالقرض، الذبح، حفظ الأيمان، كتابة الوصية، إماطة الأذىٰ عن الطريق ... إلخ.

هذا هو طريق تزكية النفس وتطهيرها وإصلاح فسادها وعيبها، والعلو بها نحو درجات الأولياء المقربين لرب العالمين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا،

قال: فمَن تَبِعَ منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا،
قال: فمَن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا،
قال: فمَن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا،
فقال ﷺ: ما اجتمعْنَ في امرئ إلا دخل الجنَّة».

(١٠)

تزكية النفس وإصلاح أحوالها الإيمانية أوسع من «يجوز» و«لا يجوز»

وكثيرٌ من الطاعات مما يقول الفقهاء فيه «يجوز تركه»= لا تزكو النفس بهجرانه، وما قالوا هم بجواز تركه ليُتوسل بذلك لهجره.

لهذا، فترك نوافل العبادات ليس معصية إن نظرت له نظرا رياضيا تجريديا، لكن من حيث الواقع، فإن استدامة هذا الترك يؤدي لتوفر البيئة الصالحة لدبيب كافة أنواع المعاصي إليك.

فهذه الأبواب هي سور الفرائض وحمىٰ المحارم، من أضاعها= أضاع ما وراءها.

قال الإمام الشاطبي:

«إذا كان الفعل مندوبا بالجزء كان واجبا بالكل؛ كالأذان في المساجد الجوامع أو غيرها، وصلاة الجماعة، وصلاة العيدين، وصدقة التطوع، والنكاح، والوتر، والفجر، والعمرة، وسائر النوافل الرواتب؛ فإنها مندوب إليها بالجزء، ولو فرض تركها جملة= لجُرح التارك لها».

(١١)

والنفس إذا عرضت لها الوساوس في الله ورسوله ووحيه ودينه= لم ترتد إلىٰ شيء يشفي وساوسها أحسن من إدمان النظر في هذا الوحي نفسه، مع الصلاة والدعاء وذكر الله ﷻ؛ فإن ذلك يحيي فطرة النفس، وهي وحدها كفيلة بإبادة هذا الوسواس كله.

(١٢)

من تمام نعمة الله علىٰ عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلىٰ توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحدا سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف أو الجدب أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك (أي حصول اليسر والفرج) لذَّات بدنية ونِعَم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن، وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين= فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال، أو يستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه.

ولهذا قال بعض السلف، يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرب باب سيدك.

وقال بعض الشيوخ: أنه ليكون لي إلىٰ الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك.

لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قضي انصرفت، وفي بعض الإسرائيليات، يقول الله: يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

ابن تيمية.

(١٣)

ذكر الموت، وزيارة القبور، وعيادة المرضىٰ، والعزاء واتباع الجنائز= كلها أبواب من الطاعة حثت عليها الشريعة، وجميعها يستثير في النفس مشاعر تؤلمها.

وهنا يظهر لنا المجالان الأساسيان للتعامل مع المشاعر المؤلمة:

الأول: فعل الصواب برغم الألم، وتعلم العيش مع هذا الألم وألا نتولىٰ عن مسؤولياتنا لأجل اقترانها بما يؤلمنا.

والثاني: توظيف تلك المشاعر المؤلمة في ترقيق القلب وتذكير الإنسان نفسه بأنه ضعيف يفنىٰ وأن الآخرة خير وأبقىٰ.

(١٤)

مما يخلط فيه الناس في التعامل مع البلاء: الفرق بين الصبر والرضا.

الصبر: حبس النفس عن التسخط علىٰ أقدار الله، حتىٰ لو كان البلاء الذي حل بك يؤلمك وتضيق به وتحزن لأجله، وحتىٰ لو كنت ترغب في زواله عنك، فكراهته والرغبة في زواله لا تنافي الصبر طالما حبست نفسك عن شكوىٰ ربك والاعتراض علىٰ قدره، وإنما معيار الصبر ألا ترفض بقلبك سلطان الله الذي به قدر عليك البلاء، وألا تعترض علىٰ سلطان الله بلسانك أو بجوارحك، أو تلوم الله علىٰ فعله؛ فإن كان هذا مع عدم الكراهة فهذا كمال الصبر، لكن طالما هو مع الرغبة في الزوال فيبقىٰ صبرًا وليس هذا هو الرضا الذي هو المقام الثاني.

والمقام الثاني هو الرضا: وفيه تألم للبلاء، وتكره ما يؤلمك منه، ولا تبكي لأجل نزول البلاء بكاء ترثي به نفسك، ولا تتمنىٰ زوال البلاء، فتجد ألمه لكن لا تتمنىٰ زواله، كما تجد الأم ألم الحمل ولا ترجو زواله بل تحب بقاءه لما ترجوه من عاقبة هذا البقاء.

وهذه المنزلة عالية لا ينالها إلا كملة المؤمنين، ولا ينالها المؤمن في كل حال بل يصيبها حين وتفوته في أحيان كثيرة.

ما هو الحزن والبكاء الذي ينافي الرضا؟

ما يكون لفوات حظك من المفقود، أما ما يكون رحمة بالمفقود فهذا لا ينافي الرضا.

فالناس حين أمرهم لك بالرضا بالبلاء وأن تحب بقاءه لما فيه من الخير= يأمرونك في الحقيقة بمستحب لا يجب عليك، وإنما الواجب هو

حبس النفس عن التسخط بالقلب واللسان والجوارح أو الاعتراض علىٰ سلطان الله وقدره بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

أما تمني زوال البلاء وأن تود لو أن لم يقع أو تمني زواله وسؤال الله أن يكشفه عنك= فهذا جائز، وصرفه للدعاء يجعلك في عبودية أخرىٰ، لكن يفوتك بهذا مقام الرضا، الذي فيه يختار العبد لنفسه ما اختاره له ربه فلا يسأل الله أن يدفع عنه ما أراد الله أن يوقعه به.

أما المقام الأكمل فهو مقام الشكر وهو أن يؤدي التفاتك للنعمة الكامنة في نفس البلاء إلىٰ أن تشكر الله عليه فلا تكرهه ولا تتمنىٰ زواله وإن كنت تألم منه، لكنه ألم لا يحفزك للكراهية ولا لتمني الزوال بل ترجو أن يزيدك الله من جنس ذلك البلاء ما تزداد معه تلك بصيرتك بتلك النعمة التي أبصرتها.

قال شيخ الإسلام:

«الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل فهذا الرضا مستحب في احد قولي العلماء وليس بواجب وقد قيل انه واجب والصحيح ان الواجب هو الصبر كما قال الحسن البصري رحمه الله الرضا عزيز ولكن الصبرمعول المؤمن».

قال ابن القيم:

«**مراتب الناس في المقدور ثلاثة**: الرضا، وهو أعلاها، والسخط، وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به، وهو أوسطها، فالأولىٰ للمقربين السابقين، والثالثة للمقتصدين، والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر علىٰ المقدور فلا يسخط، وهو غير راض به، فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل علىٰ بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم، وظن أنهما متباينان، وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض

به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها، فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به . . . فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راضٍ عمن قضاه وقدره. بل قد يجتمع تسخطه والرضا بنفس القضاء.

وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربًا وإلهًا، والرضا بأمره الديني فمتفق علىٰ فرضيته، بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا أن يرضىٰ بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا.»

(١٥)

لماذا نركز علىٰ فعل الطاعات ولا نحب أن تقف الناس مع ذنوبها؟

لأن الوقوف مع الذنب إذا زاد عن الحد الواجب= أضر ولم ينفع، وكان بابًا من أبواب الشيطان، يُقعد به الإنسان ويُضعف عزيمته.

الواجب أن تندم وتتوب وتذكر ذنبك إذا أسرفت في الرجاء أو اعجبتك طاعتك أو وجدت في قلبك كبرًا علىٰ الناس، أي ذكر للذنب خارج هذه الحدود= هو نوع من النواح والعويل لا يفيد.

أينشتاين له عبارة جميلة ذكرها والتر إيزاكسون في سيرته، يقول فيها:

الحياة مثل ركوب الدراجة، لكي تحافظ علىٰ اتزانك= لابد أن تستمر في الحركة.

لو توقفت عن الحركة ستسقط، وكثير من نواح الماضي وجلد الذات يقود للسقوط المريع.

قاعدة الشريعة واضحة: إن الحسنات يذهبن السيئات، ولذلك كان ترك الطاعة أعظم من فعل الذنب كما بينه وأبدع فيه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

والشيخ نفسه يقول: «النفسُ مثل الباطُوس -وهو جُب القَذَر- كلما نبشتَه ظهر وخرج. ولكن إن أمكنك أن تَسقُف عليه، وتعبره وتَجوزُه= فافعل، ولا تشتغل بنبشه؛ فإنك لن تصل إلىٰ قراره، وكلما نبشت شيئا ظهر غيرُه»

إن التوسع في نبش النفس باسم الصدق معها أو المحاسبة قلما ينفع، وإن القدر الضروري من الصدق والمحاسبة أقل بكثير مما يبذله الناس من الحفر المُدمي مع ما يعقبه من العويل والشكوىٰ علىٰ ضعف نفوسهم، والعاقل من تفكر في عيبه بقدر ما يقوده ذلك للمداواة، لا بقدر ما يقعده ويجعله يبغض نفسه ويحقرها حتىٰ يقنط من نفسه قنوطًا ينتهي غالبا بأن يقنط من رحمة ربه، وهذا من الأبواب العظيمة للفرق بين الأحوال النبوية والأحوال الصوفية.

إن ما فات لا يعود، والندم الذي يحبه الله هو ندم يُتخذ وقودًا للحسنات، وخوف الذنب الذي يرضاه الله، هو خوف تستعين به إن أعجبك عملك أو غرتك نفسك بحسنة وفقك الله إليها، وليس أشفىٰ للنفس بعد ذلك من نسيان يحملها علىٰ العمل، ولا أضر عليها من ذكرىٰ تؤرقها فتقعدها فتكسرها فتقتلها.

ولقد رأيت كثيرًا مما يُقعد الناس عن العمل يرجع إلىٰ باب ذكرىٰ عيب النفس ونقصها، ونبش ماضيها وبقعها المظلمة، ثم لوم النفس

وجلدها، واحتقار أن تأتي خيرًا أو يُرجىٰ منها نفع، أو حتىٰ - وذلك مسلك قوم آخرين - تحويل الماضي إن كان من جناية الناسِ عليك= إلىٰ مشجب يُعلق الإنسانُ عليه قعود نفسه وتضييعها لعمرها وتبديدها لطاقاتها

(١٦)

أشعر بخواء روحىٰ شديد وأحتاج أن أحيا بالقرآن فكيف ذلك وما الطريق؟

الطريق هو أن كل علاجات النفس والقلب الإيمانية وحتىٰ الدوائية تحتاج لصبر وطول معالجة ومدة زمنية مع التكرار والروتين.

الفكرة كلها في برنامج بسيط تداوم عليه سنة واحدة بس وسترىٰ الفرق بإذن الله

الصلوات الخمس في جماعة علىٰ الأقل بنسبة الثلثين

وجهز نفسك تدخل المسجد مع الأذان تصلي السنة وتقرأ القرآن الكريم حتي إقامة الصلاة

الصدقة مرة يوميًا ولو بشيء بسيط

ومرة شهريا ولو بعشرين جنيهًا تزور بها مسكينا في بيته وحبذا لو من أقاربك (ما يقارب كيلو من الفاكهة)

عيادة مريض ولو مرة شهريا

زيارة المقابر ولو مرة شهريا

ألا تقصر في نفع الناس قدر طاقتك

بر والديك

كثرة الذكر والدعاء في أوقات فراغك.

(١٧)

في قعر مهما بعد، وفي بقعة مهما انزوت، وفي ناحية من النفس مهما أحاطت بها الظلمة= تقبع فطرة الخير التي فطر الله الناس عليها.

والذين يرجون رحمة الله لا يَقنطون قط من استيقاظها، ولو في أشد الناس ضلالًا وطغيانًا وكفرًا.

والذين يخافون عذاب الله لا يطمئنون قط، حذرًا أن يطمس الله علىٰ قلوبهم في ساعة وهم لا يشعرون.

ولا يظلم ربك أحدًا، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون.

(١٨)

الإنسان كائن هش ضعيف جدًا، لكنه -للأسف- لا يشعر بهشاشته هذه إلا حين يمرض، أو يقع في ضائقة، أو تحل به مصيبة.

أما سوىٰ ذلك= فإن الإنسان يطغىٰ، ويغفل، وينسىٰ، ويجحد.

وقدرة الإنسان علىٰ استحضار هشاشته وضعفه، وافتقاره إلىٰ مولاه في السراء، لا في الضراء= هي أحد الموازين المهمة التي يقاس بها إيمان القلب.

(١٩)

ومما أتلمسه كلما سمعته= أدعية العامة؛ فإن فيها من صدق الإبانة، وحرارة الطلب ما لا تجده في تكلف متفاصحي المحاريب.

ولا شيء أقرب إلىٰ ربك من انصراف الكلام من قلبك إلىٰ لسانك لا تتكلف فصاحته ولا إعرابه، ففي صدق البيان وحرارة اللجوء ما يغنيك عن تشقيق الألفاظ.

أطلق لسانك اليوم بالدعاء، بمأثور الوحي وكلام رسول الله، وبما تفيض به نفسك ويلمس خضوع قلبك وإن لم يكن مزينًا ومحبرًا ومتفاصحًا.

ومن بديع كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن أصل الدعاء من القلب، واللسان تابع للقلب، ومن جعل همته في الدعاء تقويم لسانه أضعف توجه قلبه.

(٢٠)

شكر نعمة الله أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد تدبرت في علامات ضعف القلب عن الشكر فإذا من أعظمها نسيان الفضل، والغفلة وترك وصال من لهم يد عليك أعطوك بها ورفعوك ولم يبخلوا عنك، وترك العرفان بالجميل لأصحابه، كأنما لم يوجدوا وكأنما لم يسق الله لك الخير علىٰ أيديهم.

ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

(٢١)

ويكون الاستغفار حينها مع ما يقع في القلب من خشية بمثابة العمل الصالح الذي يغفر الله به الذنب ولو من غير توبة؛ كما غفر الله لبغي بني إسرائيل ولم تك تابت، وكما يغفر لصاحب البطاقة ولم يك تاب.

ويكون الاستغفار حينها درجة تجعل هذا العاصي أحسن عند الله من العاصي اللاهي الذي لا يتوب ولا يستغفر.

يقول شيخ الإسلام: «بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع».

ويقول: «الاستغفار من غير توبة. فإن الله تعالىٰ قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال».

ويقول الشيخ في نص جامع: «وأما الاعتراف بالذنب علىٰ وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا في نفسه الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه. وهو كالذي يسأل الله تعالىٰ أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا لا ييأس من رحمة الله، ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داع دعوة مجردة. وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا كان بين إحدىٰ ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلها؛ وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها، قالوا: يا رسول الله، إذًا نُكثِر قال: الله أكثر» فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة، وإذا لم تحصل فلا بد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء.

وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله علىٰ وجه التوبة أو يدعي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائبا، فإن التوبة والإصرار ضدان: الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة.»

فداوم علىٰ الاستغفار حتىٰ وإن غلبك الشيطان واستعصت عليك نفسك فلم تتب.

(٢٢)

هجر القرآن.

هجر الجماعة في المسجد.

تضييع رواتب الصلاة والصيام.

غياب الصدقة كممارسة متكررة ومنهجية.

جفاف اللسان من الذكر.

سوء الصحبة أو الخلو من الصحبة الصالحة.

من العبث بعد هذا أن تشتكي همًا، أو ضيقًا في الصدر، أو حرمانًا للتوفيق، أو معصية غالبة.

أنت من فتحت نوافذ قلبك للهوام تعشش فيه.

عندما يقع البلاء أو تُقبل الفتنة= ينتصب الشيطان؛ فهي ساحة معركته معك، فإما أن يجدك آخذًا للأهبة معدًا للعدة= وإما أن يجد خصمًا سهلًا قد بدت مقاتله.

الطاعة درع القلب.

(٢٣)

يعرف العبد ربه ويتقرب إليه بما يفعله العبد من الطاعات والقُرب، من طلب العلم والتوحيد والصلاة والصيام والزكاة والصيام والحج إلىٰ آخر شعب الإيمان.

ويحدث للعبد طريق آخر يعرف به الله، ويجد فيه أن قلبه قد اتصل بربه اتصالًا يجد أثره وتزكو به نفسه، وذلك فيما يقع للعبد بغير سعي منه، مثل ابتلاء يخضع به لربه ملتجئًا مفتقرًا، أو ذنب يقع بك فيكسر عُجبك وطول أملك ويقوي خوفك، أو ملاقاة مبتلىٰ أو مريض أو مسكين تُحدث اللقيا في العبد رقة تقربه إلىٰ مولاه، أو كلمة يسمعها العبد أو يقرأها تفجؤه بلا سعي منه فتحدث فيه إيمانًا لم يسع إليه ابتداء.

وهذا الطريق لمعرفة الله والقرب منه طريق لطيف يستحق التدبر والتأمل ويستحق الحمد والشكر؛ وذلك لأنه طريق ساقه الله إلىٰ العبد بغير اختيار منه، فالله هنا يتفضل علىٰ العبد تفضلًا خالصًا، واستحضار أن الله تفضل علي بأن أهداني طريقًا يعرفني به ويقربني إليه؛ استحضار هذا المعنىٰ، استحضار معنىٰ الإهداء الإلهي= يُعظم في العبد قدر الله، ويزيد من حسن الظن بالله، كما أنه دواء لجلد الذات والندم المُقعد.

فأنت تقول في نفسك: قد علم الله في خيرًا فلذلك أسمعني.

(٢٤)

هناك ستة محاور ينبغي أن تكون هي عمود نظر الإنسان ومعيار قياس قوله وعمله، علىٰ اختلاف درجاتها. وغيرها لا ينبغي أن يكون إلا علىٰ الهامش منها.

الأول: التعرف علىٰ الله تبارك وتعالىٰ وأسمائه الحسنىٰ، ومظاهر تجلي آثار هذه الأسماء علىٰ الخلق والكون، والتواصل مع الطبيعة والكون بعين تتفكر في آثار أسماء الله= باب مهجور من أبواب التعبد والإيمان.

الثاني: الوحي الذي اختص الله به أمة الإسلام؛ ليكون هو الكتاب المحفوظ الباقي حجة علىٰ الأمم كلها إلىٰ يوم القيامة.

الثالث: سيرة وأحوال وهدي سيد ولد آدم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

الرابع: سيرة وأحوال وهدي أنبياء الله، والصفوة المختارة من خلقه وما قصَّهُ الله علينا من أخبارهم ليكون فيه عبرة لأولي الألباب.

الخامس: سيرة وأحوال وهدي أولياء الله الصالحين، بداية من الملائكة المقربين وانتهاء بعلماء الإسلام وعباده المشهود لهم بالخير، ومرورًا بعباد الله الصالحين من أولياء الأمم قبلنا كالخضر ولقمان وآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، ووقوف يطول عند أخبار الثلة المباركة من أصحاب نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

السادس: كل حق وخير وحكمة يجدها الإنسان عند كل متكلم بها

علىٰ اختلاف ألسنة المتكلمين وألوان عقائدهم وأفكارهم، وعلىٰ امتداد تاريخ العالم؛ والحكمة ضالة المؤمن.

(٢٥)

من نعم الله العظيمة علىٰ الإنسان، ألا يكله إلىٰ نفسه، بل يعينه بحوله وقوته، ويدبر له أمره.

ونحن ندعو الله في مطلوبنا ونلح عليه؛ فإذا حصل هذه المطلوب لم نذكر الله شاكرين إلا ساعة من نهار هذا إذا ذكرناه، ثم يتعلق ذكرنا بالأسباب، فنقول ثم قابلت فلان، ثم أعطاني فلان، فتوسط لي فلان، فكتب لي الطبيب دواء عالجني.

إننا نغفل عن أن هذا كله بالتدبير الإلهي، ولا نعطي التدبر في تصاريف التدخل الإلهي حقه من التأمل والتفكير ثم الدهشة والعجب والشكر والنظر للأسباب علىٰ أنها محض أسباب لولا أن يسرها الله لم تكن ولا كان مطلوبك.

والعجب أنا نذكر ربنا شاكين متذمرين إذا لم يحصل مطلوبنا، فيكون الله في الضيق مَشكُوًّا وفي الفرح منسيًا، كما كانت أمي تردد دائمًا.

إن الإنسان لربه لكنود، وكان الإنسان كفورًا.

عن أبي رِمْثَةَ رضي الله عنه أنَّه قالَ للنَّبيِّ ﷺ: «**أَرِنِي هذا الذي بِظَهْرِك؛ فإنِّي**

رجلٌ طبيبٌ، فقال له رسول الله: اللهُ الطَّبِيبُ (إنما الطبيب هو الله)، بل أنت رجلٌ رفيقٌ، طبيبُها الذي خلَقَها».

(٢٦)

ليست زهرة الدنيا بالضرورة مكافأة، ولا قسوتها عقابًا..

في القرآن امتنان الله علىٰ قريش وعرب مكة في جاهليتهم وكفرهم بأنه أنعم عليهم بالأمن وأنه تُجبىٰ إليهم ثمرات الدنيا وزهرة تجارات الأمم.

وفي نفس القرآن خطاب الله للمؤمنين بأنه سيبتليهم بالخوف والجوع ونقص الأنفس والأموال والثمرات.

ليست سراء الدنيا بأهون ابتلاء من ضرائها، ولربما كان نعيم الدنيا جسرًا يقود إلىٰ جحيم الآخرة، فأي شيء ينتفع به من أنعم الله عليهم بالأمن والعافية إذا ضيعوا شكر ربهم وضلوا الحق وأضلوا الخلق؟!

وأي شيء يضر من مستهم البأساء والضراء وزلزلهم الخوف ومسهم الجوع والقرح= إذا صبروا وعرفوا لله قدره وللدنيا قدرها وأن غمسة في الجنة تنسي كل شقاء؟!

(٢٧)

هل من قاعدة يجب أن نتمسك بها في الحياة؟

بالطبع ستختلف القواعد باختلاف المجالات والمواقف لكن القواعد الأساسية يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- أن يكون الله، وأن تكون النجاة في الآخرة هي المحور المركزي الذي علىٰ أساسه يتم ترتيب أولويات الحياة، وتتحدد بواسطته الخيارات الأخلاقية.

٢- أن يكون النفع الذي يحبه الله، سواء نفع الذات أو المحتاجين، أو النفع بما يصلح الدنيا، والنفع بما ينجي يوم القيامة= هو المحور المركزي الذي نقيس به فعالية وجدوىٰ وقيمة الأشياء والتصرفات والعلاقات.

٣- العلم والمعرفة وجمع المعلومات الأساسية وتحصيل المهارات الفعالة واكتساب الخبرات الضرورية فيما يتعلق بأمر الدنيا أو أمر الآخرة= كل ذلك ينبغي أن يشغل مساحة مهمة من أولويات يومك، وهو شحذ السكين الذي يسهل القطع.

٤- العبادة والذكر والقرآن، وأداء الحقوق لأهلها، ومساعدة المحتاجين، والصبر في الضراء، والشكر في السراء، والاستغفار عند التقصير، وألا تفرغ يدك من صالحة تعملها لدنياك وآخرتك= هذا كله هو وقود الاستمرار في الحياة.

٥- المراقبة والمراجعة المستمرة للعلاقة التبادلية بين العلم والعمل، ومعالجة أي اتساع يظهر في الفجوة بينهما، والصبر علىٰ مداواة العيوب وتخفيف آثارها وتقبل الذات وحسن تقديرها في الوقت نفسه.

٦- تحمل مسؤولية الخطأ بشجاعة، والحذر البالغ والمعالجة الجادة السريعة لعلامات الاستسلام وبوادر اليأس ومشاعر الإحباط عند وجود القصور أو الفشل أو السقوط، وألا نستغرق في جلسة السقوط إلا بقدر ارتكاز الأيدي علىٰ الأرض والعودة للقيام.

٧- جودة اختيار الأصحاب، وشبكات العلاقات، والاستثمار في ذلك، وحسن إدارة التعامل مع المواقف الحرجة والأشخاص السيئين، وتعلم مهارات ذلك.

(٢٨)

حسن الظن ليس رجاء حدوث المأمول، ولكن حسن الظن أكمله وأحسنه هو أن ترىٰ في المنع خير كما أن في العطاء خير، وأن تجمع همك علىٰ استكشاف المعنىٰ المستتر خلف المنع.

ولا تظن أن كل المنع يكون لشر كامن في العطاء بل كثير من المنع هو منع لخير ترجوه وتحبه لكنه في الحقيقة لا ينفعك.

وحسن الظن بالله لا يعني تعطيل الأسباب أو منع إدارة التصرفات وفق الموارد والقدرات، وإنما تأخذ بالأسباب وتدير أمرك وفق قدراتك ومواردك وتسأل الله البركة والتوفيق.

والله هو من أمر نوح بصناعة الفلك وقد كان قادرًا علىٰ أن يفلق البحر من غير أن يضربه موسىٰ بعصاه، ولم يكن ترك القتال عند زيادة عدد العدو عن الضعف إلا أمرًا علمنا الله إياه ولم يقل قط إن ذلك سوء ظن بنصر الله للمؤمنين.

(٢٩)

كل يوم من أيام العيش يحوي آلاف التفاصيل الصغيرة، أنت تنتقي وتختار منها ما تتيقظ له، وتننبه له، وتجلبه إلىٰ دائرة وعيك، وهذا الذي تنتقيه بنفسك هو الذي يصنع يومك.

لسبب ما قيل لك، امش إلىٰ الصلاة بسكينة ووقار، ولا تشبك أصابعك فيها، ولا تكثر من الحركة، ولا تنشغل بما فاتك منها، ولا بما يلهيك عنها، فقط أحضر وعيك هنا والآن، وانتق من كل هذا الذي حولك= ما ينير قلبك.

وكذلك الحياة كلها، اختر في يومك من كل تلك التفاصيل حولك ما ينير قلبك، ليس الماضي، ليس المستقبل، ليس الوجه المظلم لفهم الحاضر وتفسيره، وإنما فقط ما يجعلك فاعلًا وما يجعلك حاضرًا، وما يدعم سيرك ويقيك حزنًا يقعدك وهمًا يفسدك، أعاذك الله من ألم كالغشاوة يجعلك تمر بالنور فلا يجد إلىٰ قلبك منفذًا.

(٣٠)

من وجوه تفسير قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ما ذكره ابن عطية عن الزجاج وغيره قالوا: «أن الشيطان ذكَّرهم بذنوب لهم متقدمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاع عنها».

قلت: فالآية فيمن فروا من الزحف يوم أحد، فكان مدخل الشيطان إليهم أن خوفهم ذنوبهم خوفًا قعد بهم عن الطاعة وأدخلهم في هلكة معصية هي أعظم من ذنوبهم.

وهذا أصل عظيم كثيرًا ما أنبه عليه:

أن الندم المُقعد مرذول،

وأن الخوف الذي يكون طريقًا للإيغال في الضلالة مهجور مذموم،

وأن بغض المعصية وكراهة الذنب يُحمد طالما حركك للطاعة ولم يُذهلك عنها،

وأن الحسنات يذهبن السيئات.

(٣١)

سمعت رجلًا يقول لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: إني في كفاية [أي لا يحتاج للعمل].

فقال له الإمام أحمد: الزم السوق؛ تصل به الرحم وتجود به.

قلت: ومن تأمل هذا الجواب الذي ساقه المروذي في كتاب الورع= فتح له باب من النظر عظيم يدفع به الوساوس التي تعتري الناس في العمل والكسب.

مهن العمل الدنيوية، تنوي بها نوايا قريبة بسيطة، وتقصد بها إلىٰ دوائر النفع القريبة، فلا الدنيا هنا قُصِدت محضة لذاتها، ولا علق الإمام بها غاية أكبر من أن تحتملها.

(٣٢)

لا يحاسب الله الناس علىٰ توفيتهم شعب الإيمان ومكارم الأخلاق حقها؛ فإن ذلك لا يكاد يبلغه أحد، ولذلك شرع الله الاستغفار وسؤال القبول والإعانة عقب العبادات.

وإنما الشأن والمحاسبة علىٰ الوعي بالحق ومجاهدة النفس علىٰ التحلي به ودوام التوبة والاستغفار من كل سقطة وذنب ونقص.

(٣٣)

ومن أعظم ما يعين علىٰ الصبر أن تَعجل إلىٰ التدبر في موضع اللطف؛ فإنك لتجد فيه من الرفق والرحمة والخير المعجل والمؤجل ما يكون بردًا وسلامًا.

ومن بديع ما يشيع علىٰ ألسنة العامة قولهم: **قدَّر ولَطَف.**

ونفعني الله زمنًا بقول الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ: **إذا ابتليت فانظر إلىٰ الذي أبقاه الله لك لا إلىٰ الذي أخذه الله منك.**

• ومن نفيس الحكم العطائية: **من ظن انفكاك لطفه عن قدره= فذلك لقصور نظره.**

وترك التبصر بهذا فوق أنه يفسخ عزيمة الصبر= فإنه يضيع عبودية أخرىٰ وهي عبودية شكر الله علىٰ هذا اللطف وتلك الرحمة.

وإن ربك لذو فضل علىٰ الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون.

(٣٤)

ذكر الذهبي في ترجمة مسعود بن محمد الهمذاني أنه كان من خيار الناس.

وكان يحب الصفح **ويقول**: الماضي لا يُذكر.

فقيل: إنّه رؤي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: أوقفني بين يديه، وقال لي: يا مسعود، الماضي لا يُذْكَر، انطلقوا به إلىٰ الجنة.

(٣٥)

مرتبة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، ومن مثل في نفسه محبوبه كأنه يراه= ازدادت محبته وعظم شوقه وبلغ توق نفسه لرؤية الحبيب مداه، ولأن الله يقول: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾؛ فإن المحسنين يوم القيامة يجزون بما قال رسول الله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تُضامون (لا تتزاحمون) في رؤيته».

وكان من دعاء رسول الله: «**وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك الكريم والشوق إلىٰ لقائك**».

(٣٦)

الإنسان تقوىٰ نفسه علىٰ الشكر فيما يحدث بعد تعسر الأسباب، كما تقوىٰ نفسه علىٰ الدعاء فيما تعسرت به الأسباب، وهذا كله من ضعف التوكل، وإذا أردت تقوية التوكل والقيام بعبوديته فدرب نفسك علىٰ دعاء الله بالتوفيق والسداد في كل الأمر، ودرب نفسك علىٰ شكر الله علىٰ

نعمته مهما ظننتها بوهمك آلية الحدوث (احمد الله علىٰ راتبك الذي يصلك في المعتاد وعلىٰ أنك تجد طعاما علي الإفطار وعلىٰ هناك ملابس لديك لترتديها)

لا تتعامل مع شيء من عطايا الله علىٰ أنه مضمون.

يغفل الإنسان عن الشكر في أحيان كثيرة ولا شك.

لكن مقصودي هنا هو العمد إلىٰ الشكر ما استطعت، ومهما كان الشيء متوافرًا في حياتك وظننت وجوده أو حصوله مضمونًا مفروغًا منه.

ومن فروع ذلك في معاملة الناس:

ألا تتعامل مع خير يصلك منهم بشعور استحقاق وضمانة، حتىٰ ولو كان واجبًا عليهم، لا يوجد شئ اسمه أنني لا أشكر والدي لأن هذا واجبه، من لا يشكر الناس لا يشكر الله، ومن قصَّر في شكر الناس لوهم الضمانة، قصر في شكر الله غفلة عن تفضل الله بالإعانة.

(٣٧)

وليس المراد بقطع العلائق ألا يتعلق الإنسان بشيء؛ فذلك لا يكون، وقد فطر الله العباد علىٰ التعلق، كما فطرهم علىٰ المحبة والبغض، وقد كان لرسول الله فاطمة وإبراهيم، وخديجة وعائشة والصديق والفاروق، فليس موضع الابتلاء ألا نتعلق بمن نحب، كما أنه ليس موضع الابتلاء ألا نحب، وإنما موضع الابتلاء في أمرين:

الأول: أن يكون التعلق به سبحانه هو المهيمن علىٰ باقي التعلقات فلا يحمل تعلق منها علىٰ معصيته، ولا تعظم محبة من المحاب علىٰ محبته سبحانه.

ومن ذاك قوله عليه الصلاة والسلام: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»

والثاني وهو لب الروحانية والعبادة: القدرة علىٰ التسامي والانفصال عن سائر التعلقات ولو في غير معصية، لمجرد تحقيق الإيمان بأن الله أكبر، وهذه تحتاج لبيان أوسع أرجو أن يفتح الله به.

(٣٨)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه= تنقص رغبته في سماع القرآن، حتىٰ ربما كرهه.

ومن أكثر من السفر إلىٰ زيارات المشاهد ونحوها= لا يبقىٰ لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة.

ومن أدمن علىٰ أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم= لا يبقىٰ لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع.

ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم= لا يبقىٰ لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير».

قلت:

إن التعلق بالوحي وملء النفس به، والصلة بالله عبودية ومحبة وافتقارًا وقيامًا بالأمر والنهي والصلاة والذكر والصلة ونفع الخلق= كفيلة بسد حاجة الناس عن كل باب من أبواب اللهو ومتع الفن والجمال أو حتىٰ التعلق بالخلق.

وإن النفس لا تطلب نعيمها ولا سرورها ولا سعادتها من جهة غير جهة الله إلا لنقصها عن مراتب الكمال.

فطلب الناس لغذاء روحي غير الوحي ومتاع العبودية= إنما يرجع لنقص نفوسهم وضعفها، والخلل الموجود في قابلية المحل عندهم للانتفاع بالوحي.

فكثير من الناس لا يجد غذاء روحه في القرآن وإنما يجده في الأناشيد أو حتىٰ الغناء والموسيقىٰ أو السماع أو سائر فنون الفن والجمال واللهو= لنقص نفسه وقلة صبره علىٰ رعاية قلبه حتىٰ ينبت فيه الوحي ثمره، ويعظم ضرر هذا حين يستغني بما يملأ روحه من تلك الأبواب، ويحسب هذا ملء روح والوحي ملء روح، وهو هنا إنما يغفل عن فرق النفع والرواء بين البابين؛ فإنه ليس كل ما يملأ يكون نفعه واحدًا بل ولا خلوه من الفساد واحدًا؛ فإن الوحي مادة تملأ الروح كما لا يملأ غيرها وتنفع كما لا ينفع غيرها، وتروي كما لا يروي غيرها، وتخلو من الضرر كما لا يخلو غيرها، وهذا فرق ما بينها وبين غيرها، والفرق هاهنا لو تعلمون عظيم.

والله بخلقه خبير يعلم أن أكثرهم لا يطيقون مراتب الكمال تلك، ولو أطاقوها لصافحتهم الملائكة وهم يمشون علىٰ الأرض؛ لأجل ذلك أباح لهم من أبواب اللهو والباطل والتعلق بالخلق ما هو أنسب لطبيعتهم مما لو حرمها عليهم وأوجب عليهم طلب نعيم النفس من جهته لا غير لفتنهم ذلك وأضر بهم.

ومن هنا تعلم خطأ من يصرف الناس عن طلب متع الفن والجمال واللهو المباح، بينما عموم حال أكثر الناس أنك لو صرفتهم عن هذا= لطلبوا إحماض نفوسهم بالمحرم المحض؛ فإن هذا الصرف لن يقودهم لتمحيض نفوسهم للكمال كما تظن، بل لو أخذ من هذا النقص ما يصلح نفسه= كان مآل ذلك إلىٰ حال أكمل مما لو لم يأخذه.

فالله سبحانه إنما شرع لهم المباح منه دون ما تعظم مفسدته، وهذا المباح شرعه لهم بحيث لا يملأون به أرواحهم فتصير طرق القرآن للروح مسدودة، لكن الناس يفعلون فعل من اشتهت نفسه العدس مثلا فأكل منه أكلا أعاقه عن الانتفاع باللحم سائر يومه، فصار يشتكي أنه لا يشتهي اللحم، والحال أن من أسرف وملأ نفسه بلغو قليل النفع= لم يجن منه إلا زحمة الروح وضيق النَفَس، وأنه سد مسالك الأطيب والأحسن أن يصل إلىٰ روحه.

فآفة الناس أنهم ينسون أن هذا ما أبيح إلا من جهة أنه استصلاح اقتضته طبيعة نقصهم؛ فإن النفوس لا تصبر علىٰ طعام واحد ولو كان أشهىٰ وأكمل وأنفع، فيباح لها أن تأخذ شيئًا من الباطل الأنقص، علىٰ ألا تُسرف، لكنهم يستمرئون ذلك ويسرفون فيه، حتىٰ يغفلون به عن الوحي وطلب نعيم النفس من جهة الله، ويصير اللهو المباح لهم حالًا تنسيهم

ربهم، ويصير ما تعلقوا به من أبواب الفن والجمال فتنة تصرفهم عن دينهم، فتصير حالهم كحال من قطع ما بينه وبين ربه وصارت نفسه جرداء يتلمس إرواءها من كل سبيل إلا سبيل الوحي، وما له رواء.

(٣٩)

عن نمو الإنسان وتفرده وانتقاله عن موروثه وما ألفه من المعرفة والدين، إلىٰ وعي جديد بنفسه وبربه وبعالمه كله، يقول ابن القيم:

«قال المسيح للحواريين: إنكم لن تلجوا ملكوت السماوات حتىٰ تولدوا مرتين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها من عالم الطبيعة، كما ولدت الأبدان من البدن وخرجت منه. والولادة الأخرىٰ هي الولادة المعروفة.»

فللروح في هذا العالم نشأتان:

إحداهما: النشأة الطبيعية المشتركة.

والثانية: نشأة قلبية روحانية، يولد بها قلبه، وينفصل عن مشيمة طبعه، كما ولد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن.

ومن لم يصدق بهذا فليضرب عن هذا صفحا، وليشتغل بغيره.

(٤٠)

من الصور الخفية للإيمان بالغيب، صبرُ المبتلىٰ؛ فإن النعمة تُصدق إيمان المؤمن وتريه الإيمان شهادة لأنه يرىٰ نعمة الله عليه، أما البلاء فيتطلب جهدًا آخر تبقىٰ فيه مؤمنًا وأنت ترىٰ الألم وتعاينه.

لأجل ذلك كانت محنة البلاء السخط؛ لأنك تقول به أين الله، وكانت محنة النعمة في الغفلة لأنك تقول بها قد أمِنتُ مكر الله.

(٤١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تُميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء**».

ضرب رسول الله مثلًا للمؤمن بالزرع، تُميله الريح بما يصيبه من البلاء يمنة ويسرة، ثم يعتدل، وفي ذلك آية عظمىٰ علىٰ أن ضعف الإنسان ووهنه وانحناءه لا يعيبه بمجرده، فجذر إيمان قلبه راسخ في الأرض، وعليه يعتمد، فيعود كرة بعد كرة، والعيش مجاهدة، ولن يمل الله حتىٰ تملوا.

(٤٢)

الضعفاء الذين لا يجدون إلا جهدهم.

الأخرق قليل الحيلة الذي بذل وسعه فلم يطق أكثر من هذا.

الطيبون الذين جعل الله نصيبهم من ذكاء العقل زكاءً في النفس.

أولئك تدهسهم عجلة المادية، فلا مكان للضعيف هاهنا.

لكنهم في ديننا من أبواب الجنة، ومن خير من تصاحبهم في الدنيا فينفعوك في الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟**»

قيل لرسول الله: أفرأيت إن لم أستطع بعض العمل؟ قال: فتعين ضائعا، أو تصنع لأخرق.

قال رسول الله ﷺ: يقال للرجل ما أجلده؟ ما أظرفه؟ ما أعقله؟ وما في قلبه حبة خردل من إيمان.

الأشعث الأغبر المدفوع بالأبواب

الذين تزدري أعينكم

الضعفاء منكم

المهمشون الذين لا يؤبه لهم ولا يؤذن لهم ولا تسمح الدنيا ببزوغ نجمهم

لكن حسبهم أن الله عرفهم.

(٤٣)

ذكر الصحو من النوم، قيام الليل، صلاة الفجر، أذكار الصباح، صلاة الضحىٰ، السعي في العلم والعمل، صلاة الظهر، والتبكير للمسجد إن كان يوم جمعة، صلاة العصر، أذكار المساء، وفضل آخر ساعة يوم الجمعة، صلاة المغرب، صلاة العشاء، سنن الصلوات وأعظمها سنة الفجر، صلاة الوتر، صيام الإثنين والخميس، صيام ثلاثة أيام من كل شهر، شهر رمضان صيام نهاره وقيام ليله، صدقة الفطر، صيام الست من شوال، عشر ذي الحجة أعظم أيام النهار من العام فضلًا، يوم عرفة، الأضحية، صيام عاشوراء، الحج والعمرة، الزكاة والصدقة، صلة الرحم وبر الوالدين وحسن الخلق مع الزوجة والولد، والسعي علىٰ الأرملة والمسكين، وإعانة المحتاج، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، حق الجار وإكرام الضيف، وإماطة الأذىٰ عن الطريق، شكر المحسن ومدح من يستحق، النزاهة والأمانة وحسن المعشر وحفظ المعروف.

أعمال القلوب، التصديق بالشرع والتسليم والانقياد له، محبة الله ووحيه وأنبيائه وأوليائه، الصبر والشكر والخوف والرجاء واليقين والإخلاص والصدق والتوبة والإنابة، والحياء.

الذكر وقراءة القرآن وطيب القول وعفة اللسان وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة.

اجتناب الشرك والظلم وقول الزور والفواحش والزنا والقتل والسرقة والغصب والاعتداء وقذف المحصنات والغيبة والنميمة والكذب والحسد والحقد والكبر والغش والخداع والغدر والخيانة.

ذاك كله هو ما ينفعك وتجده يوم تفقد كل موجود غيره، وتذهل مرضعة عما أرضعت، ويقول كل الناس نفسي نفسي.

(٤٤)

لعل أحدنا يقول، أدعو الله منذ سنين بنفس الدعوات، موقنة بقدره وراضية بحكمه، متمسكة بآداب الدعاء وأوقاته المستحبة، ومع ذلك لا أجد لها استجابة. فهل يكون ذلك علامة علىٰ غضب الله عليّ؟

ولكن، هل لو كان الله غاضبًا عليك= كان سيهديك لعبادة عظيمة تتحري أوقاتها وتتأدب بآدابها.

نفس أن الله هداك للدعاء، وهذه الأوقات نفسها التي تقضيها في الدعاء= خير عظيم.

كان لنا أحد أصحابنا، ظُلِم في أمر ما، وقضىٰ أربعة أشهر مظلومًا حتىٰ فرج الله عنه، يقول إن الحالة الإيمانية التي كان عليها فترة ظلمه، وما كان عليه من الدعاء والابتهال وانكسار القلب بين يدي الله= يقول إنه لم يذق أحلىٰ منها في حياته، وعلىٰ الرغم مما هو فيه من النِّعَم الآن إلا أنه لا يستطيع الوصول لهذه الحالة مرة أخرىٰ.

(٤٥)

ربما قال بعضنا، بماذا يتميز المتوكلون علىٰ الله علىٰ غيرهم من الناس، ما دام حتىٰ الكافر إذا عمل واجتهد حصل النتيجة؟!

والصواب أن نقول: **من قال إن كل من عمل واجتهد حصَّل النتيجة؟**

لا ضمانة لهذا سواء كان كافرًا أو مؤمنًا وسواء توكل أو لم يتوكل، العالم حاشد بمن يعملون ويجتهدون ولا يبلغون مرادهم.

التوكل بالنسبة للمؤمن عامل مساعد يرجو به حصول مطلوبه، ثمَّ -وهذا هو الأهم لأن المطلوبات قد تتخلف فلا تحدث حتىٰ للمتوكل- التوكل هو عبادة قلبية، هو تعلق القلب بالله، فيحصل للإنسان بسبب ذلك التعلق من الأجر والثواب ونعيم الآخرة ما هو أحسن له من مطلوبه سواء حدث هذا المطلوب أو لم يحدث.

(٤٦)

من الأمور العظيمة التي تقف خلف الصلوات الخمس في اليوم والليلة، وتفسير النبي ﷺ لها أنها خمس مرات تغسل المصلي من الدرن والوسخ= أن هذا الدين العظيم لم يفترض فيك ولا حتىٰ ربع يوم نقي من الخطأ، وأنه لم يجعل مغفرة هذا الخطأ لأحد سوىٰ خالقك تضع رأسك بين يديه، وأنه يدلك بهذه الطريقة علىٰ أن محو النقص من النفس ليس هو

السبيل الوحيد، بل السبيل الأعظم والأكثر فاعلية هو مكاثرة النقص بالصلاح يغلبه وبالطاعة تغمره، فليس الشأن في زوال النقص وإنما الشأن في إحاطته بالجدر التي تمنع أن يسيل علىٰ روحك فيُفسدها ويُحيل بياضها سوادًا مطبوعًا لا زوال له.

(٤٧)

من إيمان العبد أن يعود علىٰ نفسه باللوم عند وقوع المصيبة، فالله تعالي يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾

لكن لا ينبغي أن يتحول ذلك إلىٰ نوع من الوسوسة وجلد الذات، فلوم النفس وسيلة للدافعية والبناء فإن تحول لباب للإحباط والاكتئاب والقعود كان ذلك من خطوات الشيطان وليس مرادًا لله ﷻ.

الأمر الآخر: في نظرنا نحن إلىٰ وقوع المصائب بالناس ينبغي ألا يقول واحد منا علىٰ الله بغير علم، فإن جزءا من المصيبة سيكون بسبب الذنب والتقصير لكن جزءًا منها غالبا ما يكون هو الأكبر والأعظم والأهم= يكون راجعا لحكم ومرادات لله أوسع بكثير من ضيق تفكيرنا، بحيث لا تكون العقوبة مقصودًا أصليا لله أصلا، فإن المصيبة أحيانًا تكون أوسع وأعظم من الذنب وتنال الصالحين بقدر ما تنال الطالحين، وكلاهما يكون في محل واحد وتقع عليهما مصيبة واحدة= وبالتالي فربطها بالذنوب فقط نوع من الغفلة عن مراد الله وتضييق لهذا المراد جهلا به، وفرق بين أن تكون المصيبة متعلقة في وجه من وجوهها بذنب وبين أن يكون الذنب هو

السبب الكافي الذي لأجله حلت المصيبة.

في رواية جسر سان لويس: قس مسيحي يبلغه خبر جسر وقع بالمارين عليه، ولأنه يفكر بنفس الطريقة الغلط صار يفتش في حيوات الذين تهدم بهم الجسر بحثا عن الذنوب العظيمة التي فعلوها فاستحقوا بها هذه العقوبة، فكانت المفاجأة أنه وجدها حيوات عادية فيها من وجوه النقص ومن جوانب الكمال ما هو مركب علىٰ وجه لا يمكن ربطه ربطا رياضيا بالمصيبة.

هذه الرواية الرائعة تكشف عن القصور الحاد في فهمنا لهذا الموضوع، وأن حياة الناس أعقد من أن تفهم هكذا، وأن أفعال المولىٰ تبارك وتعالىٰ أجل وأحكم من الضيق الذي تحمله عليها أفهام البشر.

(٤٨)

وقد يكون الإنسان وقد ضاقت نفسه، وغلبه حزنه، وأغرقته كآبته= فيريد أن يخرج من ضنك الحال بمعصية تخدر مزاجه، سواء كان ذلك بعين المخدرات، أو بما هو من جنسها من لهو يقود إلىٰ النار، وكم رأيت من رجال أشداء نفوسهم، كالجبال الرواسي قلوبهم= لم يجد الشيطان مسلكه لهم إلا في طغيان موجة الحزن هذه، في تلك اللحظة الخاطفة التي يحصل فيها انخفاض طاقة درع النفس؛ لضعف خطوط إمداد الروح بالفرح والتقدير وعزيمة الأفعال الكبيرة.

أخي:

هذا صاحبك يكلمك قد أضره ما أضرك، وقد أتيتُ إليك وقد عركتني التجربة فشاهدتُ حتىٰ عجبتُ، كم من سفينة لم تحطمها ريح، أو يكسرها موج، وإنما أغرقها أن أصحابها هم الذين خرقوا ألواحها.

معركة إنسانيتك لا يهزمك فيها حزنك،

قلعة إيمانك لا ينقبها بلاؤك،

وإنما الذي يهدم حصونك وأنت غافل= هو تلك الاستجابات الغلط لمحنة العيش ورهق التجارب.

(٤٩)

المحن فرصة عظيمة للتنوير وصقل الشخصية، لكننا لن نذهب لها بأرجلنا؛ فنحن نطلب الأمن ونخشىٰ الخطر، ولم يحب الله لنا أن نتمنىٰ البلاء فنهلك؛ لأجل ذلك يبتلينا الله به علىٰ غير رغبة منا ولا طلب، فيقوىٰ الظهر علىٰ حمل الأمانة، ويستخرج الله منا بالشدائد ما لا يُخرجه من المعدن الكريم إلا لهب النار.

وكم من إنسان قد خاض بسبب البلاء رحلة صنعت منه إنسانًا أفضل، علىٰ نحو لم يكن ليكونه لولا هذا البلاء.

(٥٠)

قال شيخ الإسلام:

والله تعالىٰ ذكر في القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل.

وقد قيل إن الهجر الجميل، وهو هجر بلا أذىٰ،

والصفح الجميل صفح بلا معاتبه،

والصبر الجميل صبر بغير شكوىٰ إلىٰ المخلوق،

ولهذا قرئ علىٰ أحمد بن حنبل في مرضه أن طاووسا كان يكره أنين المريض ويقول إنه شكوىٰ، فما أنَّ أحمد حتىٰ مات.

قلت:

فيما يقع للناس من بلاء، أو ما يقع عليهم من ظلم الناس لهم= قد يرضىٰ الناس بقدر الله، والرضا مستحب، وضابط الرضا ألا تطلب زوال ما بك ولا تحب زواله، وإن كنت تتألم منه.

وقد لا يقدر الناس علىٰ الرضا فيكفيهم الصبر وهو واجب، وضابط الصبر ألا تسخط أقدار الله بقلبك أو لسانك أو جوارحك، بل ترىٰ أن الله عدل معك ولم يظلمك، وتطلب فضله وأجره، ولا يعيبك أن تألم لما وقع بك ولا أن تطلب وتحب زواله.

ويباح لك أن تنتصر من ظالمك بالعدل.

ثم قد يقع من الناس حينها كف للسان واعتصام بالله من غير إظهار للألم أو دعاء بزوال البلاء، مع كونهم يحبونه، وقد يقع منهم التشكي من هذا الذي وقع بهم.

وضابط الشكوىٰ كل ما فيه إظهار الألم لما وقع بك أو محبة لزواله.

وضابط الشكوىٰ المستحبة أن تكون لله وهي مرتبة عبودية تنفع الصابرين وتعينهم.

وضابط الشكوىٰ المباحة أن تكون لمن ترجو منه من الناس مصلحة راجحة أو نفعًا فيه علاج لما وقع بك أو إعانة علىٰ الصبر مأمونة المفسدة الراجحة.

وضابط الشكوىٰ المذمومة أن تكون للناس ليس منها فائدة من رجاء نفع يعالج ما وقع بك أو يعينك علىٰ الصبر عليه.

وليس من الشكوىٰ الذكر العارض الذي ليس فيه تألم، ولا يمنع هذا إلا إن كان معه كشف لستر أو إعانة علىٰ الوقيعة المحرمة في عرض من تشتكي منه.

(٥١)

يتعلم الإنسان أشياء كثيرة عن نفسه وعن الناس وعن العالم، لكن قدرته علىٰ السيطرة والتحكم لا تتناسب أبدًا مع هذه المعرفة فهو لا يسيطر سوىٰ علىٰ القليل جدًا، فتظل دائرة المعرفة تتسع ودائرة التحكم تضيق، ومن هذا التباين يتولد واحد من أعظم التحديات الإنسانية:

كيف تجمع نفسك علىٰ ما هو داخل دائرة تحكمك، وكيف تقطع طمعك عما هو خارج دائرة تحكمك؟

كيف تقبل أن تعرف وتعجز عن التأثير، أن تعلم وتعجز عن التغيير،

كيف تقبل محدوديتك وتتصالح معها؛ لتستطيع صرف طاقتك إلىٰ ما سيسألك الله عنه حقًا؟

ومن عبارات السلف التي تحاول تقديم خلاصة للتعامل مع هذا التحدي، قولهم: لا تتولوا ما كفيتم ولا تضيعوا ما وليتم.

وفي دعاء السكينة: اللهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحكمة لمعرفة الفرق بينهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **لا بُدّ من التوكل علىٰ الله فيما لا يُقدر عليه، ومن طاعته فيما يُقدر عليه.**

(٥٢)

هناك دافع خفي يقف خلف رغبة الإنسان الملحة في أن يعفو عنه ظالمه؛ الدافع الظاهر هو التحلل من المظلمة فيسقط حق العبد وتبرأ الذمة منه قبل يوم الحساب.

أما الدافع الخفي فهو أن المخطئ قد ربط راحته ورضاه وسكون شعوره بالذنب= بأن يعفو عنه صاحب الحق، فطالب المسامحة في الحقيقة يبحث عن راحته ومصلحته ولا يبحث عن راحة ورضا صاحب الحق، وذلك في الحقيقة محاولة للتحكم بما هو خارج دائرة التحكم، فالذي يقع داخل دائرة تحكمك هو أن تتوب وتعتذر وتطلب المسامحة، أما أن يُجيبك

صاحب الحق إلىٰ ذلك فلا يقع هذا تحت داخل دائرة تحكمك، وتعلقك به مدخل للتعاسة وإفساد العيش.

ومن بديع تنبيهات شيخ الإسلام أنه يصرف العبد إلىٰ ما يقع داخل دائرة تحكمه فيوصي المؤمن بأن: «**يكثر من الحسنات ليوفي غرماءه وتبقىٰ له بقية يدخل بها الجنة**».

وفي ذلك فسحة لأصحاب الحقوق فليست وظيفتهم أن يريحوا من ظلمهم، بل وظيفتهم أن يريحوا أنفسهم فمتىٰ لم تطب نفوسهم للمسامحة فلا ينبغي عليهم تكلفها، إلا إن استطاعوا إدارة مشقة ذلك التكلف.

(٥٣)

الفعالية اليومي، الثابتة، والمنتظمة مهما قلت= هي أبقىٰ أثرًا وأعظم ثمرة من الفعالية التي تأتي علىٰ فترات، أو موسمية، ولو كانت هذه الأخيرة ثقيلة ومكثفة، بل نفس هذه الفعالية اليومية هي التي تؤهل للانتفاع الأتم والأكمل بالفعالية المكثفة الموسمية.

تلك قاعدة أساسية من قواعد العلم والعمل والعيش، ويمكنك تطبيقها علىٰ أشياء كثيرة، فتزيد من أثر إنجازك، وتعينك علىٰ تفسير كثير من الظواهر المحيرة لك، بداية من مذاكرة أيام الامتحانات اللي بتطير وانت خارج من اللجنة، وانتهاء بإيمانيات رمضان التي تنطفئ سريعًا، ومرورًا

بفرحة الفسحة مع أسرتك والتي لا تجد تفسيرًا لكونها لا تنعكس علىٰ باقي حياتكم.

المواسم المكثفة مهمة وضرورية، لكنها لا تؤتي أكلها إلا إذا غرست في أرض قد أخصبها الماء طوال العام ولو كان إخصابه لها مجرد قطرات.

(٥٤)

تكمن صعوبة الحياة في تعقيدها، واستعصائها علىٰ التوقع، وافتقادها في معظم الأحيان للقواعد، والإنسان محدود المعرفة والقدرة ورغم غروره الكبير وأوهام التملك والسيطرة التي يعيشها= ما زال عاجزًا عن فهم هذا التعقيد المُراوغ.

ربما لأجل ذلك يشيع إدمان الألعاب الإلكترونية في مراحل المراهقة والشباب؛ لأنها تعطيك إحساسًا بالسيطرة والتحكم، توفر لك نعمة الفهم التي تفتقدها في التعامل مع الحياة الواقعية، حتىٰ عندما تنهزم فأنت تفهم أنك انهزمت وفقًا للقوانين، بينما في الحياة الحقيقية لا يمكنك معرفة القوانين التي علىٰ أساسها تتلقىٰ كل هذه الهزائم.

الشعور بالذنب، وشهوة تحمل مسؤولية الأخطاء حتىٰ التي لا يد لنا فيها= إنما هو محاولة منا لإضفاء المعنىٰ علىٰ ما يحدث، نحن نحمل أنفسنا مسؤولية موت عزيز علينا؛ لأن هذا في الواقع أكثر راحة من أن نقبل الواقع

الحقيقي، وهو أننا لسنا المتحكمين، وأنه لا سيطرة لنا علىٰ ما يحصل حولنا.

ومن هذا كله تنبع قيمة القوانين الإلهية، التي تربط ما يجري في الدنيا بجزاءات يوم القيامة، وتُعطيك فرصة ذهبية لأن ترد للحياة لكماتها؛ فأنت لا تتحكم في الموجة التي تصدع بها الحياةُ روحك، لكنك تملك القدرة علىٰ تحديد الاستجابة، والاستجابة تحت سيطرتك، والاستجابة هي محل النظر الإلهي: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له.

(٥٥)

الدين الحق لا ينفي ما يجده الناس من المتعة والفرح والهناء فيما يستحلونه من أمر دنياهم، سواء كان حلالًا في الدين الحق، أو كان حرامًا أو كان محل خلاف.

المال حلاله وحرامه فيه متعة وسعادة.

متعة النساء حلالها وحرامها فيها فرح وسعادة ولذة.

الموسيقىٰ والغناء والرقص والصداقات المنفتحة والرحلات فيها متعة وسعادة.

الحفلات الصاخبة، ارتشاف الحياة لآخر قطرة، فيها متعة وسعادة.

السلطة والنفوذ والقهر والغلبة فيها متعة وسعادة.

الدين الحق يختار من كل ما تقدم حلاله ويدع حرامه ولا ينفي السعادة عن هذا الحرام لكنه يدعي شيئًا آخر، وهو أن له مفهومه الخاص للفرح والهناء والسعادة، ومفهومه الخاص للضيق والضنك كذلك.

له مفهوم لسكينة النفس وطمأنينة القلب ونشوة الروح يختلف تمامًا عما عند غيره.

وامتحان الإيمان إنما هو في فرق ما بين السعادتين.

الدين الحق يملك حالًا يدعوك لها لا تكون طمأنينتها خاصة بالسراء فحسب بل هي طمأنينة وسكينة في السراء والضراء، عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير.

الدين الحق يملك حالًا يدعوك لها تفرح الروح فيها بالقرب من ربها ومناجاته والخضوع بين يديه فرحًا لا تفقد معه شيئا ولا تبيعه بملك الدنيا كله فقط إن ذقته ووجدته نفسك.

تحسن لمسكين ويتيم فتشعر أن روحك تُغسل غسلًا وأنك لو مت هذه اللحظة لما فاتك من الدنيا ما يُبكىٰ عليه.

تترك محرمًا استجابة لأمر الله فتحس قوة لا يضعف أمامها شيء.

تسقط في الذنب فتقوم وترغم أنف الشيطان فلا يبقىٰ في نفسك شك أنك استحققت تشريف الله لك بالأمانة التي حملها لك.

تقضي هذه الدنيا تذوق السعادات كلها ولا تذوق سعادة هذا الدين= فإذا بالآخرة من ورائك تجد فيها ما توقن معه أنك ما ذقت هناء قط.

تقضي هذه الدنيا قد ذقت سعادة هذا الدين صابرًا في الضراء شاكرًا في السراء= فإذا بالآخرة من ورائك تجد فيها ما توقن معه أن لم يفتك خير قط ولا ذقت شقاء قط.

الدين ليس نارًا تشوي فيها روحك، وليس سوطًا تجلد به نفسك، الدين نعيم معجل يجده الساجدون بين يدي ربهم يتنفسون هواء بيت الله لا يحسبون أن في الدنيا من هو أسعد حالًا منهم.

(٥٦)

كل صباح مثقل بالهم والله، كل مساء مثقل بالهم، لا أظن أن شخصًا حي القلب يستطيع أن يتجاهل أو يغفل، لكن شهد الله إن النفوس عاجزة والألسنة معقودة وما باليد حيلة إلا القليل مما نجاهد لبذله عسىٰ أن يرحمنا ربنا.

(٥٧)

شكر نعمة الله أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد تدبرت في علامات ضعف القلب عن الشكر فإذا من أعظمها نسيان الفضل، والغفلة وترك وصال من لهم يد عليك أعطوك بها ورفعوك ولم يبخلوا عنك، وترك العرفان بالجميل لأصحابة، كأنما لم يوجدوا وكأنما لم يسق الله لك الخير علىٰ أيديهم.

ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

(٥٨)

لكي لا تنخدع، تأمل هذا جيدًا:

في الحديث العظيم الذي يصف فيه رسول الله القلبَ الفاسد: «**لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**».

ما معنىٰ هذا الاستثناء: إلا ما أشرب من هواه؟

معناه: أن صاحب القلب الفاسد يعرف معروفات وينكر منكرات؛ فإنه لا يوجد شر محض في بني آدم ففي كل إنسان شعبة من معرفة المعروف وإنكار المنكر.

لكن معرفة المعروف وإنكار المنكر يقعان لصاحب القلب الفاسد من جهة ميل طبعه وهواه، فيتفق لطبعه أو مصالحه محبة ما هو محبوب لله، وكراهية ما هو مكروه لله، لكنه لم يعرف المعروف أو ينكر المنكر تبعًا لما عند الله، وإنما اتبع في ذلك ميل طبعه، أو مصالحه العاجلة وأهواءه.

ولذلك يميل طبعه لمنكر آخر وينفر عن معروف آخر لأن الأساس عنده ليس هو الحد الذي يضعه الله للمعروف والمنكر وإنما الأساس عنده هو ميل طبعه، وميل الطبع لا يؤتمن لا علىٰ معرفة المعروف ولا علىٰ إنكار المنكر، ولذلك يجب علىٰ الإنسان أن يجعل هواه وطبعه تابعًا لما يقرره الوحي وليس قائدًا يقوده فيعارض الوحي أو يحرف الوحي.

ولو كان الدين بما يوافق الطبع لما ضيع الدين أحد من الناس ولاتبعوه جميعًا.

(٥٩)

ما الذي يطلبونه منك حين يطالبونك بالصلابة النفسية أو تُوصم بالهشاشة: إنهم في الحقيقة يطالبونك أن تقتل قابلية التأثر، أن تقتل حساسيتك العاطفية، رقتك، لطفك، قدرتك علىٰ الحزن والألم.

والذي ينبغي أن تعلمه هو أنك حين تقتل هؤلاء فإنك تقتل معهم قدرتك علىٰ العطف والرحمة، تقتل قدرتك علىٰ الحب.

يقولون لك: اخشوشن.

نعم. اخشوشن، خشن ثوبك لكن لا تُخشن قلبك؛ فإن خشونة القلب غلظة وجفاء.

وإن كثيرًا ممن ينعىٰ علىٰ الناس هشاشتهم النفسية= يعاني في الحقيقة من فقدان للتواصل مع نفسه، ويتعامل مع المحن بهروب وتجنب واصطناع للتبلد، والصمود الكاذب يبعدك عن نفسك أكثر مما تبعدك الهشاشة.

(٦٠)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «**ليس كل إنعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة**».

نعم. ليس كل امتحان أو ابتلاء يكون عقوبة علىٰ ذنب، والإسراف في

تقريع الناس في الكوارث والمحن بأن ذلك من ذنوبهم فوق أنه قول علىٰ الله بغير علم= ففيه من فقد التراحم والتعاطف والدعم والتعزية والمواساة ما يكشف عن الجهل أو قسوة القلب أو كليهما.

تخيل أن رجلًا مات ولده فذهبت وقمت عند أذنيه فقلت له: هذا البلاء بسبب ذنوبك!

هذا في الحقيقة هو واقع كثير من الناس الذين يضعون الحق في غير موضعه وهم مع وضعهم إياه في غير موضعه قد خلطوه بالباطل أيضًا، فلم يُراعوا المقامات، ولا بـ (ماذا) يخاطبون (من).

إنا لله وإنا إليه راجعون، أعان الله المبتلين من إخواننا المسلمين في هذه المحنة الكبرىٰ التي يمرون بها، وثبتهم وألهمهم الصبر وكشف عنهم الضر، وإن من أضر الضراء تكلم أناس بغير علم قد تسلطوا علىٰ إخوانهم بالأذىٰ، ولم يهدهم الله إلىٰ الطيب من القول.

الخطاب العام في المحن والأزمات الكبرىٰ يكون بتعزية المبتلين وبمواساتهم وليس بتقريعهم أو القضاء العام عليهم مع اختلاف مراتبهم أنهم أصحاب ذنوب كان هذا البلاء بالذات عقابًا لهم؛ فهذا لا سلطان لأحد يعلمه به، ومسارعة النفوس إليه مع اتساع مجال التعزية والمواساة والتراحم والتعاطف؛ يكاد يكشف عن طوية نفس لا تعرف للرحمة لسانًا.

(٦١)

ذكر الموت، وزيارة القبور، وعيادة المرضىٰ، والعزاء واتباع الجنائز= كلها أبواب من الطاعة حثت عليها الشريعة، وجميعها يستثير في النفس مشاعر تؤلمها.

وهنا يظهر لنا المجالان الأساسيان للتعامل مع المشاعر المؤلمة:

الأول: فعل الصواب برغم الألم، وتعلم العيش مع هذا الألم وألا نتولىٰ عن مسؤولياتنا لأجل اقترانها بما يؤلمنا.

والثاني: توظيف تلك المشاعر المؤلمة في ترقيق القلب وتذكير الإنسان نفسه بأنه ضعيف يفنىٰ وأن الآخرة خير وأبقىٰ.

(٦٢)

المشاعر ليست هي عمل القلب وسلوكه.

وهذا هو الفرق الذي يؤدي الجهل به إلىٰ فساد عظيم في العلاقة مع الذات ومع الله ومع الناس.

الشعور طارئ غير عمدي مؤقت غير راسخ، انفعالي لا رشد فيه، وعمل القلب نستحضره ولا يطرأ، ونقصد إليه فلا يفجأ، ونقدر علىٰ إدامته وترسيخه ويديره ذاك الضابط الخفي الذي أودعه الله عباده وسماه عقلًا وفقهًا وتدبرًا وتفكرًا ورشدًا.

أن تُظلم فيطرأ عليك الغضب ذاك شعور لا يد لك فيه، اقبله وافهمه وارحم نفسك التي خلقها الله ليبتليها، ولكنك إن قصدت إلىٰ هذا الشعورفغذيته ورسخته كان من عمل القلب فإن لم يكن له موضع يرضاه الله فإنه عمل سوء إن استرسلت فيه ملكك ولم تملكه وفي هذا الأخير قال رسول الله: لا تغضب، ولم ينهانا هنا رسول الله عن الشعور الطارئ ولا عن الغضب الذي هو عمل قلبي يرضاه الله كالغضب من انتهاك محارم الله، وإنما نهانا عن غضب غير محبوب لله نقصده ونغذيه فيرسخ فيُفسد.

أن تسمع خبر النار وعذابها فيتملكك خوف داهم، هذا شعور طارئ ليس هو الخوف الذي يحبه الله، فهذا إن استرسلت فيه قادك للقنوط من رحمة الله، وإنما الخوف الذي هو عمل القلب المحبوب لله فعل مقصود ينتج من المعرفة بالله الذي يرضىٰ فينُعم يتفضل فيغفر ويعدل فيعاقب.

يظلم الإنسان علاقته بذاته والناس إن أسلم قياد ذاته لمشاعره التي لم يفهمها ولم يتدبر فيها، ويظلم هذا الشعور إن رفضه ولم يقبله وقسا عليه، فإنما خلق الله الشعور لأنه أول العمل، فهو مولود ولد علىٰ الفطرة وينفعك أو يضرك بحسب ما تربيه أنت وتغذيه به.

ويظلم الإنسان نفسه والناس إن غفل عن عمل القلب المقصود ودوره في مراقبته وتفعيله.

ويظلم الإنسان علاقته بربه إن ظن هلع النفس الضعيفة خوفًا يحبه الله، وإن ظن سطوة النفس الجهولة غضبًا يحبه الله، وإن سمىٰ هوىٰ نفسه الضعيفة رجاء في رحمة الله.

الشعور مولود يستهل صارخًا لا ترحمه إن كرهت صراخه، ولا تنفعه إن نفخت في صراخه فجعلته قائدًا وحاكمًا.

وعمل القلب هو ولدك قد غذيته وربيته فإن فعلت ذلك بما يرضي الله أنبته الله نباتًا حسنًا وإن كان غير ذلك فحاذر منه فإنه عمل غير صالح.

(٦٣)

الألم يحفز قيمك ومكامن قوتك ويستفزها ويستخرجها، وحين يفعل الألم ذلك فإنه يعطيك فرصة لترىٰ هذا من نفسك وقد كنت غافلًا عنه حاطًا من قدر نفسك وقدراتها، فأنت ترىٰ الآن أن هذه النفس أقوىٰ مما كنت تحسب وتملك مخزونًا أعانها الله به علىٰ الصمود والتجاوز، وهذا المخزون يستحق منك أن تبصره وتفرح به.

(٦٤)

أراد رجل أن يتفرغ لطاعة الله فقال: وددت لو أني تركت الأسباب وأعطيتُ كل يوم رغيفين، فابتلي بالسجن وكان ترتيب السجن من الزاد: كل يوم للسجين رغيفان.

وسمع من يقول له: طلبت منا كل يوم رغيفين، ولم تطلب منا العافية، فأعطيناك ما طلبت.

لا يستطيع الإنسان أن يستغني عن سؤال الله تفاصيل حاجاته الدنيوية، فنفسه معلقة بالعاجلة، وبما يعجبه، ويغفل الإنسان عن أنه ليس كل ما

يعجبه ينفعه، وأن مخبآت القدر يعلم الله منها ولا نعلم.

ورسول الله يقول: «**اتقوا الله وأجملوا في الطلب**»، ومن الإجمال في الطلب منزلة يُرجىٰ أن يترقىٰ لها العبد وفيها يقل طلبه للتفاصيل الدنيوية ويتعلق بأدعية الوحي وما فيها من قلة التفصيل للأسباب والأغراض، ويكل أمره إلىٰ الله يكتب له الخير حيث شاء.

(٦٥)

من أثقل ما يكون علىٰ نفس المرء: هجمة الشجىٰ بلا سبب ظاهر.

يحس بروحه معها كأنما هي نبت واهن تفيئه الريح يمنة ويسرة.

يهطل دمع العين لا تدري ما أساله، ويغص الحلق كأنما فقد عزيزًا، فلا تدري ماذا يعتصر مجاريه.

تدبرت طويلا من أين تأتي هذه الهجمة، فلم أهتد إلىٰ شيء، إلا إن تكون هذه رحمة من الله بنفس طال أمد كتمانها ما تجد، فلو لم تروح عن نفسها بهذا النفس لانصدع قلبها.

(٦٦)

للروح والنفس بناؤها العضلي كما للجسد بناؤه العضلي، ومران الجسد علىٰ تجاوز الراحة بما يستفز قدراته هو طريق بنائه، وبناء النفس إنما يكمن في اختبار الخير والشر والصواب والخطأ والنافع والضار وأي ذلك كله تختار.

وفي كل مفترق طرق تختار فيه الخيار الصائب، ومع كل محنة تعبرها بسلام صابرًا راضيًا، ومع كل تمرين عملي علىٰ فعل الخير وترك الشر= فإن قوة تحمل نفسك لاختبارات الحياة ترتفع، وقابلية بنائك الروحي لمواصلة طريق العبودية تزداد، وبمضي عمرك وتتابع قيامك بتمارين الاختيار تصلب روحك حتىٰ تريك منك ما لم تحسب يومًا أنه يكون منك.

رغم ذلك وكما في التمارين العضلية الجسدية: يؤدي الإسراف في حمل الأثقال، وعدم مراعاة حاجة العضلة للاستشفاء= إلىٰ ضعف العضلة وهدمها، وكما تخور قوة الجسم فيخون صاحبه، تخور النفس وتقعد ولا تحمل ما كان صاحبها يظن أنه يؤهلها لحمله؛ جراء تلك الآصار والأغلال التي كلف نفسه حملها يحسب أنه يبنيها وهو هادمها.

الإسراف في تعريض النفس لاختيارات لا داعي لها، وتحميل كل تصرف بالقيمة بحيث يُطلب لكل تصرف إجابة نموذجية قيمية.

تمني البلاء وتعريض النفس للمحن بل لوم النفس علىٰ يسر العيش.

شهوة التشديد علىٰ النفس وحملها علىٰ مشاق قد تطيقها لكنها تهدم قابليتها للحمل علىٰ المدىٰ البعيد.

ترك إجمام النفس بما يمتعها والترويح عنها بما يصلحها.

وبين البلاء الغالب وهو ضعف النفس وترك مجاهدتها علىٰ العمل وتربية قدرتها علىٰ التحمل بتمرينها علىٰ أنواع ومراتب الاختيارات، والبلاء الأقل بأخذ النفس بالعزائم والمشاق حتىٰ تخور العزيمة فيقوم الليل كله وتنهدم عضلته عن صلاة الفريضة= بين هذين البلائين يُضيع الناس نفوسهم التي هي دابتهم وسفينة رحلتهم، فهم بين متفنن في تخريق سفينته تحصيلًا لعاجل شهوته، ومنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ.

(٦٧)

«**معرفة أني لن أستطيع الحصول عليك مؤلمة، لكن تجربة الوقوع في حبك كانت تستحق كل ألم**».

قلت: وأصل ذلك أن الحب وإن انتهىٰ إلىٰ خيبة أمل ووجع وألم= فهو يرقق الطبع ويُرهف الحس، ويصل الإنسان باحتياج التعلق الذي هو مدار المحبة، والمحبة مدار خلق الكون كله، وأساس الصلة التي تكون بين العبد وربه، فإذا تلامس الإنسان مع هذا الجزء من نفسه قاده التوفيق إلىٰ رقة النفس وصلة ربه، وليس كما يظن الناس أن التعلق يحول بينك وبين ربك، يحول التعلق بينك وبين ربك إن شابه الحرام، أو غلوت فيه فأنساك ذكر ربك حتىٰ يتوارىٰ أوان العبودية بالحجاب.

خذ رقة النفس ورهافة الطبع التي أعطاك إياها هذا الحب، وانتفع

بها، واعلم أن هذا الألم علىٰ حدته وتلك الخيبة علىٰ شدتها= في باطنها رحمة تستحق خوض ما قد كان.

(٦٨)

قال لي: أنا لا أكاد أنجح في شيء في حياتي، الفشل يحاصرني، تعبت من كثرة أخطائي.

فقلت له: هل تعلم أن رجلًا من الناس قادته أخطاؤه يومًا حتىٰ خرج من الجنة ودخل في نصب هذه الحياة؟

نعم. الجنة التي نكد لندخلها أخطأ هو خطأ أخرجه منها.

ماذا تظن أن هذا الرجل قد فعل؟

لا شيء. لقد فعل فعلًا واحدًا أساسيًا: لقد استطاع أن يقف علىٰ قدميه ثانية، ليكون أكبر مثل علىٰ أظهر معالم عظمة الإنسان: أنه يستطيع دائمًا أن يعود.

إن الإنسان باعتبار ما: هو مثل مضروب لإبليس يقيم الله به الحجة عليه إلىٰ يوم القيامة:

ليست العظمة في طهر يقود للكبر، إنما العظمة في انكسار هذا القلب بين يدي ربه كلما أذنب ذنبًا.

تحمل مسؤولية أخطائك، لكن لا تجلد نفسك، واعلم أن للكون إلهًا واحدًا فلا تضع رأسك إلا بين يديه.

كل خطأ هو فرصة جديدة للتعلم؛ فلا تنظر إلىٰ الصورة الضيقة التي يتمركز الخطأ في وسطها، ولكن انظر إلىٰ الصورة الكلية واطمح لها، أن تضيف دائمًا إلىٰ رصيدك في الحياة تلك المرات التي جعلت النقص فيها سلمًا نحو الكمال.

قف مع نفسك، وانظر لها، بين يدي ربها، ولا تنظر قط إلىٰ الناس، واستعن بالله ولا تعجز، واسأل الله أن يغيثك بغوثه وألا يكلك إلىٰ نفسك، واعلم أن الدنيا ليست دار نعيم، وأن كل مصيبة ليس معها غضب الله تهون.

وآخر شيء: اقرأ القرآن واستمع له ما استطعت، وصل لربك وألح عليه في الدعاء، واجعل ما بينك وبين الله عامرًا؛ فإنه سبحانه منه الحول والقوة.

(٦٩)

غض البصر.

قاعدة هذا الباب وأبواب كثيرة مثله تقوم علىٰ صناعة العادة.

إذا تعودت غض البصر يكون غض البصر عندك شيئا آليا لا تكاد تقع عينك علىٰ امرأة مهما كانت جميلة إلا شعرت بعضلات رقبتك كما لو كانت تخفض عنقك وعينك قسرًا.

ومهما تعودت عينك علىٰ النظر المحرم وأدمنته= صرت تنظر للقبيحة تبحث عن موطن جمال تلتذ به، فانظر فرق ما بين الحالين!

الصلاة في أول وقتها وصلاة الجماعة متىٰ صبرت علىٰ مرحلة العسر الأولىٰ= انتقلت إلىٰ مرحلة تجد نفسك فيها تقوم للصلاة وتخرج إليها آليًا بلا مشقة تذكر ولا تحديث نفس بالقعود.

ومتىٰ اعتدت تركها صرت تجد نفسك في الطريق بينك وبين المسجد خطوات والمؤذن يقيم الصلاة ورغم ذلك نفسك ثقيلة لا تكاد تتحرك تريد المسجد.

إن أبواب الخير والجهاد عليه ترجع كلها عندي بعد توفيق الله إلىٰ قاعدة الصبر علىٰ العسر حتىٰ التمتع باليسر، تقل المدة بينهما وتكثر لكن القاعدة لا تنخرم.

لن تصحو من النوم فتجد الطاعة سهلة، ولن تجدها سهلة ثم تستمر سهولتها بل أنت في جهاد مستمر، وكل نقطة فوز تحصدها تبعدك عن الخسارة خطوة.

حالك القديم كان عادة وانتقالك عنه صار عادة وعودك إليه أيضا عادة والعادات تكتسب بالمران والصبر والتكرار وسقطة مرة يليها تفادي سقطة عشرة وهكذا حتىٰ يستقيم القلب لك ويكون السقوط شذوذًا لا تلبث بعده أن تعود.

(٧٠)

عن الشحناء والخصومة، والمشاحنة المذمومة:

الشحناء أن تشحن قلبك غضبًا، وهذا إنما يُستعمل فيمن يغضب فوق القدر الشرعي الذي يباح له، أو يقوده الغضب والبغض إلىٰ تعدي حدود الله.

فإن الغضب وترك العفو والهجر والبغض أربعة أنواع تستعمل وتكون حقًا أحيانًا وتستعمل وتكون باطلًا أحيانًا أخرىٰ، فالباطل منها هو ما يحرمه الشرع وهو المقصود بمنع رفع الحسنات.

أما الحق فلا يحرمه الشرع ولا يمنع رفع الحسنات.

وبيان ذلك فيما يلي:

غضبك علىٰ مسلم وعدم صفاء صدرك له وعدم قدرتك علىٰ مسامحته، الأصل فيه أنه حرام؛ فإن سلامة الصدر للمسلمين واجبة، وإذا حصل هذا منك فإن كان حصل لحظوظ الدنيا التي لا يجب لك فيها حق شرعي، وليس لمعنىٰ شرعي يتعلق بالنفع الذي يحبه الله في الآخرة= كان هذا محرمًا فإن التباغض علىٰ لعاعة الدنيا وفي غير مقاطع الحقوق وفي غير محارم الله ممنوع وهو إثم، ولا يعفىٰ إلا عن الكره العارض الذي يقع في النفس لشخص بلا سبب فهذا يعفىٰ عنه طالما لم يؤد إلىٰ أن تمنعه حقوقه.

بالتالي ما كان في صدرك علىٰ مسلم بسبب ظلم وقع عليك وحق ضيعه منك أو بسبب معصية يركبها= فلا حرج عليك في هذا الغضب

والبغض ما دام علىٰ قدر الخطأ لا يتعدىٰ، وما دام لا يقترن بزوال محبتك له بقدر حسناته وطاعته ولم يقترن بأن صرت لا تحب له ما تحب لنفسك.

فإذا غضبت وخاصمت من رفض إقراضك فهذه خصومة محرمة فليس إقراضه لك واجبًا، وإذا خاصمت من ظننت أنه أخطأ في حقك ولم تكن معك بينة فهذه خصومة محرمة، وشرط الإثم أن يمر ثلاث ليال، فإن الله يعفو عن هذه الثلاث الأولىٰ؛ لعلمه سبحانه بضعف نفوسنا، لكن ما بعدها إثم.

قال ابن رسلان: ويظهر أنه لو صالح أحدهما الآخر فلم يقبل غفر للمُصالح.

وإذا خاصمت من سبك وشتمك وأهانك فهذا حقك لا شيء عليك وليس يجب عليك أن تسامحه وإن كان العفو في غالب الأحوال أفضل، ومع عدم عفوك يشترط أن تبقىٰ تحب الخير له.

وشرط غضب القلب وسواغ عدم المسامحة ألا يقترن ذلك بأن تتعدىٰ عليه وتسبه بما ليس فيه أو تتمنىٰ له مكروهًا يزيد عن درجة خطئه في حقك، ولا يحرم في المسرفين الذين يتعدىٰ ضررهم أن تتمنىٰ أن يزول الضرر ولو بهلكتهم وموتهم.

يبقىٰ النظر فيما إذا كنت مقاطعًا له، فتكون جمعت بين غضب القلب وقطيعة الجوارح:

القطيعة نوعان:

النوع الأول: بمعنىٰ أنك تخفف علاقتك به لكنك إذا رأيته ألقيت السلام، وإذا سلم رددت عليه، وإذا مرضت لم تمتنع من زيارته، وإذا عطس دعوت له، وإذا مات شهدت جنازته= فهذه ليست قطيعة ولا خصام ولا تحرم، بل لابد للناس من هذا، فليس الناس كلهم يطيقون صحبة بعضهم، لكن إن لم يكن يؤذيك فلا بد أن يزيد الكلام معه قليلًا عن هذا.

لذلك قال مالك لما سئل عن رد السلام هل يخرج من الهجر والقطيعة فقال: حري إن كان يؤذيه برئ من الشحناء.

وأما القطيعة بمعنىٰ أن تمنعه ما سبق فهي الهجر، فإن كان يؤذيك الوصل ويضرك نتيجة لسوء خلقه أو تكرر ظلمه أو تأكدك من أنه يظن بهذا ذلتك فيزيد في عدوانه ونحوه= فلا حرج عليك في هجره وقطيعته.

وإن كان الوصل لا يؤذيك لكنك تظن أو أفتاك من تثق به أن تلك القطيعة تفيد في عودة حقك أو علىٰ الأقل في تحذير الناس من ظلمه= فلا حرج في هجره وقطيعته، لكن هذه الصورة الأخيرة يحتاج تقديرها إلىٰ نزاهة وتجرد، وأحسنها ما كان لحق الله لا لحق نفسك.

قال أبو داود: إذا كان الهجر لله فليس من هذا فإن النبي ﷺ هجر بعض نسائه أربعين يوما، وابن عمر هجر ابنا له حتىٰ مات.

(٧١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «جعل الله ﷻ عباده المؤمنين بكل منزلة خيرًا منه، فهم دائمًا في نعمة من ربهم، أصابهم ما يحبون، أو ما يكرهون، وجعل أقضيته وأقداره التي يقضيها لهم ويقدرها عليهم متاجر يربحون بها عليه، وطرقًا يصلون منها إليه، كما ثبت في الصحيح عن إمامهم ومتبوعهم الذين إذا دعي يوم القيامة كل أناس بإمامهم دعوا به صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله عجب لا يقضىٰ الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**».

فهذا الحديث يعم جميع أقضيته لعبده المؤمن وأنها خير له إذا صبر علىٰ مكروهها وشكر لمحبوبها، بل هذا داخل في مسمىٰ الإيمان كما قال بعض السلف: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وإذا اعتبر العبد الدين كله رآه يرجع بجملته إلىٰ الصبر والشكر، وذلك لأن الصبر ثلاثة أقسام:

الأول: صبر علىٰ الطاعة حتىٰ يفعلها، فإن العبد لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبرٍ ومصابرة ومجاهدة لعدوه الباطن والظاهر، فبحسب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات وفعله للمستحبات.

النوع الثاني: صبر عن المنهي عنه حتىٰ لا يفعله، فإن النفس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء؛ تأمره بالمعصية وتجرئه عليها، فبحسب قوة صبره يكون تركه لها قال بعض السلف: «أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يقدر علىٰ ترك المعاصي إلا صديق».

النوع الثالث: الصبر علىٰ ما يصيبه بغير اختياره من المصائب وهي نوعان:

الأول: نوع لا اختيار للخلق فيه، كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها، لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقدره، وإنه لا مدخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارًا، وإما اختيارًا، فإن فتح الله علىٰ قلبه باب الفكرة في فوائدها وما في حشوها من النعم والألطاف انتقل من الصبر عليها إلىٰ الشكر لها والرضا بها، فانقلبت حينئذ في حقه نعمة؛ فلا يزال هجيرىٰ قلبه ولسانه «رب أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، وهذا يقوىٰ ويضعف بحسب [قوة] محبة العبد لله وضعفها، بل هذا يجده أحدنا في الشاهد كما قال الشاعر يخاطب محبوبًا له [ناله ببعض ما يكره]:

لإن ساءني أن نِلتِني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت

النوع الثاني: أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه.

فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًّا، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر علىٰ هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون، وكان نبينا إذا أوذي يقول: «**يرحم الله موسىٰ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» وأخبر عن نبي من الأنبياء أنه ضربه قومه فجعل يقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» وقد روي عنه أنه جرىٰ له هذا مع قومه [فجعل يقول مثل ذلك]، فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون؛ وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ فإذا انضاف إلىٰ هذا الصبر قوة اليقين والإيمان ترقىٰ العبد في درجات السعادة بفضل الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني الأعمال الصالحة مثل العفو والصفح ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ نصيب وافر وهي الجنة.

ويعين العبد علىٰ هذا الصبر عدة أشياء:

أحدها: أن يشهد أن الله ﷻ خالق أفعال العباد حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه، ومشيئته والعباد آلة، فانظر إلىٰ الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلىٰ فعلهم بك؛ تستريح من الهم والغم والحزن.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وإن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه، عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلىٰ نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي. صارت في حقه نعمة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمة من جواهر الكلام: «لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد إلا ذنبه» وروي عنه وعن غيره: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة».

الثالث: أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفىٰ وصبر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ولما كان الناس عند مقابلة الأذىٰ ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه؛ ومقتصد يأخذ بقدر حقه؛ ومحسن يعفو ويترك حقه. ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداء المنادي يوم القيامة «ألا ليقم من وجب أجره علىٰ الله، فلا يقوم إلا من عفىٰ وأصلح» وإذا شهد مع ذلك فوت الأجر بالانتقام والاستيفاء سهل عليه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفىٰ وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش، والغل، وطلب الانتقام، وإرادة الشر؛ وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلًا وآجلًا علىٰ المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفة، ويدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيصير محبوبًا لله، ويصير حاله حال من أُخِذَ منه دراهم فَعُوِّضَ عنها ألوفًا من الدنانير؛ فحينئذ يفرح بما مَنَّ الله عليه أعظم فرحٍ ما يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلًّا [جده] في نفسه، فإذا عفىٰ أعزه الله. وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**» فالعز الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عِزٌّ في الظاهر وهو يورث في الباطن ذُلًّا؛ والعفو ذل في الباطن وهو يورث العز باطنًا وظاهرًا.

السادس: وهي من أعظم الفوائد- أن يشهد أن الجزاء من جنس

العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفىٰ عن الناس عفىٰ الله عنه، ومن غفر غفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه علىٰ ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره ويكفي العاقل هذه الفائدة.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه، ما لا يمكن استدراكه؛ ولعل هذا يكون أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفىٰ وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه وانتقامه لها، فإن رسول الله ما انتقم لنفسه قط فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم علىٰ الله لم يكن ينتقم لنفسه مع أن أذاه أذًا لله ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها وأبعدها من كل خُلقٍ مذموم، وأحقها بكل خُلقٍ جميل؛ ومع هذا فلم يكن ينتقم لها. فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من العيوب والشرور بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أوذي علىٰ ما فعله لله أو علىٰ ما أمره به من طاعته ونهىٰ عنه من معصيته وجب عليه الصبر ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أوذي في الله؛ فأجره علىٰ الله، ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبت دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله تعالىٰ اشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن علىٰ الله لا علىٰ الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له علىٰ الله ثمن، فإنه من كان في الله تلفه كان علىٰ الله خلفه.

وإن كان قد أوذي علىٰ معصية، فليرجع باللوم علىٰ نفسه، ويكون في لومه لها شغل عن لومه لمن آذاه.

وإن كان قد أوذي علىٰ حضٍّ، فليوطن نفسه علىٰ الصبر، فإن نيل الحظوظ دونه أَمْرٌ أَمَرُّ من الصبر، فمن لم يصبر علىٰ حر الهواجر، والأمطار، والثلوج، ومشقة الأسفار، ولصوص الطريق، وإلا فلا حاجة له في المتاجر، وهذا أمر معلوم عند الناس أن من صدق في [طلب] شيء من الأشياء بذل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

العاشر: أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذىٰ والمضرات ما لا يدفع عنه أحد من خلقه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل من إيمانه جزءً في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص والله تعالىٰ يدفع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر: أن يشهد أن صبره حكم منه علىٰ نفسه، وقهر لها، وغلبة لها، فمتىٰ كانت النفس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه، وأسره، وإلقائه في المهالك؛ ومتىٰ كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها لم تزل [به] حتىٰ تهلكه، أو [تتداركه] رحمة من ربه.

فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه؛ فحينئذ يظهر سلطان القلب وتثبت جنوده، فيفرح ويقوىٰ ويطرد العدو عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل

من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلىٰ نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصره الله خير الناصرين، إلىٰ من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه.

الرابع عشر: أن صبره علىٰ من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه وندامته واعتذاره، ولوم الناس له فيعود بعد إذائه له مستحييا منه، نادمًا علىٰ ما فعله؛ بل يصير مواليًا له وهذا معنىٰ قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

الخامس عشر: ربما كان انتقامه ومقابلته سببًا لزيادة شر خصمه وقوة نفسه وفكرته في أنواع الأذىٰ التي يوصلها إليه كما هو المشاهد، فإذا صبر وعفىٰ أمن من هذا الضرر. والعاقل لا يختار أعظم الضررين بدفع أدناهما، وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شر عجز صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهبت به نفوس ورياسات وأموال وممالك لو عفىٰ المظلوم لبقيت عليه.

السادس عشر: أن من اعتاد الانتقام ولم يصبر، لابد أن يقع في الظلم؛ فإن النفس لا تقتصر علىٰ قدر العدل الواجب لها؛ لا علمًا، ولا إرادة؛ وربما عجزت عن الاقتصار علىٰ قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلىٰ حد لا يعقل ما يقول وما يفعل، فبين هو مظلوم ينتظر النصر والعز، إذ انقلب ظالمًا ينتظر المقت والعقوبة.

السابع عشر: أن هذه المظلمة التي ظُلمها هي سبب، إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.

الثامن عشر: أن عفوه وصبره من أكبر الجند له علىٰ خصمه، فإن من

صبر وعفىٰ كان صبره وعفوه موجبًا لذل عدوه، [وخوفه] وخشيته منه، ومن الناس، فإن الناس لا يسكتون عن خصمه وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله ولهذا تجد كثيرًا من الناس إذا شتم غيره أو آذاه يحب أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقىٰ عنه ثقلًا كان يجده.

التاسع عشر: أنه إذا عفىٰ عن خصمه، استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه؛ فلا يزال يرىٰ نفسه دونه وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعفو.

العشرون: أنه إذا عفىٰ وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرىٰ، وتلك الأخرىٰ تولد أخرىٰ، وهلم جرا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سببًا لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس كل إنعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة».

نعم. ليس كل امتحان أو ابتلاء يكون عقوبة علىٰ ذنب، والإسراف في تقريع الناس في الكوارث والمحن بأن ذلك من ذنوبهم فوق أنه قول علىٰ الله بغير علم= ففيه من فقد التراحم والتعاطف والدعم والتعزية والمواساة ما يكشف عن الجهل أو قسوة القلب أو كليهما.

تخيل أن رجلًا مات ولده فذهبت وقمت عند أذنيه فقلت له: هذا البلاء بسبب ذنوبك!

هذا في الحقيقة هو واقع كثير من الناس الذين يضعون الحق في غير موضعه وهم مع وضعهم إياه في غير موضعه قد خلطوه بالباطل أيضًا، فلم يُراعوا المقامات، ولا ب(ماذا) يخاطبون (من).

إنا لله وإنا إليه راجعون، أعان الله المبتلين من إخواننا المسلمين في هذه المحنة الكبرىٰ التي يمرون بها، وثبتهم وألهمهم الصبر وكشف عنهم الضر، وإن من أضر الضراء تكلم أناس بغير علم قد تسلطوا علىٰ إخوانهم بالأذىٰ، ولم يهدهم الله إلىٰ الطيب من القول.

الخطاب العام في المحن والأزمات الكبرىٰ يكون بتعزية المبتلين وبمواساتهم وليس بتقريعهم أو القضاء العام عليهم مع اختلاف مراتبهم أنهم أصحاب ذنوب كان هذا البلاء بالذات عقابًا لهم؛ فهذا لا سلطان لأحد يعلمه به، ومسارعة النفوس إليه مع اتساع مجال التعزية والمواساة والتراحم والتعاطف؛ يكاد يكشف عن طوية نفس لا تعرف للرحمة لسانًا.

وختامًا:

فالله يقول: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

إن المسلمين والناسَ كلهم في هذه الدنيا؛ لأنها دار بلاء، المصابُ منهم مبتلًى بالضرَّاء، والمعافىٰ منهم مبتلًى بالرَّخاء مُمتَحَنٌ بالسرَّاء، كلاهما في اختبار، والعدلُ الرباني لا يُنظر إليه من جهةِ كفة الدنيا فحسب، بل ميزانه الدنيا والآخرة، فإذا أتيت علىٰ ربك يوم القيامة فلم تجده أعطىٰ المحسِنَ أجرَ إحسانِه وزيادة، وعاقبَ الظالمُ المسيءَ بإساءته عذابًا مهينًا جزاءً وفاقًا= ساعَتها اسأل عن العدل الإلهي أين هو.

وقد كان فيما قدَّره اللهُ وقضاه في هذه الدنيا، أن رأينا أراذلَ الخلقِ يقتلون الأنبياء، وجُعل قتلُ نبيٍّ كريمٍ قُربانًا يتقرب به ملكٌ كافر لِبغيٍّ فاجرة.

وقد أخبرنا اللهُ في قرآنه عن ملكٍ لا يساوي فِلسين، وهو يَحفِرُ الأُخدودَ ليُلقيَ فيه المؤمنين، ولم يتصارخ خيرةُ المؤمنين هؤلاء يتسخَّطون أقدار ربهم؛ أن قد آمنا، فكيفَ يتسلَّطُ علينا من يعذبنا فيحرقنا؟!

ما يحدث ليس جديدًا أصلا، وإن الله لم يَخدِع الناسَ شيئًا، بل هو من حكىٰ لنا أخبار الابتلاءات العظيمة التي وقعت بأوليائه، أفحسبتم أن تؤمنوا وأنتم لا تفتنون؟

علىٰ أي جوانبها تدورُ الرحىٰ، فإنها لا تدور إلا لتُلقي برأسكَ علىٰ عتبةِ مولاك، صابرًا علىٰ البلاء، شاكرًا علىٰ النَّعماء، مستغفِرًا من الذنوب، مُطيعًا مفتقرًا ترجو رضاه والجنة.

والمؤمن يجعل بين عينيه قولَ السحرةِ لفرعونَ لَمَّا آمنوا فعذَّبهم:

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٖۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طٰهٰ: ٧٢].

وقولهم: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٠].

إن ما حدث للسحرة مع فرعونَ من أظهر نصوص الوحي في فهم طبيعةِ الابتلاءِ وميزان الخير والشر، فهذه الدنيا وما يكون فيها ليست معيارًا للخير والشر، وليست مَيدانًا لتحقيق العدل الإلهي أصلا.

إن الله ﷻ يبتلي عبادَه ليرفعَ درجات الصابرين، ويزيدَ في عذابِ الظالمين، ويُمحِّص صَفَّ المؤمنين، ولِتُقامَ بهم الحُجّة علىٰ عذاب المجرم يوم القيامة، فلا يُشفِق عليه أحد، ولا يَعتذر عنه أحد، وليمتحن اللهُ بهم أمثالنا من المؤمنين: أيثبُتون أم يستزلهم الشيطان فيكفروا؟

أما المُبتَلون= فغمسة في الجنة تُنسي كل شقاءٍ كأن لم يكن، يَخلُقهم الله خلقًا آخر، هو ربهم وملكُهم، لولاه ما كانوا.

وهو سبحانه ذَكر لنا في مُحكم التنزيل خبرَ المؤمنين يُلقَون في أُخدود النار، ثم بيَّن النبيُّ ﷺ من ذلك موقفًا عظيمًا فيقول ﷺ: «جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام يا أمّ اصبري، فإنك علىٰ الحق».

إن طائفةَ المؤمنين الذين أعدَّ اللهُ لهم جناتِ النَّعيم= يعلمون أن الدنيا وشرَّها كله يسير في مقابل جنةِ الخلد ونعيمٍ لا يَفنىٰ، ونظرةٍ إلىٰ وجههِ الكريم لا يَبقىٰ في النَّفس بعدها شيءٌ غيرَ النعيمِ تذكره.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، من وعىٰ هذه الحقيقة= نجَّاهُ اللهُ من مصير الذين خَسِروا أنفسَهم فصاروا يُحاسِبون الله علىٰ فعله، ويقضون عليه في خلقه.

المصادر الأساسية

(١) منهج الإسلام في تزكية النفس، محمد خير فاطمة.
(٢) منهج السلف في تزكية النفوس، سعدي بن حمود الشمري.
(٣) تزكية النفس ومعالجة الآفات، عبد الله بن محمد اليوسف.
(٤) منهج الإسلام في تزكية النفس، انس كرزون.
(٥) منهج الأنبياء في تزكية النفوس، سليم الهلالي.
(٦) الأخلاق الإسلامية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.
(٧) أسباب رقة القلب، عبد العزيز الفايز.
(٨) موسوعة الأخلاق الإسلامية، مؤسسة الدرر السنية.
(٩) فقه القلب، أحمد سالم.
(١٠) أعمال القلوب، خالد السبت.